محمد رواس قلعه جي
المدرس بدور المعلمين بحلب

من روح القرآن

اهداء

— إلى والدي عامل البناء البسيط ، الذي كان يعمل من مطلع الشمس
— حتى غروبها ، في حر الصيف و برد الشتاء ليعلمني
— وإلى والدتي التي كثيراً ماعملت كل ما تستطيع أن تعمله امرأة مثالية لتعلمني .
— إلى والدي العظيمين أهدي كتابي هذا ....

تقديم

بقلم فضيلة الاستاذ ابراهيم سلقيني
المدرس بدار المعلمين سابقاً ومدير اعدادية العودة حالياً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن ليكون للعالمين نذيراً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاء بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وعلى آله وصحبه.

وبعد : فان القرآن الكريم نزل هدى ورحمة للعالمين يخاطب الاجيال كلها فهو حبل الله المتين ، والنور المبين ، إلى يوم الدين ، لذا كان من الحق على كل مؤمن يدعو بدعاية الله ، ويقوم بحقها الواجب عليه ، أن ينشر هدى القرآن وأن يوجه الأنظار الى نوره ليقتبس الناس منه ، ويستضيئوا به ، وفي الحق ان تبليغ هدى القرآن للناس أمر لامناص منه ، ولا سبيل للخروج من تكليف المؤمنين إقامة الحجة به .

ولقد سعد المسلمون بهذا الكتاب الكريم الذي جعل الله فيه الهدى والنور ، وأيقنوا بالتجربة أنه لا شرف إلا والقرآن سبيل إليه ، ولا خير إلا وفي آياته دليل عليه ، فراحوا يبحثون عن معانيه ليقفوا على ما فيه من دروس وعبر ، وأخذوا يتدبرون في آياته ليستنبطوا من مضامينها ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

وهذا المؤلف محاولة كريمة من أخ كريم وفق لنفع الخلق الذين هم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله ، وله جهد واضح مشكور ، جاء بأسلوب واضح

معزز بأسباب النزول للايات الكريمة .

وقد اختار المؤلف لكتابه عنوان (من روح القرآن) ليطابق الاسم مسماه ،وهو عون للعالم ، ومرجع المتعلم ، ومصدر لمعلمي المدارس الابتدائية ولطلاب دور المعلمين يجدون فيه ما يحتاجون إليه ، وما يسهل عليهم واجبهم.

ولقد عرفت الأستاذ القلعجي فرأيت فيه صدق الحدس ، وصفاء النفس واستنارة الوجدان ، والدأب المستمر ، لذا جاء كتابه علمي توجيهي استمد من عقل الأستاذ الحصيف ، ونور بصيرته وعلمه .

فما أحوج المسلمين إلى من يعرفهم بكتاب ربهم ، ويعينهم على تفهم أسراره ويوقفهم على حقيقة إسلامهم ، فجزى الله الاستاذ القلعجي على كتابه هذا خير الجزاء والله أسأل أن يزيده وأمثاله فضلاً واحساناً وتوفيقاً ، إنه سميع مجيب.

ابراهيم محمد السلقيني

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له واشهد ان محمداً عبده ورسوله .

أما بعد : فان كتاب الله هو الحبل الممدود من السماء الى الأرض ، من تمسك به اهتدى ، ومن حاد عنه ضل ، فيه ما يحتاج إليه الانسان من عقيدة واخلاق وتنظيم للسلوك ، وأن القارىء لهذا الكتاب عن إيمان ورغبة ، يجد فيه روحاً خاصة ليست موجودة في أي كتاب آخر مهما رقى وسما ، وقد أشعر أنا بروح غير التي تشعر بها أنت ، وتشعر أنت بروح غير التي يشعر بها غيرك ، كل بحسب استعداده ورقي روحه وصفاء نفسه ، ومقدار علمه ، وأنا لا أعني بتلك الروح الأحكام الشرعية التي اشتملها القرآن الكريم ، كما لا أعني بها التوجيهات السامية التي رددتها آيات الله في كتابه ، كما لا أعني ذلك الاعجاز في التعبير عن المعاني المنبثة في القرآن الكريم ، وانما اعني بتلك الروح ذلك التفاعل النفسي مع آيات القرآن الكريم وتلك الروعة التي تأخذ القارىء دون أن يستطيع لها تفسيراً .

ولذلك آثرت أن أسمي تلك السور التي بينت بعض مراميها فيهذاالكتاب « من روح القرآن الكريم » .

ولقد جهدت أن أضع أسباب النزول كاملة لكل آية من آياتها رامياً من وراء ذلك إلى غرضين

أولهما : القاء ضوء على معنى الآية بالذات

ثانيها : توطيد الصلة بأولئك الأفذاذ من الصحابـــة الكرام الذين نزل القرآن فيهم ، مقوماً سلوكهم ، ومعلماً ، ومربياً .

ولا يفوتني أن أنبه أن هذه السور التي اشتمل عليها هـــذا الكتاب هي مقررة في المدارس الابتدائية ، ولذلك سأنبه على منهاج كل صف ، في أعلا الصفحة ليكون مرجعاً للمعلمين في المدارس الابتدائية .

كما أن هذه السور نفسها مقررة في الصفوف الثلاثة الأولى من دور المعلمين وفي الصف الخاص ، ولذلك سأنبه إلى منهاج كل صف في أسفل الصفحة .

فأرجو من أخواني المدرسين الذين لهم أي ملاحظة على هذا الكتاب أن يكتبوا إلي بها لان غايتنا خدمة دين الله ، والوصول إلى أفضل الطرق لايصال هذا الدين إلى الناس .

واني أرجو من الله أن يسدد خطاي فانه خير مقصود .

في ٢٢ ذي الحجة ١٣٨٣ و ٥ أيار ١٩٦٤

محمد القلعه جي

المدرس بدار المعلمين بحلب

الصف الاول ابتدائي [1]

سورة الفاتحة

نزلت بمكة بعد سورة المدثر

النص : الحمدُ لله ربِ العَالمين، الرَّحمْنِ الرَحيم ، مَالكِ يومِ الدِّينِ ، إياكَ نَعبُدُ وإيّاكَ نستَعِين ، إهْدِنا الصراطَ المُستقيم ، صِراطَ الذينَ انعَمتَ عليهِمْ ، غيرِ المغضُوبِ عَليهِم ولا الضّالينَ :

بين يدي السورة : نزلت سورة الفاتحة مرتين . الاولى في مكة عندما فرض الله سبحانه الصلاة ، والثانية في المدينة عندما حولت القبلة من المسجد الاقصى بالقدس الى الكعبة المشرفة ، قال تعالى « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » قال المفسرون : هي سورة الفاتحة ، عدد آياتها سبع آيات ، وهي تثنى وتقرأ في كل ركعة من ركعات الصلاة .

---

(١) ابتداء منهج الصف الأول من دور المعلمين ، وإليك نص المنهاج : مراجعة المناهج الدينية بالصفوف الأربعة الأولى الابتدائية مع العناية بفهم وحفظ الآيات المقررة من القرآن ودراسة مقرر العبادات

وهو نفسه مقرر الصف الخاص من دور المعلمين

شرح الالفاظ: الحمد : الثناء ـ العالمين : جمع عالم ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه وهو اسم لما علم به الله تعالى ـ الدين : الجزاء ـ نعبد : نذل ونخشع ـ الصراط : الطريق ، من سرط الشيء اذا ابتلعه ، وسمي الطريق صراطا لانه يبتلع السابله إذا سلكوه .

لغويات : ١ ـ من عادة العرب أنهم يحذفون الكلمة إن علمت لدى السامع ، ويكتفون بدلالة ما ظهر من منطقها على ما حذف كما قال الشاعر :

وأعلمُ انني سأكونُ رمسا اذا سار النواعجُ لا يسيرُ
فقال السائلون لمن حضرتم فقال المخبرون لهم وزير

أى : ان الميت وزير ، فحذف الشاعر كلمة « وزير » لانه قد ورد في البيت ما يدل عليها .

بعدهذه المقدمة البسيطة المعروفةفي لغتنا العربية ، نعود الىسورةالفاتحة، إن الله سبحانه يقول :الحمد لله رب العالمين، فهل معنى ذلك أن الله سبحانه يثني على نفسه ؟ واذا كان كذلك فما معنى قوله تعالى « اياك نعبد » ... أم ان الرسول(ص) أو جبريل يقول « الحمد لله رب العالمين ... » وان كان كذلك فمعنى هذا أن الفاتحة ليست من كلام الله ـ نعوذ بالله من ذلك ـ وفي الحقيقة انه ليس بهذا ولا ذاك وانما معناها « قولوا الحمد لله رب العالمين » فقد استعمل القرآن الكريم أفصح اساليب العرب فحذف الكلمة عندما يدل السياق عليها ، فحذف كلمة « قولوا » عندما دل السياق عليها ، فقوله تعالى الحمد لله ... مفعول به مقول القول.

٢ ـ غير المغضوب عليهم ولا الضالين « لا » زائدة أي غير المغضوب عليهم والضالين .

فهم روح السورة : فسورة الفاتحة إذن ذات معنى جليل ، لم يدركه كثير من المسلمين الذين يكررونها مرات ومرات في اليوم ، ان الله سبحانه وتعالى يعلّم عباده المؤمنين كيفية مناجاته ، وأي شيىء يجب ان يسعى اليه المرء اكثر من مناجاة خالقه جل وعلا ... إنه درس ثمين ، وعلم بلغ الآفاق ، الرب سبحانه يعلمنا مناجاته ، والمناجاة لله سمو بالروح ، ورقي بالنفس ، وترفع عن عالم الحطام ، وانتشال من الأرض واتصال بالسماء ، انها التجاء الى الله ان ضاقت بك الدنيا او اتسعت ، تلك هي المناجاة فهل عرفتها ايها الانسان ؟... فان لم تكن تعرفها بعد فان الله سبحانه يعلمك مناجاته في هذه السورة « سورة الفاتحة » . وحق لها ان تسمى بالفاتحة ، انها تعبير صادق عن مضمونها ... اليس القرآن كلام الله ... وان انت قرأت كلام الله أفلا تناجي الله سبحانه ... وسورة الفاتحة هي التي تعلمك هذه المناجاة ، ان لسان حالها يقول لك : ايها المسلم قل اهدنا الصراط المستقيم وانت تقرأ القرآن الكريم ... التمس منه الهداية ، واكشف عن عظمة تشريعه ، وسمو توجيهاته وتمسك بذلك كله ...

ان معنى سورة الفاتحة بالاختصار :

ان الله سبحانه يعلمنا كيفية مناجاته ، فيأمرنا ان نثني عليه سبحانه ، فهو الذي خلق العوالم كلها ، عالم الانسان ، وعالم الحيوان ، وعالم الجن ، وعالم الافلاك و ... وهو القائم على تدبيرها ، أبعد هذا كله أفلا يستحق الثناء ؟ ان الذي اخترع السيارة مثلا يلهج الناس بذكره ليل نهار ، ولله المثل الاعلى ـ افلا يستحق من خلق كل ما تراه وما لا تراه ، وتسمعه وما لاتسمعه ، وتحس به وما لا تحس به ، الثناء ، ليس هذا فحسب بل هو المالك لزمامه لا يفلت منه ، اليه المآل والرجعى وان طال الامد .

وما اجمل الانسان حين يرفع يديه الى السماء معترفاً بعبوديته لهذا الخالق الكريم ، مشعراً نفسه بحقارته وذله امام عظمة الخالق الجبار ، معترفاً بانه لايقدر على شيء إلا بمعونة الله سبحانه ، واذا كان الكفار يستعينون بالحكام الظلام ، او

بالآلهة المزيفة ، او بالجاه والمال ، فاننا لا نستعين إلا بك يارب ، لانك انت يا ربنا خالق الجاه ، والمال ، والسلطان ، اننا نطلب منك يا ربنا ان توفقنا لاتباع الطريق المستقيم ، طريقك وطريق رسولك ، وطريق المؤمنين الصادقين ، الطريق الذي رضيت عمن اتبعه ، وسخطت على من انحرف عنه ، ربنا ابعدنا عن طريق هؤلاء الحائدين الذين استحقوا غضبك .

سورة الاخلاص

نزلت في مكة بعد سورة الناس

النص : قُلْ هو اللهُ أحَد ، اللهُ الصَّمَد ، لم يلِدْ ولم يولَد ، ولم يكُنْ له كفُواً أحَد .

شرح الالفاظ : الصمد : هو السيد الذي وصل الى غاية السؤدد ، وكانت العرب تسمي اشرافها الصمد ـ كفوا : مماثلا ، مكافئاً .

اسباب النزول : قالت قريش لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا محمد صف لنا ربك فانزل الله تعالى : قل هو الله احد ... الآيات .

فضلها : روى البخاري عن ابي سعيد : ان رجلا سمع رجلا يقرأ « قل هو الله احد » يرددها ، فلما أصبح ، جاء إلى النبي (ص) فـذكر ذلك له ـ وكان الرجل يتقالُها ـ فقال النبي (ص) « والذي نفسي بيده انها لتعدل ثلث القرآن » وروى البخاري ايضا عن ابي سعيد قال : قال رسول الله (ص) لاصحابه « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة » فشق ذلك عليهم وقالوا : « أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ » فقال (ص) . « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » .

معنى روح السورة : يخاطب الله سبحانه نبيه فيقول له : يا محمد بلغ الناس واعلمهم ان الرب المعبود هو واحد أحد ، لا نظير له ، ولا وزير ، ولا نديد ، ولا

شبيه ، هو الكامل في جميع صفاته ، وهو الذي انتهى الى اعلى مراتب السؤدد ، فهو السيد الذي كمل سؤدده الشريف الذي كمل شرفه ، والعظيم الذي كملت عظمته ، الحكيم الذي كملت حكمته . العليم الذي كمل علمه ، الحليم الذي كمل حلمه ، موجود منذ القدم لم يخلقه أحد ، ولم يتوالد من شيء ، منزه عن صفات المخلوقات ، فان كانوا هم يولدون فهو لم يولد ، وان كانوا يلدون فهو لا يأت منه ولد ، ولا يماثله شيء في الخلق ، فهو الخالق لا مخلوق ، وهو الموحّد لا يوجد غيره سبحانه وتعالى .

فالله سبحانه واحد في ذاته غير مركب من أجزاء ، وواحد في صفاته لا يساويه فيها موجود آخر ، فهو صمد في صفاته تعالى ، وواحد في أفعاله قال تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » على المؤمن أن يعتقد بهذا كله ويطبقه في حياته اليومية ليتوصل الى التوحيد الأعظم الذي تدل عليه كلمة « لا آله إلا الله » فلا يعبد إلا الله وحده ، ولا يطلب من سواه ما لا يقدر عليه الا هو جل شأنه ، ولا يجعل بينه وبين الله واسطة ، كما كان يفعل أهل الجاهلية حينما قالوا « وما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى » فلا يتوجه إلا اليه ، ولا يطلب إلا منه ، ولا يرغب إلا اليه ، ولا يخاف إلا منه لأنه لم يكن له كفواً أحد .

سورة الناس

نزلت في مكة بعد سورة الفلق

النص : قل أعوذُ بربّ النَاس ، مَلِك الناس ، إلهِ الناس، من شَرّ الوسواس الخَنّاس ، الذي يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَاسِ ، من الْجِنَّةِ والنَّاسِ .

شرح الالفاظ : الرب : المربي والمصلح ـ الوسواس: الذي يوسوس ،اي من يأتي بالافكار السيئة ـ الخناس : من خنس يخنس اذا تنحى وانقبض والمراد من الوسواس الخناس الذي يأتيك بأفكار السوء ثم ينسحب ـ الجنة : الجان.

فضلها : اخرج النسائي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : كنت امشي مع رسول الله (ص) فقال « ياعقبة قل » قلت ماذا اقول ؟ فسكت عني ثم قال « قل » قلت ماذا اقول يارسول الله قال : قل اعوذ برب الفلق ، فقرأتها حتى اتيت على آخرها ثم قال : قل، فقلت ماذا اقول يا رسول الله ؟ قال قل اعوذ برب الناس فقرأتها حتى اتيت على آخرها ثم قال رسول الله (ص) عند ذلك « ماسأل سائل بمثلها ولا استعاذ مستعيذ بمثلها » .

اسباب النزول : كان غلام من اليهود يخدم رسول الله (ص) فأتت إليه اليهود ولم يزالوا به حتى أخذ مشاطة النبي (ص) وعدة أسنان من مشطه ،فأعطاها

اليهود فسحروه فيها ، وكان الذي تولى ذلك « لبيـــد بن أعصم » اليهودي ، ثم دسها في بئر لبني زريق يقال لها «ذروان» فمرض رسول الله (ص) وانتثر شعر رأسه ... وجعل يدور ولا يدري ما عراه . فبينما هو نائم ذات يوم أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الذي عند رأسه : ما بال الرجل؟ قال طب ، قال : وما طب ؟ قال : سحر ، قال : ومن سحره ؟ قال : لبيد بن أعصم اليهودي قال : وبم طبه ؟ قال بمشط ومشاطة ، قال : وأين هو ؟ قال في جف طلعة تحت راعوفة في بئر ذروان ـ والجف : قشر الطلع ، والراعوفة : حجر في اسفل البئر يقوم عليه الماتح ـ الذي يغترف الماء بكفه ـ فانتبه رسول الله (ص) فقال: ياعائشة ما شعرت أن الله أخبرني بدائي ، ثم بعث علياً والزبير وعمـــار بن ياسر فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء . واذا وتر معقد فيه احد عشر عقـــدة مغروزة بالابر فأنزل الله تعالى سورتي المعوذتين ـ قل أعوذ برب الناس وقل اعوذ برب الفلق ـ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد رسول الله (ص) خفة حتى انحلت العقدة الاخيرة ، فقام كأنما نشط من عقال.

قال الصحابة : يارسول الله أولا نأخذ الخبيث لبيـد بن أعصم اليهودي فنقتله ؟ فقال رسول الله (ص) أما أنا فقـــد شفاني الله وأكره أن اثير على الناس شراً .

معه روح السورة : قل يا محمد وعلم امتك ان يلجأوا الى الله تعالى خالق الناس ومسير أمورهم والراعي لاحوالهم والمالك لشئونهم علمهم ان يلجأوا الى الله عز وجل من اولئك الذين يوحون اليهم افكار السوء ثم يتنحون عنهم سواء كانوا من شياطين الانس او من شياطين الجن ، اولئك الذين يزينون لهم الباطل ويغرونهم باقتحامه ، علمهم ان يلجأوا الى الله من هؤلاء لانه لا ملجأ منهم الا اليه سبحانه . واذا لم يلتجىء المؤمن الى الله فالى من يلتجىء ؟! انه سبحانه مالك السماوات والأرض ومن فيهن ، انه المدبر لأمرهم وان هؤلاء الذين تعفنت ضمائرهم، وخربت قلوبهم ، وطردوا الايمان من صدورهم ، يتقربون الى المؤمن لا ليشدوا

ايمانه اليه ، فان ذلك ليس من شأنهم ، وانما ليشككوه في دينه ، ويذروا بذور الالحاد في قلبه ، ويقنعوه بفكرة سوء او مبدأ كفر .

ان هؤلاء هم اخوان الشياطين الذين عاهدا انفسهم على القيام بغواية الانسان المؤمن فقالوا بلسان ابليس لله تعالى « لأقعدن لهم صراطك المستقيم » ان هؤلاء يغيظهم انتشار الايمان ، وسيادة الحق ، واقامة العدل ، واستتباب الامن والسلام لأن في ذلك موتهم ، ان هذا النموذج من البشر موجودون في مجتمعنا ، يحتكون بنا ، ونحن لا نملك حيالهم إلا أن نفتح عيوننا فلا تجذبنا تصرفاتهم ونلتجئ الى الله كي يعصمنا من الوقوع في حبائلهم .

سورة الفيل

نزلت في مكة بعد سورة الكافرون

النص: الم تَرَ كيف فَعَلَ رَبُّك باصحاب الفيل، الم يجعلْ كيْدَهُم في تضْلِيل، واَرسَلَ عليْهِم طَيْراً اَبَابِيلَ، ترميهم بحجارة من سِجّيلٍ، فجَعلَهُم كَعَصْفٍ مأكولٍ.

شرح الالفاظ : تضليل : تضييع وابطال ، ابابيل : جماعات متفرقة ، سجيل: فخار ، عصف مأكول : زرع أكله الدود.

مقدمة : هذه السورة تروي لنا قصة حدثت في العام الذي ولد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلاصة هذه القصة : انه كان يوجد في اليمن ملك عظيم يدعى « ابرهة بن الصباح » رأى مايفعله العرب من تعظيم الكعبة ، فبنى كنيسة عظيمة في « صنعاء » سماها « القليس » واراد ان يحج العرب الى هذه الكنيسة ، بدلا من أن يحجوا الى الكعبة ، فساء العرب هذا التصرف ، فخرج رجل من العرب من « كنانة » فتغوط في هذه الكنيسة ليلا ، فأثار هذا العمل حفيظة « أبرهة بن الصباح » وعقد العزم على الانتقام من العرب بهدم بيتهم الذي يقدسونه «الكعبة» وجهز جيشا عظيما لهذه الغاية ، زوده بثلاثة عشر فيلا ، وتقدم الجيش ، وما ان قدم ضواحي مكة ، حتى امر بنهب اموال العرب ومواشيهم ، فأصاب من جملة

ما اصاب ما ئتي بعير لعبد المطلب ، جد الرسول (ص) ، فقصد عبدالمطلب أبرهة، فاستقبله أبرهة باحترام باعتباره رئيس قريش ، وسأله عن حاجته فقال له عبدالمطلب ان جيشك أصاب لي مائتي بعير ، فارجـــو ردها لي ، فقال له « أبرهة » : لقد سقطت من عيني ، لقد ظننتك قدمت لتطلب مني الكف عن هدم الكعبة ، فأجابه عبدالمطلب (أنا رب الابل وللبيت رب يحميه) .

وفي اليوم الثاني امر الجيش بالتوجه نحو الكعبة ، ولكن الفيل العظيم « محمودا » رفض التقدم ، وهنا أرسل الله سبحانه طيرا من السماء تسير جماعات جماعات ، تحمل حجارة من فخار كانت تلقيها على الجندي فيخر صريعا ، وهنـا يحدثنا التاريخ انه لم ينج من الجيش الا وزير ابرهة « ابو يكسوم » حيث رجع الى بلاده ، وقص ماحدث لهذا الجيش لمواطنيه ومليكه .

من روح السورة : ان القرآن الكريم لم يتعرض لكل هذه التفصيـــلات الجزئية في القصة ، لان مهمة القرآن الكريم غير محصورة في اطلاعنا على الحوادث التاريخية ، والقرآن ليس كتاب تاريخ ، وانما هو كتاب هدايـــة وارشاد ، اذا عرفنا ذلك لانجد غريبا ان كان القرآن الكريم قد اخذ من الحوادث التاريخية ما يحقق له الغرض الذي يرمي اليه ، كما فعل في قصة اصحاب الفيل ، اذ ما الذي يهمنا من معرفة اسم قائد الجيش في مسألة الارشاد والتوجيـه ؟ وهل يؤثر على جوهر القصة وغرضها ان لم نعرف اسم الفيل الكبير ؟ ! وسنعرض لك الحـادثة كما صاغها القرآن الكريم في قالبه المعجز .

عجبا لهؤلاء المشركين كيف لا يتعظون ، اما سمعت يا محمد ، ثم سمعت ، ثم سمعت ، حتى تأكـــد لك الخبر فصار عندك كالعيان ، كيف اهلك الله ذلك الجيش الذي تتقدمه الفيلة ... انهم أرادوا الكيد لبيت الله ، فرد الله كيـــدهم ، بارساله طيرا في السماء تحمل أحجارا من فخار ، فألقتها عليهـم ، فقتلتهم تقتيلا ، وما هي الا برهة حتى كانوا كالزروع الميتة ... ملقون على الارض هنا وهناك .

انهم ولا شك يستحقون ذلك لانهم أرادوا هتك حرمات الله وهدم بيته

لشهوة في نفوسهم وبيت الله ـ الكعبة . . رمز الايمان ، والاباء والتسامح والاخوة والوحدة و ... لان الله أعدها لكي تكون قبلة المسلمين ومطافهم وبهدمها يتهاوى الرمز المجسد للمثل التي سيأتي بها الاسلام . فأخذهم الله وكانت المعجزة ... واليوم الكعبة مقامة ... ولكن المثل والمبادىء تتهاوى واحداً بعد الآخـــر والمسلمون نيام . ان الله لم يرض لاحجار ان تهد لأنها ترمز الى مثل ـ بيت الله ـ فكيف اذا بقيت الاحجار وهدت المثل ... وبعض المسلمين نيام ... الا يستحقـــون المسخ قردة وخنازير كما اخبر رسول الله (ص) . . . انهم يستحقون ذلك ولا شك ... ولكن . . .

الصف الثاني ابتدائي

سورة الفلق

نزلت في مكة بعد سورة الفيل

النص : قُلْ أعوذُ بربِ الفَلَق ، من شَر ما خَلَق، ومن شَرّ غَاسِقٍ اذا وقَبَ ، ومِنْ شَرّ النَّفَّاثَاتِ في العُقَد ؛ ومِنْ شر حاسِدٍ اذا حَسَدَ :

شرح الالفاظ : الفلق : الليل ـ غاسق اذاقب : والليل اذا اسودظلامه ـ النفاثات : من نفث اذا بصق ، النفاثات في العقد : السحرة الذين يعقدون العقد وينفخون ويتفلون فيها ، او النفاثات في العقد : كناية عن النفس الخبيثة التي توسوس بالشر .

فضلها : عن عقبة بن عامر رضى الله عنه ان رسول الله (ص) قال : الم تر آيات انزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ؟ قل اعوذ برب الفلق وقل اعوذ برب الناس . — مسلم —

اسباب النزول: سحر رسول الله (ص) فمرض مرضاً شديداً ، فأتاه ملكان ، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه ما ترى ؟ قال طب ، قال وما طب ؟ قال سحر ، قال ومن سحره؟ قال لبيد بن الاعصم اليهودي ، قال أين هو ؟ قال في بئر آل فلان تحت شجرة في ركية ، فأتوا الركية فانزحوا ماءها وارفعوا الصخرة . ثم خذوا الركية واحرقوها ، فلما اصبح رسول الله (ص) بعث عمار بن ياسر ، وعلياً والزبير فأتوا الركية فاذا ماؤها مثل ماء الحناء ، فنزحوا الماء ثم رفعوا الصخرة ،واخرجوا الركية واحرقوها فاذا فيها وتر فيه احد عشر عقدة ، وانزلت عليه هاتان السورتان ـ سورة الناس وسورة الفلق ـ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة « قل اعوذ برب الفلق وقل اعوذ برب الناس » . (١)

من روح السورة : يأمرنا الرب جل شأنه أن نلتجئ اليه ، وهو خالق كل شيء ، خالق الليل وظلامه ، وخالق النهار ونوره ، ليحفظنا من المخلوقات الشريرة ، من إنس وجن وحيوانات ، ويحفظنا من الشرور التي تقع بالليل المظلم ، لأن الليل تدبر فيه المكائد ، ويعتدي فيه على الناس ويستعان بظلامه في ستر الجرائم ، ولذلك تكثر فيه الشرور وينتشر فيه الشريرون ، ويحفظنا مما يحيكه لنا بعض الناس من مؤامرات علينا بالالتجاء الى الطرق الملتوية من سحر وغيره ، ويحفظنا من وساوس النفس الشريرة ، ويحفظنا من الناس الحاسدين الذي ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، ومرضت نفوسهم حتى ليتمنون زوال النعم التي انعمها الله علينا .

وكل هذه الأمور من سحر ، وحسد ، ومباغتة بالتعدي ليلاً ،أمور لاقبل للانسان بدفعها مهما حاول دفعها ، وهو لايملك تجاه ذلك الالتجاء إلى الله عز وجل ليحفظه من هذه الشرور التي لاقبل له بدفعها ، حيث لاملجأ إلا اليه سبحانه.

---

(١) انظر اسباب نزول سورة الناس في هذا الكتاب ص ١٥و١٦

فقه السورة :

١ ـ قال أبو حنيفة واحمد بن حنبل ومالك بن أنس:ان الساحر كافر وقال الامام الشافعي : عمل السحر حرام وهو من الكبائر وقد يكون السحر كفراً وقد لايكون كفراً بل معصية كبيرة ، فان كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر وان لم يكن فيه ما يقتضي الكفر فليس بكفر.

٢ ـ تعلم السحر وتعليمه حرام وأما ما يذكر من أن الرسول (ص) «يقول تعلموا السحر ولا تعملوا به». فان هذا قول لم يقله رسول الله (ص) قط، وهو كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٣ ـ عقوبة الساحر : قال ابو حنيفة ومالك واحمد بن حنبل:الساحر يقتل ،عملاً بما رواه جندب « حد الساحر ضربة بالسيف » ـ اخرجه الترمذي والدارقطني ـ وعملاً بما كتبه عمر بن الخطاب لأحد عماله قبل موته بشهر « أن اقتلوا كل ساحر وساحرة » ـ اخرجه احمد وابو داود ـ وقال الامام الشافعي لايقتل الساحر الا اذا عمل عملاً أو قال قولا يوجب الكفر .

سورة الماعون

نزل قسم منها في مكة وقسم بالمدينة بعد سورة التكاثر

النص : أرأيت الذي يُكَذِبُ بالدين،فذلكَ الذي يَدُعُّ اليَتيم، ولا يَحُضُ على طعام المِسْكين ،فويْلٌ للمُصَلِّين،الذينَ هُمْ عن صَلاتِهِم ساهُون،الذين هم يُرَاؤُونَ ،ويمْنَعُونَ المَاعُون .

شرح الالفاظ : الدين : الجزاء يوم القيامة ، يدع : يزجر ـ ويل : هلاك ويقال « الويل » واد في جهنم ـ الماعون : كل ما انتفع به من فأس أو قدر أو غيرها من أدوات البيت .

نزولها : نزلت آياتها الثلاثة الاولى في مكة، ونزل من قوله تعالى «فويل للمصلين» حتى نهاية السورة في المدينة .

اسباب النزول: كان أبوسفيان بن حرب ينحر كل اسبوع جزورين ، فأتاه يتيم فسأله فقرعه بعصا فأنزل الله تعالى « أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين »

وكان المنافقون يراؤون المؤمنين بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها اذا

غابوا ويمنعون الماعون فانزل سبحانه « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون ».

في روح السورة : ان من يطيل النظر الى هذه السورة القصيرة ، يجد حقيقة كبرى تبدل مفهوم الايمان والكفر وتقلبه رأسا على عقب ... انها تبين لنا ان دين الاسلام ليس دين ركوع وسجود وحسب ـ او بكلمة ادق ليس دين طقوس جافة لا حياة فيها ـ وانما هو دين تتعانق فيه العبادات بالواقع الاجتماعي ، فتارة يوجه اهتمامه الى هذا ، وتارة يوجه اهتمامه الى ذاك ، ثم يجمعها جمعا محكما ، ليظهرها في إطار ديني جذاب ، قد يقيم الانسان جميع الطقوس الدينية من صلاة وصيام و ... ويبقى بعيدا كل البعد عن الايمان .

ولاننس قصة تلك المرأة التي تقوم بطقوس دينها ولكنها تؤذي جيرانها فقد قال رسول الله (ص) عنها انها في النار ، فهي أبعد ما تكون عن منابع الايمان وهذا هو موضوع هذه السورة .

تبدأ السورة بالاستفهام « أرأيت ... لتوجه الانظار اليها ، ولتجتذب انتباه السامع ، أعلمت يا محمد من هو الانسان الذي يكذب بيوم الحساب ، ولا يؤمن به ، انه ذلك الانسان الذين يهين اليتيم ويحتقره ، والذي لا يمد بالمساعدة يدا للمسكين ، ولا يذكر غيره بمد يد المساعدة اليه ، وهكذا فان حقيقة الايمان ليست كلمة تقال ، وانما هي عقيدة في القلب تدفع بالجوارح دفعا قويا الى العمل .

ثم ... العذاب كل العذاب لمن يسهون عن صلاتهم ... وهل يعقل أن يترك المسلم صلاته ، او يهملها ؟

ولكن المراد من الآيات الكريمات ما هو اعمق من هذا ... ان المراد ـ والله اعلم ـ العذاب الاليم لمن يسهون عما توجبه هذه الصلاة ... انهم يصلون ،

والصلاة توجب عليهم عدم المراآة ، وعدم الحسد ، وفعل الخير وهم يراؤون ، ويحسدون ، ويمنعون الخير ، فهم قد قاموا بالصلاة ، وتركوا ما ترمي اليه هـــذه الصلاة ، قال تعالى « ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر» فحق عليهم عـذاب الله « فويل للمصلـين الذين هم عن صلاتهـــم ساهون » ، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون . .

سورة العصر

نزلت بمكة بعد سورة الشرح

النص : والعَصرِ إن الانسانَ لفَي خُسْرٍ . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالِحات وتواصَوْا بالحَقّ وتواصَوْا بالصَّبْر .

شرح الكلمات : العصر : صلاة العصر ـ خسر : خسارة

مع روح السورة : اقسم الله سبحانه بصلاة العصر لعظم شأنها ـ فانها هي الصلاة الوسطى ـ بأن الانسان كل الانسان لايجني أي ربح من كل أعماله التي يقوم بها ، واستثنى من ذلك أناسا ، هم الذين صدقوا في ايمانهم ، وبدت الاعمال الصالحة مصدقة لهذا الايمان ، واوصى بعضهم بعضا بالخير ، من تمسك بشرع الله ، وحفاظ على الاخلاق الكريمة و ...

ولم ينسوا أن يوصوا بعضهم بعضاً بالصبر على ترك المنكرات ، والصبر على فعل الخيرات ، فان ذلك يحتاج الى جهاد عظيم ، ولذلك يقول (ص) «رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر» يريد بذلك جهاد النفس.

هذه السورة صورة لمجتمع كامل ، مجتمع الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر . صورة للمؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ... المؤمنين الذين ان أردنا أن نلتمس ايمانهم وجدناه شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وجدناه أصل الحياة الكريمة ، لانه ينبثق عنه كل عمل صالح،

ويتفرع منه كل خير هو الذي يجعلك تعمل وتعمل دون كلل او ملل ، تطلب مرضاة الله لا لغاية في نفسك ، ولا لحقد على انسان ... ولذلك كان كل عمل لا يستند الى الايمان لا قيمة له عند الله قال تعالى « والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعه يحسبه الظمآن ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً »

والعمل الصالح نتيجة طبيعية لهذا الايمان ، فللايمان جذوة لا تخمد ، ونور لا يخفى بل يسعى الى الانتشار ، فان أراد صاحبه اخفاءه ، كان سبباً في إحراقه واهلاكه ...

والتواصي بالصبر والخير من ثمرات الايمان ايضاً ، وهو ملازم للحب والاخوة التي فرضها الاسلام على المؤمنين « انما المؤمنون اخوة ».

ان هذه السورة صورة لأمة عاشت زمناً تظلها دعوة الاسلام ، ساعية لتحقيق ما جاء في هذه السورة ، ومن هنا كان الرجلان من أصحاب رسول الله (ص) اذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ احدهما على الآخر سورة « والعصر ».

سورة الكوثر

نزلت بمكة بعد سورة العاديات

النص : إِنَّا أعطيناكَ الكوثرَ. فصلِّ لربِّك وانحَر. إنَّ شانئَكَ هُو الأبْترْ.

شرح الكلمات : الكوثر : الخير الكثير ـ انحر : اذبح ـ شانئك : مبغضك ـ الأبتر : المقطوع الذي لايبقى له اثر .

اسباب النزول : كان قسم من كبراء قريش كأبي جهل ، وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل وغيرهم يجدون في ايذاء الرسول (ص) وكانوا يتفننون بهذا الايذاء ، وكان الله يختار لجواره الاولاد الذكور لرسول الله (ص) ويبقى له البنات لحكمة علمها سبحانه ، وتوفي عبدالله ولد رسول الله (ص) من خديجة ، وبينما رسول الله (ص) يخرج من المسجد التقي بالعاص بن وائل عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من قريش في المسجد جلوس ، فلما دخل العاص قالوا له من الذي كنت تحدث ؟ قال ذاك الأبتر ـ يعني الرسول (ص) ووجد هؤلاء ما يعيرون به رسول الله (ص) ، فاخذوا يعيرونه بانه ابتر ، اي سيتوفى وليس له من ولد يحفظ له ذكره بعد موته ، فوجدت هذه الطعنة سوقا رائجة في المجتمع العربي الذي يتفاخر بالاولاد آنذاك، فسرّى الله عن رسوله (ص) بانزال هذه السورة.

من روح السورة : ان المشركين يريدون ان يعيروا رسول الله (ص) بانه بعد موته سيتلاشى ذكره ، لانه ليس له ولد ذكرا ، والله سبحانه يجيبهم : ان

الـذكر بعد الموت ليس بالولد ، ولكن بالخير الذي يقدمه الانسان ، وان هـذا الذكر يبقى ما بقي ذلك الخير جاريا بين الناس ... الم يعط الله نبيه خيراً كثيراً الم يعطيه النبوه فهو يهدي الناس ويعلمهم ... ألم ينزل عليـه القرآن ، فهو يتلى مقترنا بذكر رسوله ليل نهار ... ألم يصل عليه الرب سبحانه وتعالى وملائكته التي في السماء ومن في الارض ... الم يجعله رسولا لشريعة الله التي عاشت النـاس الخير ... اذن اعطاه الله الخير الكثير الذي يحفظ ذكره ،فما قيمة الولد؟ بل وما قيمة غيره ... تجاه هذه الخيرات؟ وشكراً لله على ما انعم وتفضـل ، فمـا على الرسول الا ان يحمد الله سبحانه بالوقوف قائما بين يديه ، ومقدما الهَدْيَ تقرباً اليه وشكراً .

من الأبتر يا ترى أرسول الله ام هم ... انهم لهم اولاد ورسول الله ليس له اولاد ، وفي النهاية من كان الابتر ... من الذي ملأ ذكره الآفاق ... ومن الذي لايعرفه الناس الا اذا ذكر اسمه مقرونا بالشر والعـار بجانب اسم رسول الله المقرون بالخير والاحسان ؟ ونعود فنقول من الأبتر يا ترى ؟!! والجواب انهم هم بالذات .

وبعد : اذا كان الله قد امر رسوله (ص) بشكره ـ وهو القـائم الليل حتى تتفطر قدماه ـ لأنه اعطاه الخير الكثير فما بالنا نحن لانتعظ ، ان رسول الله (ص) ضحي بهناءته وراحته في سبيل تبليغ دين الله ، بل كان يري السعادة في ذلك ، انه اذن خلد ذكره بجهاده وعمله المتواصل وتوفيق الله ، ومع ذلك يأمره الله بشكره لأنه اعطاه الخير الكثير ... ونحن ألم يصل الينا الاسلام دونما تعب أو نصب ، ألم نجد النور ساطعاً منذ أن فتحنا أعيننا الى الدنيا ... ألم نجد الدولة مقامة، والسيادة كاملة ، فحق علينا أن نشكر الله تعالى على توفيقه،ونشكر رسوله على جهاده،ونشكر المؤمنين السابقين على مواصلتهم الجهاد ، ولكن بدلا من ذلك كله بدأنا ننقض عرى الاسلام عروة عروة ، فقوضنا أركان الدولة ، والقينا في البحر السيادة ، وبدأنا نخفت النور ... فشتـان بـين مشرق ومغرب ، ولا نملك الا أن نقول اللهم دينك اللهم دينك .

سورة قريش

نزلت في مكة بعد سورة التين

النص : لإيلافِ قُرَيشٍ ، ايلافِهِم رِحلةَ الشّتاءِ والصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البَيْتِ ، الذي أطعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ .

شرح الكلمات : إيلاف : اعتياد ـ البيت : المراد به هنا الكعبة المشرفة .

من روح السورة : كانت لقريش مكانة خاصة بين العرب ، لانهم خدام البيت ، واهل الحرم ، ولذلك فان قوافلهم كانت تذهب بأمان دن ان يعترضها معترض ، وكانت قريش امة تاجرة ، ألفت أن تقوم برحلتين تجاريتين في كل سنة رحلة في الشتاء الى اليمن ، ورحلة في الصيف الى بلاد الشام ... وبسبب هاتين الرحلتين ، كانت تعيش برخاء ولولاهما لكانت في فقر مدقع ، وشدة من العيش بسبب طبيعة بلدهم «مكة» القاحلة .

وفي هذه السورة يمن الله تعالى على قريش ، ويذكرها بانه قد جعلها محترمة بين العرب ، وأبدل فقرها غنى ، وضعفها قوة ، وجوعها شبعا ... فعليها ان تشكر الله تعالى وتنبذ هذه الاصنام ، وتؤمن بالله فتعبده عبادة خالصة تعظيما لحقه عليها ، واعترافا بفضله .

الصف الثالث الابتدائي :

سورة القدر

نزلت في مكة بعد سورة العبس

النص : إنّا أنزلناه في لَيلةِ القَدْرِ ، وما أدراك ماليَلةُ القَدْرْ ، لَيلةُ القَدرِ خيرٌ مِنْ ألفِ شهْر ، تَنَزّلُ الملائكةُ والروحُ فيها باذنِ ربهّم مِنْ كلّ أمر ، سلامٌ هي حتىّ مطلَعِ الفجْر.

شرح الكلمات : ليلة القدر : ليلة تقـــدير الامور وقضائها وسميت بذلك لشرفها على سائر الليالي ـ الروح : جبريل عليه السلام ـ من كل امر : من : هنا بمعنى الباء والمعنى تنزل الملائكة والروح فيها بكل امر .

اسباب النزول: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم رجلا من بني اسرائيل لبس السلاح في سبيل الله الف شهر فتعجب المسلمون من ذلك فأنـزل الله تعالى « انا انزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خـير من الف شهر » قال خير من التي لبس فيها السلاح ذلك الرجل

من روح السورة : ان القرآن الكريم هدى ونور ، نزل في ليلة تملأ فيها النور الالهي فملأ الارجاء ، انها ليلة مباركة « انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا

منذرين ، فيها يفرق كل امر حكيم ، امرا من عندنا انا كنا مرسلين رحمة من ربك انه هو السميع العليم » وكيف لا تكون ليلة مباركة وهي الليلة التي اختار فيها الرب جل شأنه هادي الناس ، ومرشد الحيارى ، ومنير السبل ، ليلقي عليه قرآنه ... وكيف لاتكون مباركة وهي احدى ليالي رمضان « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدي والفرقان .»

انها احدى ليالي العشر الاخير من رمضان ، فجد يا أخي المسلم في تلمس تلك الليلة العظيمة التي هي خير من ألف شهر ، جدفيها بالعبادة ،وتجرد من دنياك لتحيا ليلة مغمورا بعظمة ربك ، لتخرج منها مغفور الذنوب ، مقبول التوبة « من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ـ البخاري ومسلم ـ . ان الملائكة تتنزل فيها الى هذه الدنيا حاملة مقادير العام المقبل فقم ليلتك يا أخي المسلم راجيا الله عز وجل ان تكون مقاديرك حسنة،وعش هذه الليلة بسلام حتى نهايتها ... حتى مطلع الفجر .

سورة العلق

نزلت بمكة وهي اول سورة نزلت من القرآن

النص : ١ ـ إقرأ باسْم ربِكَ الذي خَلَق ، خَلَق الانسانَ مِنْ عَلَق ، اقرأ وربُّك الأكرم ، الذي علَّم بالقلم ، علَّم الانسان ما لم يَعلَم .

٢ ـ كَلاَّ إن الانسان ليَطغى ، أنْ رآه استَغْنى ، إنّ إلى ربِّك الرُّجعَى ، أرأيْت الذي يَنهى عَبْدا إذا صلّى ، أرأيت إن كان على الهُدى أو امر بالتقوي ، أرأيْت إن كَذّب وتولّى ، ألمْ يَعْلم بأنّ الله يرَي ، كلاَّ لئن لمْ ينْته لَنسْفعَنْ بالناصية . ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة . فلْيدْعُ ناديَه . سندْعُ الزبانيَة ، كلا لا تُطعْهُ وأسجُدْ واقترِبْ .

شرح الكلمات : علق : الدم الجامد ـ يطغى : يتجاوز الحد المعين ويكون ذلك باقتراف المعصية ـ الرجعي : المرجع ـ تولى : اعرض ـ نسفع : نجذبه بشده ـ الناصية : مقدم الرأس ـ نادية : المراد بها هنا اصحابه ومجالسيه ـ

الزبانية : ملائكة العذاب .

نزولها: مما لا شك فيه ان الآيات الاولى حتى قوله تعالى « علم الانسان مالم يعلم ، اول ما نزل من القرآن الكريم ، ولكن الآيات التي بعدها نزلت بعد ذلك عندما اخذت قريش تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اسباب النزول : ١ ـ قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين اظهركم ؟ ـ يعني هل يسجد ؟ ـ فقيل نعم فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل لأطان على رقبته ولاعفرن وجهه بالتراب . فانزل الله « كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى ...

٢ ـ وكان رسول الله (ص) يصلي فجاءه ابو جهل فنهاه فانزل الله تعالى « أرأيت الذي ينهى عبداً اذا صلى .. الى قوله كاذبة خاطئة »

٣ ـ وكان الرسول (ص) يصلي فجاء ابو جهل فقال : الم أنهك عن هذا ؟ فزجره النبي (ص) فقال ابو جهل انك لتعلم ما بها ناد اكثر مني ، فأنزل الله « فليدع ناديه سندع الزبانية »

لغويات : الذي خلق ، خلق الانسان من علق : ١ ـ يجوز ان نقول خلق الثانيه تأكيداً لخلق الاولى وهي من قبيل تأكيد جملة صلة الموصول كقولهم: الذي قام قام زيد .

٢ ـ ويجوز ان يكون مفعول خلق الاول محذوفا والتقدير « الذي خلق الخلائق ، وخلق الانسان من علق ، فيكون الرب سبحانه اجمل في «خلق» الأولى ، ثم فصل في « خلق » الثانية .

من روح السورة : ١ ـ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم».

ان هذا المقطع هو اول ما نزل من القرآن الكريم ، فبينما كان الرسول (ص)

يتحنث في غار حراء ، إذ أتاه جبريل فضمه ضمة شديدة وقال له اقرأ : فأجابه الرسول : (ص) ما أنا بقارى ، فعاد وضمه ضمة اخرى شديدة وقال له : اقرأ فاجابه الرسول : (ص) ما أنا بقارىء ، فعاد وضمه ضمة ثالثة شديدة وقال له : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ... » انه لحدث عظيم جداً جداً بل واعظم من عظيم ، أن يختار الله سبحانه محمد بن عبدالله لهداية البشر ، وانها لساعة مباركة ان يتلطف الله جلت عظمته بالناس ، فيرسل إليهم من يهديهم إلى الطريق السوي ، بدلا من ان يتركهم في ظلمات لايبصرون .

وانها لبداية عظيمة جداً ان يبدأ الوحى « باسم الله » الله الذي خلق المخلوقات جميعها ، من سماء وارض وبحار وانهار وجبال وحيوانات واناس و ... وانها للفتة عظيمة يلفت القرآن الكريم نظرنا اليها ، تلك هي: أن الله خلق الانسان من قطعة صغيرة من الدم ، عالقة في رحم المرأة ، فليعرف الانسان قدره امام عظمة الخالق العظيم الذي خلق جميع المخلوقات ، وإن الله سبحانه خلق الانسان وعلمه اشياء واشياء لم يكن يعرفها من قبل ، وما زال يتفتق ذهن الانسان عن علوم جديدة .

ومع ان قيمة العلم وادوات التعليم لم تكن معروفة حق المعرفة في ذلك الزمن . ولكن الله سبحانه يعرف قيمة العلم ، ويقدر كل التقدير أدواته ، من قلم وقرطاس ، ولذلك نوه عنه سبحانه في اول آيات القرآن الكريم نزولا ... علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم .

٢ ـ كلا ان الانسان ليطغي ان رآه استغنى :

كان من الواجب على الانسان الذي تكرم الله سبحانه فخلقه ، ثم تكرم فعلمه ، كان من الواجب عليه ان يطيع ما أمر الله ، وان لايطاول السماء ، ولكنه على العكس من ذلك ، ما إن اعطاه الله ما اعطاه ، وما ان سخر له من كنوز الارض ما سخر ، حتى شمخ بانفه فنسي النعمة والمنعم ، فاقترف الآثام وارتكب المحرمات ، ونسي الله ونعمة الله ، وقد ورد عن بعض السلف انه قال : منهومان لايشبعان صاحب العلم وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ، فاما صاحب العلم فيزداد

رضى الرحمن ، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيـــان ، ثم قرأ « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » وقال : للآخر « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

ويعرض علينا القرآن الكريم صورة حية لهؤلاء الاغنياء الذين طغوا الأغنياء الذين اعمى عيونهم الجاه والمال ـ انها صورة لأبي جهل ـ فأصبحوا يمنعون المؤمنين عن اداء الصلوات بكل وسيلة بشعة ، ألا يعلمون ان هؤلاء المصلين على الطريق المستقيم ، والشرع القويم ، والعقيدة الصحيحة ، وان كل ما يأمر به هذا النبي هو تقوى الله ، فهو يدعو الى الصلاح في القول والصلاح في العمل .

أما ذلك المجرم ـ ابو جهل ـ فان جريمته النكراء تلك ـ المنع عن الصلاة ـ لم يرتكبها ارتجالا ، وانما ارتكزت عنده على اصل عقـــائدي ، ذلك الاصل هو تكذيبه للرسول فيما يدعيه من الرسالة ، وتنكره الايمان ، ولذلك فهو يمنع الصلاة ويصد عن دعوة الحق والخير .

عجباً لهذا الانسان الجاهل ـ ابو جهل ـ ألا يعلم ان الله يرى فعله ، ويسمع قوله ، ويعده في طغيانه ، حتى اذا ما أزفت الآزفة ، أخذه اخذاً عزيزاً ، انتصاراً لدينه ، واعلاء لكلمته .

ويعلو صوت الايمان ويزجر القرآن ـ كلام الله ـ فيتوعد ، ويشدد الوعيد إذا ما استمر في طغيانه ، واصر على اعتدائه ... وقد استعمل القرآن في ذلك : الاسلوب المعجز الذي ميز القرآن عن غيره ... لقد اكد الله سبحانه أنه إن لم يرتدع هذا الطاغي عن طغيانه ليجذ بن ناصيته ـ جبهته ـ جذباً شديداً ، وقـــد اختار القرآن الناصية دون غيرها ، لانها ارفع مكان يرفعه المتكبر المتشامخ ، إن ناصية هذا المجرم ناصية كاذبة خاطئة ، وقد يخطر على بال هـذا المجرم ان يستنفر أصحابه وقومه ، ولكن تجمع هؤلاء جميعاً لايؤثر على دعـوة الله التي أرسلها للعباد ، فاذا ما استنفر هذا المجرم ـ ابو جهل ـ ناديه ـ رجاله ـ فان الله سيدعو ملائكة العذاب ـ الزبانية ـ واذا ما تلاقى جيش الله مع جيش الطغيان فان حزب الله هم الغالبون .

واحب القرآن الكريم ان يقدم الى الرسول (ص) والى امته هـــذه

النصيحة الغالية « كلا لا تطعه واسجد واقترب » .

لا تطع هذا الطاغية المجرم بما يأمرك به ، من ترك للصلاة ، وترك للدعوة الخير ، واستمر في تقربك الى الله والاكثار من الطاعة .

وهكذا فان هذه الآيات الكريمة وان كان الخطاب فيها للرسول (ص) ولكن معانيها والعمل بمقتضاها موجهة الي كل مسلم يقوم بالدور الذي اوكله الله اليه ، ونحن نلاحظ اخيراً ان هذه السورة وان كانت نزلت في مناسبات عدة ، وازمنة مختلفة ، الا ان معانيها متناسقة وموضوعها واحد ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » .

وان هذه السورة قانون ـ وأي قانون ـ للداعية الى الله ، المؤمن بالمبادىء التي يدعو إليها ، انها ستقوم أمامه عقبات ، وسيتعرض للحرب النفسية ، وقد يتعرض إلى التعذيب الجسدي ، ولكن ذلك لايفت في عضد الداعية المسلم ويكون شعاره دائماً « كلا لا تطعه واسجد واقترب » المضي نحو الهدف وعدم الاكتراث بالعثار .

سورة الضحى

نزلت بمكة بعد سوره الفجر

النص : ١ — والضُحى والليلِ إذا سَجى ، ما ودَّعَكَ ، ربُّك وما قَلى ، وللآخرةُ خيرٌ لكَ مِنَ الأولى ، ولسوفَ يُعْطيكَ ربُّكَ فَترضى ، ألَم يَجدْكَ يتيماً فآوى ، ووَجدكَ ضالاً فهدى ، ووجدكَ عائلاً فأغنى .

٢ — فأما ، اليَتيمَ فَلاَ تَقهَرْ ، وأما السائلَ فلا تَنْهَرْ ، وأما بِنِعمةِ ربِّكَ فحدِّثْ .

شرح الكلمات :

سجى : سكن وهدأ — والمراد سكون اصوات الناس في الليل — ودعك : تركك — قلى : ابغض — الآخـــرة : الحياة الآخرة — الاولى المراد بها هنا الدنيا — ضالا : حائرا — عائلا : فقيرا — تنهر : تزجر .

أسباب النزول :

١ — ابطأ الوحي على رسول الله (ص) فعلم اعداؤه بذلك فشمتوا به .

فاتته امرأة فقالت يا محمد ما رأى شيطانك الا قد تركك فاشتد ذلك على النبي (ص) فانزل الله تعالى (والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى)

٢ ــ قال رسول الله (ص) عرض علي ما هو مفتوح لامتي بعدي فسرني فانزل الله (وللاخرة خير لك من الاولى ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

من روح السورة :

الوحي هو الزاد الذي يزود رسول الله (ص) . وهو الذي يقوي من عزيمته ، وهو الذي يدفعه الى الامام .. فلما انقطع ، صعب ذلك على الرسول (ص) وزادت الصعوبة عندما كان يقبل عليه المشركون ليقولون له : يا محمد ان ربك ابغضك وتركك .

وينزل الوحي مكذبا ما يدعون ، ومسليا لرسول الله (ص) في سورتين متتاليتين في النـــزول : سورة الضحى وسورة الانشراح ، ويقسم الله بالضحى والليل الهادي ، وهو اذ يقسم بهما يقسم برب العزة وخالق الاكوان ، يقسم الله بانه ماتخلى عن رسوله ، وما ابغضه ، ولو انه قد ابغضه لما اعد له في الاخـــرة الثواب العظيم ، والحياة الرافية الابدية ، والمقـــام الاعلى ، وان الاخرة هي احسن من هذه الدنيا ، فما عليك الا ان تعمـــل لاخرتك ولذلك كان رسول الله (ص) ازهد الناس بالدنيا فقد روى الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : اضطجع رسول الله (ص) على حصـــير فأثر في جنبه فلما استيقظ جعلت امسح جنبه وقلت يا رســـول الله : الا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئا فقال (ص) مالي وللدنيا انما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها ، واذا كانت الآخرة خير من الأولى ، فان الله اعطـــى لنبيه في الآخرة اشياء كثيرة وعظيمة ترضيه ، فقد أعطاه الشفاعة ، واعطـاه الكوثر ، واعطاه ... واعطاه .. على ان الله سبحانه لم يتخلى عن نبيه سابقا ، ووعده ان لا يتخلى عنه لاحقا ، الم يعش رسول الله (ص) يتيما فآواه الى عمـه ابي طالب ، فعاش عيشة كريمة ، ألم يجده حائرا في نفسه ، عندما رأى قومه يعبدون الاوثان فحاراي عقيدة

يعتقد .. وحار كيف يعبد الله . . يلتمس طريقا الى الهدى فلا يجـــد . ويطلب سبيلا الى النور فلا يرى الا الظـــلام ، حتى اكرمه الله وهداه بالوحي والنبوة فاطمأن فؤاده ووجد ضالته ، ثم ألم يكن في حالة فقر فاعطاه المال وهيأ له السيدة خديجة التي جعلت تحت تصرفه ما تملك من مال .

٢ ــ وهنا ينطلق القرآن ليزود رسول الله (ص) وأمته بهذه النصيحة الغالية : تلطف باليتيم فان رسول الله (ص) كان يتيما فتلطف الله به ، وقدم المعرفة والعلم لمن يطلبه منك فانك كنت ضالا فهداك الله ، واظهر نعمة الله عليك واشكر ربك عليها ، اعطف على الفقير لأنك كنت فقيراً فأغناك الله .

سورة الانشراح

نزلت في مكة بعد سورة الضحى

النص :١ — ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك .

٢ — فان مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا. فاذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب .

شرح الكلمات : وضعنا : حططنا — وزرك : ذنبك — أنقض : أثقل — انصب : اتعب — ارغب : تضرع .

اسباب النزول : كان المشركون يلتمسون الثغرات في المسلمين ليعيروهم بها ونظروا فوجدوهم فقراء ، ووجدوا الرسول (ص) فقيرا ، فظنوا ان الفقر عيب، فعيروهم به فانزل الله سبحانه هذه السورة .

واخرج ابن جرير عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية « ان مع العسر يسرا » قال رسول الله (ص) ابشروا أتاكم اليسر ، لن يغلب عسر يسرين .

من روح السورة: ١ — بدأ أمر الدعوة الاسلامية اول ما بدأ ثقيلا على رسول الله «ص» ، فهو يرتعد من الوحي فيعود الى بيته ليقول لزوجته السيدة

خديجة زملوني زملوني ، وهو يؤذى ، ويضار ، ويضايق من كل جانب ... ولولا أن شرح الله صدره لدين الله ... ولولا أن ثبت الله في قلبه الايمان ... ولولا ان جعله الله مؤثرا نشر الدين وتبليغ الرسالة على كل شيء ، لكان الامر صعبا صعبا وعسيرا عسيرا ، ولكن رحمة الله برسوله ان شرح له صدره بالنبوة وللدعوة فاصبح كل صعب سهلا . وكل عذاب بردا وسلاما . ونتيجة لذلك التحمل وتكرما من الله وفضلا فان الله غفر لرسول الله ماتقدم من ذنبه وما تأخر « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ووضع عنه اوزاره وجعله في عليين بعد ان كان ذلك ثقيلا عليه كل الثقل .

وتكرم الرب سبحانه على رسوله فاعلي ذكره ، وقرن اسمه باسم ذي العزة والجلال ، لا اله الا الله محمدا رسول الله ، فلا يذكر الله الا ويذكر معه رسوله (ص) وصلى الله عليه وامر الملائكة ان تصلي عليه وامر الناس ان يصلوا عليه « ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

٢ — وهكذا نجد انه كلما ضاق الامر اتسع ، وان المشقة تجلب التيسير ، فهذا رسول الله «ص» عندما ضيق عليه اهل الارض وسع عليه رب الارض والسماء ، فهون عليه ما عسر من امره ، وشرح صدره له ، وغفر له ذنبه ، وجعل له مكانة كبرى في الارض ، ومكانة اكبر في السماء ، فشكرا لله سبحانه على تيسير العسير وتهوين الشاق ، وما على الرسول بعد فراغه من اعمال الدنيا الا ان يجد في الدعاء ، ويتعلق بالله ، ويرغب اليه وان هذه العبادة وهذا التوجه الى الله هو الزاد الذي يستمد منه المؤمنين قوته ، ويأخذ منه شجاعته ، ويغرف من فيضه الاستهانة بكل جلل وعسير ، انها الزاد الذي يتزود منه المؤمن في جهاده العظيم ، وهي العدة التي يعدها لسفره الطويل في طريق الله ، فليعد المسلم عدته ، وليتزود بزاده ، وليسر على بركة الله .

فقد روى عن الامام الشافعي انه قال :

صبرا جميلا ما أقرب الفرجا من راقب الله في الامور نجا
من صدق الله لم ينله أذى ومن رجاه يكون حيث رجا

سورة الأعلى

نزلت بمكة بعد سورة التكوير

اللغة: ١ - سبّح اسمَ ربّك الأعلى . الذي خلَق فسوّى .
والذي قدّر فهدى . والذي أخرج المرْعى . فجعَله غُثاءً
أحوى .

٢ — سنُقرِئُكَ فلا تَنسى . الا ما شاءَ اللهُ إنه يعلمُ الجهرَ
وما يخفى . ونُيسّرُكَ لليُسرى . فذكّر إنْ نفعَت الذكرى .
سيَذّكّرُ منْ يخشى . ويتجنّبُها الاشقى . الذي يَصلى
النارَ الكُبرى . ثم لا يموتُ فيها ولا يَحيى . قدْ أفلَح منْ
تزكّى . وذكَرَ اسمَ ربّهِ فصلى .

٣ — بل تُؤثِرونَ الحياةَ الدُّنيا . والآخرةُ خيرٌ وأبقى .

٤ — إنّ هذا لفي الصُّحُفِ الأُولى . صُحُفِ ابراهيمَ
وموسى .

شرح الكلمات : سبح : مجد وعظم ــ سوى : احكم واتقن ــ غثاء : يابسا ــ أحوى : اسود ــ الذكرى : الموعظة ــ يصلى : يدخل ويحرق ــ تزكى : تطهر ــ ذكر اسم ربه : كبر لافتتاح الصلاة ــ تؤثرون : تفضلون ــ ابقى : أدوم .

من روح السورة : ١ ــ يأمر الله سبحانه نبيه محمداً ــ عليه الصلاة والسلام ــ وامته ان يمجد وينزه الخالق سبحانه الذي خلق هذه العوالم كلها فاحسن صنعها واتقنه حتى بلغت غاية الكمال ، والذي قدر لكل فرد من مخلوقاته وظيفته وغايته ، فهداه الى ما خلقه لاجله ، والهمه غاية وجوده وقدر له ما يصلحه مدة بقائه ، وهداه اليه ... ونحن لو ألقينا نظرة الى هذا الوجود الكبير ، لرأينا كل شيء فيه يشهد لهذه الآية العظيمة بالصدق ، فالشمس تجري بانتظام تؤدي وظيفتها على اتم وجه ، وكذلك مجموعة الكواكب ثم مجموعة النباتات ثم ... كل شيء يؤدي وظيفته .

كل شيء يؤدي وظيفته التي خلقه الله من اجلها ، فهذا النبات يكون اخضر صالحا لطعام بعض الحيوانات ثم يذوي ، ويميل الى السواد ، وهو كذلك صالح لغذاء بعض الحيوانات ، فهو يؤدي دوره على اتم وجه في حالة اخضراره وحالة اسوداده ، انه صنع الذي قدر فهدى .

٢ ــ بعد هذا المطلع الجميل للسورة ، المطلع الذي امر رسول الله بوجوب الاشادة بعظمة الله والاعتراف بفضله اتت البشارة القرآنية الى الرسول (ص) ستقرئك فلا تنسى ... انها لبشرى عظيمة وعظيمة جدا ... ان الله سبحانه يعد نبيه أن يرفع عنه عناء الحفظ ، فالله هو الذي يتولى تحفيظه دون تعب أو نصب ، إنه سيعلمه القرآن الكريم فلا ينساه ، الا ما شاء الله ، فهو الاحتراس الذي يقرر طلاقة المشيئة الالهية بعد الوعد الصادق بانه لاينسى ، ليظل الأمر في اطار المشيئة الكبرى ويظل التطلع دائما الى هذه المشيئة حتى فيما سلف فيه وعد منها ... وعلى كل حال فان الله لايخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء فهو سبحانه يعلم

ما يظهره الانسان وما يبطنه ثم تأتي الآية الثانية تحمل البشرى الثانية لرسول الله (ص) «ونيسرك لليسرى» انها بشارة لرسول الله (ص) ان يسهل الله له أعمال الخير، ويشرع الله سبحانه من الشرع ما هو سهل يسر، لاحرج فيه، وكانت هذه ميزة رسول الله (ص) فانه ما خير بين امرين الا اختار أيسرهما، وكان عليه السلام في اقواله يدعو الى اليسر فقد جاء من اقواله «ان هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين احد الا غلبه»

واذا كان الله سبحانه قد تفضل على نبيه بتحفيظه القرآن بلا عناء، وجعل له امر هذا الدين يسيرا وليس عسيرا، فما على الرسول (ص) الان ان ينهض لتبليغ هذا الدين فينتفع الناس به، وبعد أن يقوم الرسول (ص) بالتبليغ وينهض باعباء الرسالة يؤديها على اتم وجه، فان من الناس من ينتفع بها، ومن ومن الناس من ينبذها وراءه ظهرياً، فالرسول (ص) يذكر، وانما ينتفع بهذه الذكرى من خشي الله وآمن به، اما الشقي، بل الاشقى هو الذي يعرض عنها، ومن اكثر شقاء ممن يغمض عينه عن النور، ويغلق قلبه عن الايمان، انه انسان أهدر انسانيته، فهو لا يستحق الا النار يزج فيها ويبقى معذبا فيها ابد الآبدين، فهو لا يموت فيستريح من عذابها، ولا يحيى في أمن وراحة، ان حياته مصحوبة بالعذاب فهي ليست حياة وانما هي ألم وتعذيب.

واما من آمن بالله ورسوله، وعمل بما جاء به دين الله، فطهر نفسه من كل رجس وسوء، وأقبل على الخير يعب منه عباً كثيراً، ووقف بين يدي ربه سبحانه حاضر القلب، متعلق الفؤاد، فأدى صلاته كاملة من تكبيرها الى سلامها فانه هو الفائز، وانه هو المفلح، واي فوز أعظم، واي فلاح أعظم، من أن ينجو المرء من النار الكبرى نار يوم القيامة التي وقودها الناس والحجارة والتي يخاطبها الله تعالى بقوله «هل امتلأت فتقول هل من مزيد».

٣ — وقد يتساءل الانسان عن سبب شقاوة الشقي وسعادة السعيد، عن سبب زج هذا في النار الكبرى وتكريم هذا في الجنة.

وهنا يجيب القرآن «بل تؤثرون الحياة الدنيا والاخرة خير وابقى» ان

أصل كل بلوى استسلام الانسان للدنيا ، فالغش والطمع والقتل والنهب والظلم وترك الصلاة كسلا للراحة في هذه الدنيا ، حتى وترك الصيام للشبع في هذه الدنيا ، التي يقبل عليها الانسان استجابة لنداء النفس الامارة بالسوء، تؤمن له الشبع والغنى في ايام معدودة تنتهي بموته ، ولكنه لو حسب حساب حياة أطول من هذه الحياة ، حياة ابدية الى ماشاء الله ، لاعرض عن هذا الطمع والظلم و ... واقبل على ما يؤمن راحته في تلك الحياة الطويلة الطويلة ... من عدل واحسان وصيام وقيام .

روى الامام احمد عن ابي موسى قال : قال رسول الله (ص) « من أحب دنياه أخر بآخرته ، ومن أحب آخرته أخر بدنياه ، فآثروا مايبقى على ما يفنى »

٤ — واخيراً فان هذه التعاليم كلها ، تشترك فيها جميع الاديان السماوية لأن مصدر جميع الأديان « الله » مدبر الامر كله ، ان جميع الأديان تقول للناس لا تنغمسوا في الدنيا كل الانغماس ، وفكروا بآخرتكم وانتم في دنياكم ، ولذلك اثر عن الامام الحسن أنه كان يقول : « حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ، فانما شدد الحساب على قوم لم يحاسبوا انفسهم في هذه الدنيا » .

الصف الرابع الابتدائي :

سورة النصر

نزلت بمنى في حجة الوداع بعد سورة التوبة

النص : إذا جاء نصرُ الله والفتحُ . ورأيت الناسَ يدخلون في دينِ الله أفواجاً . فسبّحْ بحمدِ ربكَ واستغفرْهُ إنه كان توّاباً .

شرح الكلمات : الفتح : المراد به هنا فتح مكة ـ افواجا : جماعات جماعات سبح بحمد ربك واستغفره : قل سبحان الله وبحمده استغفر الله ـ توابا : كثير القبول للتوبة .

نزولها : نزلت حين انصرف النبي /ص/ من غزوة حنين وعاش رسول الله ﷺ بعد نزولها سنتين .

اسباب النزول : لقد كانت احياء العرب وقبائلها تنتظر فتح مكة، وكانوا يقولون ننتظر حتى إذا ظهر على قومة فهو نبي ، نؤمن به بعد ذلك ، ولما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحاً ، بعث خالد بن الوليد فقاتل بمن معه من المسلمين صفوف

قريش باسفل مكة حتى هزمهم الله ، ثم امر بالسلاح فرفع عنهم ، فدخلوا في الدين فانزل الله سبحانه « إذا جاء نصر الله والفتح ... الآيات».

من روح السورة : يأمر الله نبيه والمؤمنين اذا اظهرهم الله على عدوهم ونصر دينهم ان يمجدوا الله سبحانه ويطلبوا منه المغفرة ، فانه سبحانه كثير التوبة ، كبير الرحمة .

والشيء الذي يلفت نظرنا في هذه السورة هو اسناد النصر الى الله سبحانه وتعالى « نصر الله » فهو الذي ينصر ، وليس للنبي ولا لاصحابه في ذلك دخل ، إذ ليس لهم من الامر شيء . ولا لذواتهم في ذلك كسب . اكثر مايكون ان الله سبحانه اجرى النصر على ايديهم ، فكرمهم بهذا النصر واعلى شأنهم ، وما عليهم تجاه ذلك الا ان يسبحوا الله سبحانه ويحمدوه « فسبح بحمد ربك » ، وهكذا كان يفعل رسول الله (ص) فقد روت السيدة عائشة قالت : كان رسول الله يكثر في آخر أمره من قول « سبحان الله وبحمده استغفر الله واتوب اليه » وقال : ان ربي كان اخبرني اني سأرى علامة في امتي ، وأمرني اذا رأيتها ان اسبح بحمده واستغفره إنه كان توابا ، فقد رأيتها « اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » ـ مسلم واحمد ـ .

هذا الحمد لله على ما انعم من فتح مكة ، وتفضل بدخول الجماعات الكثيرة بعد هذا الفتح في الاسلام ، ـ دين الله ـ واما الاستغفار : فانه شيء جوهري لكثرة الملابسات التي تتدخل في نفس الانسان ، ان الرسول واصحابه اصبحوا اقوياء يملكون زمام الجزيرة العربية ، يخضع لهم القاصي والداني ، اغنياء ، غالبون .. فقد يداخل نفوسهم زهو المنتصر ، أو خيلاء الغالب ، او كبرياء المالك ، وهي امور يصعب توقي القلب البشري منها . ولذلك أمرهم بالاستغفار ووعدهم بالتوبة ، « واستغفره انه كان توابا » ، وان هذا النصر المؤزر يستحق الحمد الكثير والشكر العظيم ، وقد يقصر المؤمن في هذا الشكر وهذا الحمد فلا بد حينئذ من الاستغفار والتوبة مما ارتكب في جنب الله من التقصير وقد وعد الله بالتوبة « انه كان توابا » .

سورة الزلزلة

نزلت بالمدينة بعد سورة النساء

النص : اذا زُلزِلتِ الارضُ زلزالَها . واَخرَجت الارضُ أثقالَها . وقال الانسانُ مالَها . يومئذٍ تُحدّثُ أخبارَها بانّ ربّك أوحَى لها . يومئذٍ يصدُرُ الناسُ اشتاتاً لِيُروَا اعمالَهم . فمن يَعمَلْ مثقالَ ذَرّةٍ خيراً يره . ومَنْ يعملْ مثقالَ ذَرّةٍ شَراً يره.

شرح الكلمات: زلزلت : حركت تحريكا شديداً ـ اثقالها : ما في داخلها من الدفائن من كنوز واموات وغير ذلك ـ اوحى لها : امرها ـ يصدر : يرجعون عن موقف الحساب ـ اشتاتا: انواعا واصنافاً ما بين شقي وسعيد ـ ليروا اعمالهم: ليروا جزاء اعمالهم .

اسباب النزول: ١ـ لما نزل قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً واسيراً » كان المسلمون يرون انهم لايؤجرون على الشيء القليل اذا اعطوه، وكان آخرون يرون انهم لايلامون على الذنب اليسير ، الكذبة والنظرة، واشباه ذلك ، ويقولون انما وعد الله النار على الكبائر فانزل الله سبحانه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

٢ ـ لما نزلت « اذا زلزلت الأرض زلزالها » كان ابو بكر الصديق قاعداً، فبكي أبو بكر ، فقال له رسول الله «ص» ما يبكيك يا أبا بكر ؟ قال : أبكاني هذه السورة فقال رسول الله «ص» « لو انكم لاتخطئون ولاتذنبون ، لخلق الله أمة من بعدكم يخطئون ويذنبون فيغفر لهم ».

مع روح السورة : انه وصف دقيق ليوم القيامة ، وصف يهلع منه القلب ، ويخلع الفؤاد ، انه لمنظر رهيب مخيف يوم تموج الارض وتموج وتلقي ما في باطنها .

ان اليوم الذي تزلزل فيه الارض زلزالها يوم عظيم حقا ، قال تعالى « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيىء عظيم » وأما اخراج الارض اثقالها : فقد قال الله سبحانه فيه « واذا الارض امدت وألقت ما فيها وتخلت » وروى مسلم عن ابي هريرة قال : قال رسول الله (ص) « تلقي الارض افلاذ كبدها امثال الاسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول : في هـــذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قطعت يدى ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا ـ مسلم ـ

أليس ذلك أمراً عجيباً ، ولذلك حق للانسان ان يسأل سؤال المشدوه المأخوذ « وقال الانسان ما لها ؟ » ما شأنها ؟ ما جرى لها تثور وترتجف وتلقي ما في بطنها . ولكنها لا تلبث الارض ان تفصح عن غايتها من عملها هذا « يومئذ تحدث اخبارها » روى ابو هريرة قال : قرأ رسول الله «ص » هذه الآية «يومئذ تحدث اخبارها » قال : اتدرون ما أخبارها ؟ قالوا الله ورسوله اعلم قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا فهذه اخبارها ـ احمد والترمذي ـ واذا ما سأل الانسان ولم تخبر هذا الاخبار ؟ ولم تحدث هذا الحديث ؟ لأجيب . انهـــا تفعل ذلك لايأمرها ولكن بأمر الله ، فالله سبحانه قد اوحى إليها ان تحدث بما تحدث وتخبر بما تخبر .

« يومئذ يصدر الناس اشتاتاً ليروا اعمالهم » وبعد هذا كله، وبعد موقف

الحساب ينقلب الناس ألواناً وأصنافا منهم من هو أبيض الوجه ، ومنهم من هو أسود الوجه ، ينقلبون ليروا جزاء اعمالهم واقفة لهم بالمرصاد .

ولا يحتقرن انسان ذنبه مهما كان صغيراً لان هذا الصغير سيحاسب عليه يوم القيامة ان خيراً وان شراً ففي الخير يقول رسول الله «ص» « اتقوا النار ولو بشق تمره ، ولو بكلمة طيبة » ـ البخاري ـ .

ويقول « لاتحقرن من المعروف شيئاً ولو ان تفرغ من دلوك في اناء المستقي ، ولو انه تلقى اخاك ووجهك اليه منبسط » ـ البخاري ـ .

وفي الشر يقول ﷺ « اياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » ـ احمد ـ

وهكذا فان قلب المؤمن ميزان حساس يزن الاعمال لا بالدرهم ولابالغرام ولا باجزائها وانما يزنها بالذرة ... الذرة التي تكاد تكون معدومة الوزن هي ميزان اعمال المؤمن ... فسرعان ماترتعش ابرة ميزانه اذا ما اختل عمله بمقداره ذرة وان كان ميزان قلب غيره لايرتعش للاعمال الموزونه بالجبال الراسيات ... انه المؤمن الذى عرف حق ربه فاداه . إنه المؤمن ذو الحاسة السادسه التي يعرف بها الخير والشر والحلال والحرام .

سورة التين

نزلت في مكة بعد سورة البروج

النص : والتّينِ والزّيتونِ وطورِ سينين . وهذا البلدِ الامينِ . لقدخلقنَا الانسانَ في أحسنِ تقويمٍ . ثمرددْناهُ اسفلَ سافلين. الا الذينَ آمنوا وعملوا الصّالحاتِ فلهُمْ اجرٌ غيرُ ممنونٍ . فما يكذّبُك بعدُ بالدّينِ . أليس اللهُ بأحكمِ الحاكمينَ .

تفسير الكلمات: طور سينين : هو جبل سيناء الذي كلم الله عليه سيدنا موسى بن عمران ـ هذا البلد : المراد به هنا مكة المكرمة ـ احسن تقويم: احسن شكل واحسن صورة ـ اسفل سافلين : اي اسفل من اسفل- غير ممنون: غير منقطع ـ الدين : المراد به هنا الجزاء .

من روح السورة : يقسم الله سبحانه بثلاثة أشياء من خلقه ، ولله ان يقسم بما شاء من مخلوقاته ، اقسم بالتين ، وبالزيتون ، وبجبل سيناء ، وقد أشار المفسر العلامة ابن كثير الى ان الله يريد بذكر التين والزيتون الرمز او الاشارة الى اماكن وجودها ، ونقل لنا قول بعض الائمة فقال : هذه محال ثلاثة بعث الله

في كل واحد منها نبياً مرسلا من اولي العزم ، بأصحاب الشرائع الكبار «فالاول» محلة التين والزيتون : وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام « والثاني » طور سينين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسي بن عمران « والثالث » مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً وهو الذي أرسل فيه محمداً ﷺ » .

على ان فريقاً من المفسرين يميلون الى اعتبار نفس التين ونفس الزيتون في تفسير الآية .

ونحن نميل إلى الرأي الأول ، لان الدلالة على الاماكن المقدسة شديد الصلة بالايمان الذي تتحدث عنه هذه السورة ... ولأن الله سبحانه ذكر بعد التين والزيتون مكانين مقدسين ، ويمكننا ان نستأنس بذكره لذلك على ان المراد من التين والزيتون مكانهما لاعينهما - والله اعلم -

يقسم الله سبحانه بانه قد خلق الانسان على أحسن صورة ، شكلا ، واستعدادا ، وعلوا في سلم الارتقاء ، وما دام الله قد تفضل فخلقه بهذا الخلق ، فما عليه الا ان يستعمل استعداداته فيما خلقت له اصلا في طاعة الله ومرضاته ، لانه هو المتفضل وهو المتكرم ، ولكن الانسان الظالم لنفسه لايلبث ان ينحرف باستعداداته ، ويسخرها لتنفيذ مآرب الشيطان ، ويحيد عن طريق الله ، ويتبع سبل الشيطان ، فيستحق ان يزجه الله في العذاب المهين ، في جهنم بل في اسفل اسفل ... في الدرك الاسفل من النار .

ان هذا المصير ليس مصير كل الناس ، فهناك المؤمنون الصادقون ، والعابدون الراكعون الساجدون ، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، الفاعلون للخير ، والمذكرون به ، فان هؤلاء ثوابهم متصل غير منقطع ، يوصلهم الى جنات الخلد ، يتمتعون ويمرحون « والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » .

فالايمان والعمل متلازمان ، فكل ايمان لايصدقه عمل هو ايمان كاذب ،

أو هو الى الوهم أقرب منه الى الايمان ، وكل عمل لايرافقه ايمان ليس له قيمة عند الله « والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء » ـ النور ٣٩ ـ « مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت بـه الريح في يوم عاصف » ـ ابراهيم ١٧ ـ

وبعد هذا كله ، بعد ان عرفت جزاء المحسنين ، وجزاء المنحرفين ، فاي شيىء يحملك ايها الانسان على ان تكذب بالثواب والعقاب الذي اعده الله لعباده ، ما دام كل انسان سيأخذ نصيبه غير منقوص ، ثم هل جربت على الله ظلما ؟! اليس من العدل ان يوفي كل انسان ما يستحقه ، اليست حكمة الله بالغة في هذا الحكم على المؤمنين وعلى غير المؤمنين ... وبعد اليس الله بأحكم الحاكمين ؟!.

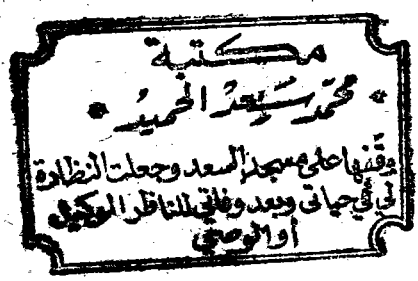

سورة الفجر

نزلت بمكة بعد سورة الليل

النص : ١ — والفجرِ . وليالٍ عشرْ . والشفعِ والوترِ . والليلِ إذا يسرِ . هل في ذلك قسمٌ لذي حجرٍ . ألم تر كيف فعل ربُّك بعادٍ . إرمَ ذاتِ العمادِ . التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلادِ . وثمودَ الذينَ جابُوا الصخرَ بالوادِ . وفرعونَ ذي الأوْتادِ . الذين طغَوْا في البلادِ . فأكثروا فيها الفسادَ . فصبَّ عليهم ربُّك سوْطَ عذابٍ . إنَّ ربَّك لبالمرْصادِ .

٢ — فأما الانسانُ إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمَه ونعَّمه فيقولُ ربّي أكرمنِ . وأما إذا ما ابتلاهُ فقدرَ عليه رزْقَه فيقولُ ربّي أهانَنِ . كلاّ بلْ لا تُكرمونَ اليتيمَ . ولا تحاضُّونَ على طعامِ المسكينِ . وتأكلونَ التُّراثَ أكلاً لمّاً . وتُحبُّونَ المالَ حُباً جمّاً .

٣ ــ كلا إذا دُكّت الارضُ دكّاً دكّاً . وجاء ربُّك والملكُ صفّاً صفا . وجيءَ يومئذٍ بجهنّم . يومئذٍ يتذكّرُ الانسانُ وأنّى له الذكرى . يقولُ ياليتني قدّمتُ لحياتي . فيومئذٍ لا يُعذّبُ عذابَه احدٌ . ولا يُوثق وثاقَه احد . يأيتُها النفسُ المطمئنّةُ . ارجعي الى ربكِ راضيةً مرضيّةً . فادخُلي في عبادي وادخُلي جنّتي .

شرح الكلمات : ليال عشر : المراد بها عشر ذي الحجة ــ الشفع : المراد به يوم الاضحى وهو اليوم العاشر من ذي الحجة ــ الوتر : المراد به يوم وقفة عرفة وهو اليوم التاسع من ذي الحجة ــ والليل اذا يسر : والليل اذا ذهب ــ حجر : عقل ــ عاد : هم عاد الاولى : وهم الذين بعث الله فيهم هودا عليه السلام فكذبوه وخالفوه ــ ارم : اسم جد « عاد » ، اذ ان نسبهم هو عاد بن عوض بن ارم بن سام بن نوح ــ ذات العماد : صفة لقبيلة عاد ، وهي كناية عن انهم قوم بدو يسكنون الخيام ــ التي لم يخلق مثلها في البلاد : لم يوجد في مثل قوتها بين القبائل جابوا : نحتوا وقطعوا ــ ذى الاوتاد : صاحب الجنود الكثيرة ــ ابتلاه : امتحنه واختبره ــ قدر : قلل ــ التراث : الميراث ــ جما : شديدا ــ دكت : زلزلت ومهدت .

اسباب النزول : قال النبي (ص) من يشتري بئر « روقه » يستعذب بها غفر الله له ، فاشتراها عثمان فقال :

هل لك أن تجعلها سقاية للناس ؟ قال نعم ، فانزل الله سبحانه في عثمان « يأيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .

من روح السورة : ١ ـ يقسم الرب سبحانه وتعالى بأزمنة معينة ، لها قدسيتها ، ولها وقعها في نفس المؤمن ، انها أزمنة تكون فيها العبادة عظيمة الثواب عظيمة الاثر ، تهذب النفس ، وتسمو بالروح ، فالفجر .. الفجر هادي بقرانه « وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهوداً » وليالي ذي الحجة العشر التي يعلو فيها نداء الحجاج « لبيك اللهم لبيك » ويوم وقوف الحجاج بعرفه رافعين ايديهم الى السماء يطلبون من الله ويجيبهم الله ، يوم استجابة الدعاء ، يوم مناجاة الخالق الكريم ، الغافر الذنب ، القابل التوب ... يوم ينفر الناس من كل فج عميق ، ليقفوا ذلك الموقف ، وينعموا بتلك المناجاة ... ويوم العيد العظيم ، يوم العاشر من ذي الحجة ، يوم يعود الحجاج وقد غفرت ذنوبهم ، فأي يوم أجمل وأجل من هذا اليوم ...

والليل : الليل الذي يسرى دون أن تشعر ، مشغولا بقيامك بين يدى الله عز وجل ... ليل اولئك الذين قال الله فيهم « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا » .

انها أزمنة حبيبة كريمة يقسم الله بها ـ ولله ان يقسم بما شاء من مخلوقاته وليس للعبد أن يقسم الا بالله ، يقسم بها وهى جديرة بالقسم عند أولي العقول السليمة ـ مؤكداً انه سبحانه سيهلك كل من عتا وتجبر واستهان بالأنبياء وتعاليمهم .

ارجع معي الى الوراء قليلا ، لتقرأ معي التاريخ الحافل باخبار اولئك العتاة الجبابرة الذين اهلكهم الله وان القرآن الكريم ليقص لنا قصة عاد وثمود وفرعون .

أما عاد هذه القبيلة كانت خلفا لقوم نوح عليه السلام قال تعالى « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » وكان عهدهم على التقريب ما بين عامى ٢٢٠٠ قبل الميلاد الى ١٧٠٠ قبل الميلاد ، وكان وطنهم اليمن وحضرموت وسواحل الخليج الفارسي .

وقد أرسل الله سبحانه اليهم رسوله « هودا » عليه السلام قال تعالى (والى عاد اخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ...) ولكنهم خالفوه ، وعتوا عن أمره ، فأهلكهم الله تعالى ، ونجى المؤمنين منهم فمن هلك منهم ، يسمى عاد الاولى ، ومن نجا يسمى عاد الثانية ، قال تعالى « واما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ؟؟ ! ... » .

وأما ثمود ... فانه في الوقت الذي كانت تسود فيه عاد القسم الجنوبي الشرقي من بلاد العرب والذي يمتد من سواحل الخليج الفارسي الى العراق ، كانت ثمود تسود القسم الشمالي الغربي من بلاد العرب الذي يعرف بوادي القرى ، وقد وجدت ثمود في هذه المنطقة من الارض ما بين عامي ١٨٠٠ - ١٦٠٠ ق.م وانتهت مدتهم قبل موسى عليه السلام لأن القرآن الكريم ينقل لنا كلاما يتكلم به أصحاب موسى هذا نصه :

(وقال الذي آمن : ياقوم اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم) هذا ما قاله أحد أصحاب موسى لمن كفر بموسى ، وموسى كان عام ١٥٠٠ ق . م فقوم عاد وثمود اذن قبل موسى ، وقد اتصفت ثمود هذه بالقوة ، وكثرة الاستعداد الحربي ، حتى أنهم كانوا جبابرة حقا . فقد كانوا ينحتون بيوتهم من الصخر الأصم في الجبال الشامخة ... فأرسل الله اليهم رسوله الكريم (صالحا) عليه السلام قال تعالى (والى ثمود اخاهم صالحاً ...) ولما لم يستجيبوا له أهلكهم الله سبحانه قال تعالى فعقروها - الناقة - فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها) .

ولكن الاهلاك لم يتناول الا العصاة منهم ، أما نبي الله صالحا ومن آمن معه ، فقد نجوا بفضل من الله قال تعالى (فلما جاء امرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا) .

وأما فرعون ... فانه قد طغى ، وتجبر في مصر ، وادعى الالوهية ، فقال

(أنا ربكم الاعلى) وبنى اهرامات مصر ، وشيد الاوابد ، وأقام التماثيل ، فارسل الله تعالى اليه موسى عليه السلام فلما لم يطعه ، وحاول البطش به ، أغرقه الله ، ونجا موسى ومن معه من المؤمنين .

ان هؤلاء الاقوام السابقين لما كثر فسادهم ، كان انجع علاج لهم اهلاكهم وتطهير الارض من آثارهم وتخليص العباد من شرورهم (ان ربك لبالمرصاد) .

٢ — ظلوم هذا الانسان وقصير نظر ، إنه إن اعطاه الله المال والجاه وابتلاه اختبارا — كما فعل بعاد وثمود وفرعون — ظن أن ذلك دليل رضاء الله عنه ، وان هذا العطاء تكريم له ، ولم يعلم أن الله يعطيه ذلك العطاء تمهيدا للجزاء ، مسكين ذلك الانسان لقد اعتبر البلاء جزاء ، والامتحان نتيجة (ايحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) .

واذا امتحنه بالضيق والشدة اعتبر ذلك اهانة له ودليلا على عدم رضاء الله عنه ، لقد حسب مرة ثانية ان البلاء جزاء ، والامتحان نتيجة ، وهو مخطيء في كلا التقديرين فليس بسط الرزق دليلا على مرضاة الله ، فقد كان الانبياء فقراء ، وليس تقتير الرزق دليلا على غضب الله تعالى ، فقد كان قارون كثير المال والكنز .

وليت امر هؤلاء يقف عند هذا الحد من الزعم الفاسد ، بل انهم يتعدونه فلا يقومون بواجب المال ، فلا يبذلونه وقت الحاجة اليه ، فهذا اليتيم الذي فقد وليه والمنفق عليه ، مالكم لا تذكرونه ولا تكرمونه من مال الله الذي اعطاكم ، وهذا الفقير المحتاج الخاوي البطن ، الآوي الى الشارع ، مالكم لا تذكرون بعضكم بعضا على الرفع من مستواه ، ولو ادركتم ان هذا المال الذي في ايديكم مادة الفحص التي تمتحن بها نفوسكم ليخطط على ضوء تصرفكم العملي فيها مستقبلكم الابدي لانفقتم ، ولما جمعتم المال الا من الطريق الحلال ، ولكنكم لم تدركوا ذلك المعنى ، فاقبلتم على جمع المال من حرام وحلال ، فضممتم الى اموالكم ميراث المرأة والطفل الصغير ومنعتموه من الميراث ، كل ذلك حبا بجمع المال لاعتقادكم

الخاطيء بان كثرة المال تجلب الراحة والسعادة .

٣ ــ ويأتي التهديد الشديد ، ويزمجر القرآن الكريم ويرعد ويتوعد امثال هؤلاء بمجيء يوم القيامة ليلاقوا جزاءهم ، ان يوم القيامة يوم مرعب مذهل ، فالارض تزلزل ، وتسوى فيها الجبال والوديان ، والخلائق تخرج من القبور ، ويتجلى الرب سبحانه تحفه الملائكة لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعدما يستشفعون بسيد ولد آدم محمد ﷺ ... ويشفع عند الله سبحانه في ان يتفضل بفصل القضاء فيشفعه الله سبحانه وهي اول الشفاعات وهي المقام المحمود ويأمر الرب سبحانه جهنم بالقدوم فتأتي .

روي مسلم والترمذي عن ابي مسعود قال : قال رسول الله ﷺ يؤتى بجهنم يؤمئذ لها سبعون الف زمام مع كل زمام سبعون الف ملك يجرونها ومما هو معلوم ان العدد في مثل هذه الاحاديث غير مقصود بذاته.

وعندما يرى الانسان هذه الموقف المهيب الذي تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت ... وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ... يؤمئذ يتذكر الانسان. يتذكر بان المال الذي اعطاه الله كان للابتلاء والامتحان وليس للتكريم ... يتذكر بانه لم يكرم بهذا المال اليتيم ولم يساعد به الفقير ... وكان يزيده من حلال ومن حرام ... يتذكر هذا كله ولكن بعد ان فات الاوان ، وسبقه الركب وتقرر المصير ... ويقول الانسان (ياليتني قدمت لحياتي ...) يندم على ماسلف منه من المعاصي ، ويتمني لو استزاد من الطاعات ، واكثر المؤونة لهذه الحياة الحقيقية التي تستحق لفظ الحياة .

روى الامام احمد عن محمد بن عمرة وكان من اصحاب رسول الله ﷺ قال : (لو ان عبدا خر على وجهه من يوم ولد الى ان يموت في طاعة الله لحقره يوم القيامة ولودّ انه لو ردّ الى الدنيا كيما يزداد من الاجر والثواب) .

وفي هذا الموقف الرهيب يكون الناس على قسمين . أما ما كان مثل عاد وثمود وفرعون فان الله ينزل بهم عذابه الفذ الذي لا يستطيع ان ينزله احد غيره

ويأخذهم الاخذ الشديد الشديد ... في وسط ذلك العذاب والوثاق ينادي الرب سبحانه الانسان المؤمن المخلص في ايمانه (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) أنت ايتها النفس المطمئنة لحكم الله في الدنيا المنفذة لشرعته ، المطمئنة الى قضائه في الاخرة ، انها نفس المؤمن الصادق ينادي بها الرب سبحانه لتعود الى جسدها الذي كانت فيه في الدنيا ، راضية من الله بما اوتيت ، مرضية عند الله بما عملت ، لتنتظم في جملة عباد الله الصالحين الذين اخلصوا العبودية لله سبحانه ، لتأخذ طريقها معهم الى جنات الله الواسعة حيث السعادة الدائمة والنعيم المقيم .

سورة البروج

نزلت بمكة بعد سورة الشمس

المعنى : ١ ـ والسماءِ ذاتِ البُروجِ ، واليوم الموعودِ ، وشاهدٍ ومَشهودٍ ، قُتِل أصحابُ الأخدود ، النارِ ذاتِ الوَقودِ ، إذْ هُمْ عليها قُعودٌ ، وهُمْ على ما يَفعلون بالمؤمنين شُهودٌ ، وما نَقموا منهم الا ان يُؤْمنوا باللهِ العزيزِ الحَميدِ ، الذي له مُلكُ السمواتِ والارضِ واللهُ على كلِّ شيءٍ شهيدٍ ، إن الذين فتنوا المؤمنينَ والمؤمناتِ ثم لم يتُوبُوا فلهُمْ عَذابُ جهنَّمَ ولهُمْ عذابُ الحريقِ .

إن الذين آمنوا وعملوُا الصالحاتِ لهم جناتٌ تجري من تحتِها الانهارُ ذلك الفَوزُ الكبيرُ ، انَّ بطشَ ربّكَ لشديدٌ ، إنه يُبدِيءُ ويعيدُ ، وهو الغفورُ الوَدودُ ، ذو العرشِ المجيدِ ، فَعّالٌ لما يُريدُ ، هل اتاكَ حديثُ الجُنودِ ، فرعونَ وثمودَ ، بل الذين

كفروا في تكذيبٍ ، واللهُ منْ ورائِهم محيطٌ ، بلهوقرآنٌ مجيدٌ في لَوْحٍ مَحفُوظٍ .

شرح الالفاظ : البروج : الكواكب العظيمة ـ اليوم الموعود : يوم القيامة ـ الأخدود : الشق العظيم في الأرض أو الخندق الكبير ـ ما نقموا منهم : ليس هناك أي سبب يعيبونه عليهم ـ فتنوا المؤمنين : امتحنوهم ، والمراد بها هنا : أحرقوهم بالنار وعذبوهم فيها . البطش ـ انزال الاذى أو العقوبة بعنف ـ يبدىء : يخلق ـ يعيد : يرجعهم كما كانوا ـ الجنود : الجموع ـ مجيد : عظيم ـ اللوح المحفوظ : قال الحسن البصري : هو شيء يلوح للملائكة فيقرأونه ، وقد كتب في هذا اللوح ما كان وما سيكون ، والله أعلم بكيفية هذه الكتابة.

من روح السورة : ١ ـ لله سبحانه وتعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وهنا يقسم الله تعالى بالسماء التي علقت بها أعظم النجوم ، واكبر الكواكب ، لأن هذه السماء وما فيها ، أكبر دليل على عظمة الله سبحانه وقدرته التي تتصف بعدم الحدود . ثم هو سبحانه يقسم بيوم القيامة وكل شاهد فيه ومشهود ، لعظيم أمر ذلك اليوم ، فانه يوم إحقاق الحق الكامل ، واخذ الحق لكل مظلوم ، والاسقاط بيد كل ظالم ، وأي تأكيد أقوى من هذا التأكيد بان هؤلاء المشركين من قريش ملعونون وهالكون كما لعن أصحاب الاخدود وهلكوا ، روى عن العلامة مقاتل قال : كانت الأخاديد ثلاثة : واحدة بنجران باليمن ، وأخرى بالشام ، وأخرى بفارس ، حرق أصحابها بالنار ، أما التي بالشام ، والتي بفارس ، لم ينزل الله فيها قرآنا ، وأنزل في التي بنجران ، وذلك أن رجلا مسلما ممن يقرأ الانجيل أجر نفسه في عمل وجعل يقرأ الانجيل ، فرأت بنت المستأجر النور يضيء من قراءة الانجيل ، فذكرت ذلك لابيها ، فسأله ، فلم يزل به حتى أخبره بالدين والاسلام ، فتابعه على دينه هو وسبعة وثمانون انسانا ما بين رجل وامرأة ، وهذا بعد ما رفع عيسى عليه السلام الى السماء ، وقبل مبعث النبي

محمد (ص) بسبعين سنة ، فسمع بذلك رجل اسمه (يوسف بن ذي نواس) فخندقهم في الارض ، وأوقد لهم في أخدود ناراً ، وعرضهم على الكفر ، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار ، ومن رجع عن دين عيسى لم يقذفه ، تلك هي قصة أخدود نجران ، أما أخدود الشام ، فقد كان صاحبه (انطانوس) ، وأما أخدود فارس فقد كان صاحبه (بختنصر) .

انها صورة مفزعة حقاً أن ترى الناس المؤمنين الصادقين يقتادون الى النار فيمون فيها ، ورؤوس الكفر تجلس على الارائك تمتع النظر بهذا المنظر الحبيب عند ذوي النفوس المريضة والقلوب المتحجرة ، ونرى الزبانية يعودون الى أسيادهم وكل واحد يشهد له زميل له بأنه قد قام بواجبه من القاء الناس الخيرين الطاهرين في النار خير قيام ، لم يقصر في ذلك ولم يتلكأ ، ثم ينقلب الى أقرانه ، تائهاً فخوراً بما عمل « وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » ولا ذنب لهؤلاء الابرار الا انهم قالوا : انا لا نعبد أحجارا ولا أشخاصا ، انما نعبد آلها خلق السموات والأرض وهو يدبرها ، وخلق الكون وهو يرعاه ، وهذه سنة الله في المؤمنين « أفحسب الله أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » انهم يصبرون ويحتسبون الاجر عند الله تعالى ، لان الله يعرف حقيقة كل امر ، ودخيلة كل نفس ، وتأبى عدالة الله الا ان تلقن الظالم درسا يمتد معه الى الأبد ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم .

... ومع كل الذي عملوه ... ومع كل الجرائم التي أرتكبوها ... من تقتيل ، وتمزيق للانسان الذي كرمه الله ، فانهم ان تابوا وأصلحوا ودخلوا في الدين الحق ، فان الله يتجاوز عنهم ، وان لم يتوبوا واستمروا في بغيهم وطغيانهم ، فليس لهم جزاء الا نار أشد من نارهم ، وجحيم أقوى من جحيمهم .

ان هذه الآيات تضع أمام كفار قريش قبسا من نور وتقول لهم ، انكم ان آمنتم يغفر لكم الله ما قد سلف ، ولو بعد كل الذي عملتموه ، وان مضيتم في كفركم ليس لكم مصير الا النار . والقرآن يقول لعتاتية اليوم زبانية الكفر

والالحاد ، مشجعي التحلل والفسق كما قال لأصحاب الأخدود وكفار قريش من قبل انكم ان تبتم وأصلحتم فالله غفور رحيم وان تماديتم في طغيانكم فليس لكم من مصير الا ما لاقاه اصحاب الأخدود وكفار قريش ، ذهاب الدولة والسلطان في الدنيا ، ونار وقودها الناس والحجارة في الآخرة ، ان المبدأ هو المبدأ والنتيجة هي النتيجة ، وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ان القرآن الكريم قد استعمل لهذه المعاني الرائعة ، بل لهذا الانذار العظيم ، اسلوب القصة ، وما مراده أن يقص علينا قصة ، وانما مراده ان يبشر وينذر ، وتكلم عن أصحاب الأخدود ، وما مراده اصحاب الأخدود ، ولكن مراده مناصري الباطل في كل زمان ومكان ، والحاملي لواء محاربة الصالحين والمؤمنين الذين لا يبغون الا نشر الحب والأمن والعدل والعقيدة الصحيحة بين الناس . فالقصة اذن عبرة ، والعبرة لمن وجهت اليه .

٢ ـ اما الذين رسخ ايمانهم في الاعماق ، وتحملوا اذى المشركين بكل شجاعة ، ولم يصدهم هذا التعذيب عن الايمان ، وعملوا بما يمليه عليهم ايمانهم ، من استقامة في الحياة ، وبعد عن الرذيلة ، واقبال على كل خير ، ان لهؤلاء أجزل ثواب عند الله ، الا وهو الجنة ، وأى فوز اكبر من فوز الانسان برضاء الله ومثوبته ، واى نجاح اعظم من ان ينجح الانسان في امتحان الآخرة ، فيفوز بجنة تجري من تحتها الانهار ، فيها ما لاعين رأت ، ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ثم تعرض الآيات الى طائفة من صفات الله تعالى فالله شديد البطش ، وان انتقامه من اعدائه الذين كذبوا رسله ، وخالفوا أمره ، لشديد عظيم قوي ، فانه تعالى ذو القوة المتين الذي ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر او اقرب ، ولهذا قال تعالى « انه يبدىء ويعيد » فمن قدرته التامة وقوته انه يبدأ الخلق ثم يعيده كما

بدأه بلا مانع ولا مدافع ، والله سبحانه ليس بطاشا فقط بل هو آله الرحمة ايضا ، وهكذا يقترن بطش الله برحمته في ذهن المؤمن ،وقلما نجد آية رحمة إلا وتتبعها آية عذاب وبالعكس ، وهنا بعد ان ذكر الله آية العذاب ذكر آية الرحمة فقال تعالى وهو الغفور الودود ، يغفر ذنب من تاب اليه وخضع لارادته ولو كان الذنب من اي شيء كان .

والله مع انه يجمع بين صفة الرحمة وصفة العذاب ،فهو الى جانب ذلك علي المقام ، منزه عن الزلات والهنات ،منزه عن مماثلة البشر ،يعلو على جميع المخلوقات، وهو من عل يفعل ما يشاء وما يريد بكل حكمة وبكل نظام لا يجد الخلل طريقا الى حكمه ، الناس جميعاً خاضعون له ، لايملكون التمرد .

الم تسمع يامحمد بخبر الجموع المتجبرة مع حقارتها امام الذات الالهية ،التي بلغت من القوة والعظمة والكبرياء مبلغا ليس بعده من مطمع ، إنها فرعون وثمود ، ومع ذلك فان قوتهم لم تساو شيئا امام قوة الله فاهلكهم ،وجعلهم عبرة التاريخ ، وخبر الايام .

ومع كل هذه الآيات ، ومع كل هذه الحقائق الدامغة ، هناك أقوام لايؤمنون بالله ،بل ويكذبون كل من قال ان الله موجود، بالهم من أناس تعفنت عقولهم حتى تلفت ، ومرضت نفوسهم حتى ماتت ، اعمى عيونهم الحقد الاسود على دعوة الاسلام ان يروها موطدة الاركان ، رهيبة الجانب ، موفورة الكرامة ، وهم ما زالوا في وحولهم يتمرغون ،وفي ضلالاتهم يذهبون ويجيئون ، انهم لايكذبون إلا عنادا وحسدا ، ولا يجادلون الا اثارة لفتنة او هوى في نفس ، فان جاءتهم الحقيقة صفعوها وانقلبوا الى مبادئهم التي ليست مبادىء الا في عقولهم الفاسدة، والى دياناتهم التي ليست ديانات الا في عرفهم الشاذ ، يعللون النفس بها ، ويريحون الظن عندها « كل بل ران على قلوبهم » ، ـ بل الذين كفروا في تكذيب ـ ولكن

اتى لهم ان يطفئوا نور الله ، وان يخمدوا جذوة الايمان ، وان يهدموا منـــارة الاسلام ، والله قد شيدها ، واوقدها ، يريدون ان يكموا افواهـا ، ويخرسوا اصواتا قد انطقها الله ، ولكن ليس لهم ذلك لان دعوة الله لابـد وان تسود ، ذلك وعد من الله ـ والله من ورائهم محيط ـ « يريدون ليطفئوا نورالله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » انها دعوة القرآن الذي عقده الله في اللوح المحفوظ قرآنا مجيدا عظيما كريما ، وما كان عظيمـــاً في السماء ، فلن يكون هينا في الارض .

سورة الانفطار

نزلت بمكه بعد سورة النازعات

النص : ١ ـ إذا السماءُ انفَطَرت، وإذا الكواكِبُ انتَثرتْ، وإذا البِحارُ فُجِّرت ، وإذا القُبورُ بُعْثرت ، علِمت نفسٌ ما قدَّمت وأخَّرتْ ، يا أيها الانسانُ ما غرَّكَ بربِّك الكريم ، الذي خَلقكَ فسوّاكَ فعَدَلَكَ، في اي صورةٍ ما شاءَ ركَّبك، كلاّ بل تكذِبونَ بالدين ، وإن عليكمُ لحافِظين ، كِراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون .

٢ ـ إن الابرارَ لَفي نعيم، وإن الفُجّارَ لفى جَحيمٍ ،يصلَوْنها يومَ الدين ، وما هُمْ عنها بغائِبين ، وما أدراكَ ما يومُ الدّينِ ، ثم ما أدراكَ ما يومُ الدينِ ، يومَ لاتملكُ نفسٌ لِنَفْسٍ شيئاً والأمرُ يومئذ لله .

شرح الكلمات : انفطرت : انشقت ـ ما قدمت : ما عملت ـ أخرت :

تركت ـ غرك : خدعك ـ سواك : جعلك مستوى الخلق سالم الاعضاء ـ عدلك: جعلك متناسب الخلق ـ في اي صورة ما شاء ركبك : في أي صورة اقتضتها مشيئته سبحانه من طول وقصر وغير ذلك خلقك ـ حافظين : ملائكة يحفظون اقوالكم وافعالكم ـ كراماً كاتبين : ملائكة يكتبون عليكم اعمالكم ـ الابرار : المؤمنين ـ الفجار : الكفار ـ جحيم : نار ـ يوم الدين : يوم الجزاء .

مهد روح السورة : إن السورة بجملتها تدور حول اليوم الآخر ، وقد ابتدأت السورة بهذه البداية المعجزة راسمة لنا لوحة جد واضحة لأحداث يوم القيامة .

١ـ إن ارضنا هذه كوكب صغير جداً في مجموعة الكواكب الكونية الهائلة النجوم . ولنعرف ذلك يكفي أن نعرف أن بعض هذه الكواكب يفوق حجمها حجم ارضنا هذه الملايين الكثيرة من المرات ، وكل هذه الكواكب تدور في مداراتها الخاصة بها بقدرة الآله الذي نظم ذلك لاتخرج عنها .

وكثيراً ما تردد خبر إنشقاق السماء يوم القيامة ، من ذلك قوله تعالى «إذا السماء انشقت »ومنها قوله تعالى « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية » ومنها قوله تعالى « فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » وانه لمنظر مريع جداً أن تجد السماء قد انهارت عظمتها وانفرط عقدها فانشقت ، بل وانه لمنظر مريع اكثر ـ حتى انك لتغمض عينيك عند تصوره ـ عندما تخرج هذه الكواكب الصغيرة والكبيرة عن مداراتها فتخبط خبط عشواء وتنتثر في غير انتظام ، وتسير في غير نظام ، فيرتطم بعضها ببعض فيحطمه ، ويرتطم قسم منها بأرضنا هذه ، فيجعل جبالها لا جبال ، وتثور من شدة الصدمة البحار ، فينفتح بعضها على بعض ، ويطغى ماؤها على اليابسة ، وتصبح الكتلة الأرضية كتلة مهشمة ، قد ثارت قبورها ، وانتثرت هنا وهناك ، في هذا اليوم الشديد الهول ، يثوب عقل الانسان إليه ويذكر الأعمال الصالحة التي قدمها ، والفرائض التي أخرها ، ويذكر تقصيره في جنب الله سبحانه ، ولكن بعد فوات الأوان ...

وهنا يخاطبه الله سبحانه بقوله : « يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم »

إنه تقريع لهذا الانسان المقصر في جنب الله ما بعده تقريع ، إن الله قد تكرم عليك ايها الانسان ، فأمدك بالقوة والصحة والعقل، وسخر لك الأرض بما فيها، وأنت بعد ذلك تعصيه ... إنه لعجب عجاب ، ما الذي غرك به حتى ضيعت ما وجب عليك ؟ ألم يرسل اليك الرسل فحذروك عذاب الله ؟ ثم انت بعد ذلك تقدم على المعصية ، حقاً ان الانسان لظلوم كفار ... من الذي خلقك ؟ أليس هو سبحانه؟ انظر الى خلقك ألم يجعلك في أحسن تقويم ؟ ألم يكن يستطيع أن يجعلك في صورة قرد أو حمار أو خنزير ؟ ألم يكن يستطيع أن يجعل أقدامك في رأسك ؟ كان باستطاعته أن يفعل ذلك ، ولكنه سبحانه « خلقك فسواك فعدلك » فحق عليك أن تشكره على ذلك كله ، ان الذي يجرؤك على هذه المخالفات جميعاً ، ومقابلة نعم الله بالمعاصي ، تكذيب في قلبك أيها الانسان بالمعاد والجزاء ، لأنك لو آمنت بالجزاء يوم القيامة حق الايمان ، لارتدعت عن عمل السوء ، ومن اجل ذلك كله فقد أوكل الله سبحانه بالانسان ملائكة لا عمل لهم إلا إحصاء أعمال الانسان وأقواله ، فكيف تكذب أيها الانسان بيوم الحساب ، والملائكة يكتبون اعمالك واقوالك وهم يعلمون ما تفعلون ، ولو حسب الانسان حساب هؤلاء الملائكة لما اقترف معصية ، ولما أقدم على مخالفة لأمر الله ، وقد كان الفضيل رضي الله عنه اذا قرأ هذه الآية « وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين » قال ما اشدها من آية ...

٢ـ وهنا يخبر الله سبحانه عما يصير اليه المؤمنون من النعيم ، وهم الذين اطاعوا الله عز وجل ولم يقابلوه بالمعاصي ، إن لهم مكانتهم يوم القيامة ، تزفهم الملائكة ، وترحب بهم جنة الخلد ، اما الذين كذبوا باليوم الآخر ، فان جهنم بانتظارهم ، يحترقون بنارها يوم القيامة ، واذا ذكرت جهنم ذكرت معها النار المتأججة التي وقودها الناس والحجارة ، كما ذكرت معها مطارق النار ، الى جانب الطعام الخاص بهم « ان شجرة الزقوم طعام الأثيم » « ليس لهم طعام الا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع » « فليس لهم اليوم ههنا حميم ولا طعام الا من غسلين » .

« ان لدينا انكالاً وجحيماً ، وطعاماً ذا غصة وعذاباً اليماً » ... واذا

ذكرت جهنم ذكر معها الشراب المعد لأصحابها والذي وصفه الله بقوله « والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم » .

إن عذابهم هذا عذاب دائم ، لايغيبون عنه ساعة ، ولا يخفف عنهم لحظة، كما وصف الله سبحانه حالهم بقوله : « ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون. لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون » .

كل هذا العذاب من أجل تكذيبهم بيوم الحساب ، فيوم الحساب إذن يوم عظيم ، والايمان به من أركان الايمان لما له من أثر في العقيدة ، وأثر في السلوك .

إنه يوم لايتفع فيه المال ولا البنون الا من اتي الله بقلب سليم ، يوم لايقدر فيه احد على نفع أحد ، والكل تحت رحمة الله سبحانه ، والأمر كله بيد الله سبحانه ، ولذلك أراد رسول الله ﷺ أن ينبه إلى هذا المعنى أقاربه ،ليعلمهم أن قرابتهم من رسول الله ﷺ لاتفيدهم عند الله شيئاً ان كانت اعمالهم شريرة فاسدة ، فقال ﷺ « يابني هاشم انقذوا انفسكم من النار لا أملك لكم من الله شيئاً » . فالعاقل من حسب الحساب لذلك اليوم العظيم . « يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ».

الصف الخامس ابتدائي [1]

سورة المزمل

نزلت بمكة عدا الآيات ١٠ و ١١ و ١٢ فنزلت بالمدينة
والسورة بغالبها نزلت بعد سورة القلم

النص : ١ ـ يا أيها المُزّمّل ، قُمِ الليلَ الا قليلاً ، نصفَه أو انقُص منه قليلاً ، أو زدْ عليه ورَتِّل القُرآن ترْتيلاً ، انا سنُلْقي عليْكَ قولاً ثقيلاً ، إنّ ناشئَةَ اللّيْلِ هي اشَدُّ وطْأً وأقومُ قيلا ، إن لك في النّهارِ سَبْحاً طويلاً ، واذكُرِ اسمَ ربِّك وتبَتَّلْ إليه تَبْتيلاً ، رَبُّ المَشْرقِ والمَغربِ لاإله الاّ هُوَ فاتّخِذهُ وكيلاً .

٢ ـ واصْبِرعلى مايَقُولونَ واهْجُرْهم هَجْراً جَميلاً ، وذَرْني

---

(١) ابتداء منهج الصف الثاني من دور المعلمين واليك نص المنهاج : مراجعة منهج التربية الدينية للصف الخامس الابتدائي مع العناية بفهم وحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف ودراسة مقرر العبادات .

ـ إلى هنا ينتهي منهاج الصف الخاص من دور المعلمين.

والمُكذّبين أولى النَّعْمَةِ ومهِّلهُمْ قليلاً ، إن لَدَيْنا أنكالا وجَحيماً ، وطَعَاماً ذا غُصَّةٍ وعَذَاباً أليماً ، يَوْمَ تَرْجُفُ الارضُ والجبالُ وكانت الجبال كثيباً مَهيلا، إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكُمْ كما أرسلْنا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ، فعصى فِرعونُ الرسولَ فأخَذْناه أخذاً وَبيلاً ، فكيفَ تَتَّقون إن كَفَرتم يوماً يجعلُ الولدانَ شيباً ، السماءُ مُنْفَطِرٌ به كان وعدُه مفعولا ، إنّ هذهِ تذكرةٌ فمن شاء اتخَّذ إلى ربّه سبيلاً .

٣ ـ إن ربك يَعلمُ أنك تَقومُ أدنى مِن ثُلُثَيِ الليلِ ونِصْفه وثُلُثَه وطائفةٌ مِنَ الذين معك ، والله يُقَدِرُ الليلَ والنهارَ ، عَلِمَ أنْ لن تُحْصوهُ فتابَ عليكم فاقرأوا ما تَيَسَّرَ من القرآنِ عَلِمَ أن سيكونُ منكم مَرضَى وآخرون يضْرِبون في الارضِ يبتغَونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ ، وآخرونَ يقاتلونَ في سبيلِ اللهفاقرأوُا ما تَيَسَّرَ مِنهُ ، وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأقْرِضوا اللهَ قرضاً حَسَناً وما تُقَدِمُوا لانفُسِكُمْ من خيرٍ تَجدوهُ عند الله هو خيراً وأعظَم أجْراً واستَغْفِرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ .

شرح الكلمات : المزمل : المتلفف بثيابه ـ قم الليل : صل بالليل ـ رتل : تثبت واتقن تلاوته ـ انا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً : انا سنرسل اليك

قرآناً مهيباً لما فيه من التكاليف ـ ناشئة الليل : قيام الليل ـ أشد وطأ : اكثر خشوعاً ، اي يواطيء فيه قلب القائم لسانه ـ تبتل : انقطع إلى العبادة ـ وكيلا: ولياً وكفيلاً ـ وذرني والمكذبين : اتركني إليهم ـ المكذبين : رؤساء قريش ـ النعمة : التنعم والترفيه ـ انكالاً : قيوداً ثقالاً ، وهي جمع نكل ـ ترجف : تهتز ـ كثيباً : رمالا مجتمعة ـ مهيلاً : منهالاً ، سائلا ـ وبيلا : شديداً قوياً منفطر: متشقق ـ مفعولاً : كائناً ـ يضربون في الارض : يسافرون ويعملون الأعمال الشاقة .

اسباب النزول : ١ ـ اجتمعت قريش بدار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل ـ محمداً ـ اسماً يصدر عنه الناس ،قالوا « كاهن » قالوا ليس بكاهن ، قالوا « مجنون » قالوا ليس بمجنون ، قالوا «ساحر» قالوا ليس بساحر ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر ، فأتاه جبريل فقال « يا أيها المزمل ... » وكأن الله سبحانه يأمر رسوله أن يهجر النوم ويقوم الليل عابداً لله وشاكراً.

٢ ـ ولما نزل قوله تعالى « يا أيها المزمل قم الليل الا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ...» طبق الصحابة الكرام هذه الآية سنة حتى ورمت أقدامهم فأنزل الله سبحانه تخفيفاً عنهم « ... علم ان سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرأ واما تيسر منه ...»

من روح السورة : عاد رسول الله ﷺ بعد أن سمع باجتماع قريش لتنعت رسول الله ﷺ نعتاً يحقره ويصرف الناس عنه ... فاغتم رسول الله ﷺ واكتأب ، فالتف بثيابه وطلب من زوجته خديجة أن تغطيه بشيء من الثياب ليرتاح بعد عناء ، وينام بعد همٍ وغم ... وهنا انطلقت دعوة السماء تنادي « يا أيها المزمل قم الليل الا قليلاً ... » أيها الملتف بثيابه ... يا محمد قم وهيء النفس ، وعد العدة للقاء هؤلاء الكافرين المعاندين ، فان الوقت ليس وقت نوم وراحة...

قم وتزود بالزاد الحقيقي ... بالزاد الروحي الذي تتحطم عليه صخور الصعاب ، وتتلاشى أمامه الأمواج العاتية ، ويلقى النور على الظلام الحالك ... قم فقد مضى عهد النوم لأنك كنت تعيش لنفسك ، ومن يعش لنفسه يعش مستريحاً ، ولكنه يبقى مغموراً ، أما اليوم فانك تعيش لدعوة الله ، تعيش لغيرك ، ومن عاش لغيره عاش عاملاً ناصباً ، قائماً ساجداً ، ولكنه كبير كبير ... قم يا محمد ﷺ وهذب النفس ، واصقل الروح بقيام الليل راكعاً وساجداً ، قم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل ، لاحرج عليك في ذلك ، قارئا القرآن الكريم بتمهل ، لأن ذلك ادعى للفهم ، إن هذا الاعداد الروحي ما هو إلا لأن مايوحى عليك يا محمد من القرآن شيء ثقيل ، ثقيل في إبحائه ، ثقيل في ميزان الحق ، ثقيل في تكاليفه ، قالت عائشة رضي الله عنها « إني ولقد رأيته ينزل عليه الوحي ﷺ في اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً » وقال تعالى: « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »

أمر الله سبحانه بقيام الليل ، لأن قيام الليل اجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها ، ومع أن قيام الليل ثقيل على البدن ، فيه هجر لراحة الجسم ... ولكنه فيه اشعار لسيطرة الروح ، والتغلب على القوى الخبيثة في النفس ... في الليل التسليم الكلي للرب الخالق سبحانه حيث يكون الانسان بعيداً عن هموم النهار ومشاغله ، ولذلك أمر الله رسوله أن يجعل نهاره لمشاغله وحوائجه، ويجعل ليله لربه ، ولكنه امره أن يداوم على ذكر الله ليلاً ونهاراً . وينقطع اليه في العبادة عندما يفرغ من عمله لأنه آله يستحق التبتل اليه ، ان الكون في قبضته ، فهورب المشارق والمغارب ، فأحرى بالانسان أن يتخذه ولياً وكفيلاً .

٢ ـ إن هذ الاعداد النفسي والروحي ، من قيام الليل ، والانقطاع إلى عبادة الله و ... لكي يصبر على أذى قريش وأقوالهم « واصبر على مايقولون ...» والصبر وصية الله لأنبيائه عندما يتصدي لهم أعداء الدعوة « فاصبر كما صبر أولى العزم من الرسل » « واصبر فان الله لايضيع أجر المحسنين» «واصبرعلى ماأصابك

ان ذلك من عزم الأمور » « فاصبر ان وعد الله حق ...»

وهكذا فان الصبر وصية الله لرسوله ، وخاصة إذا كان هذا الصبر على أقوالهم التي لا أساس لها من الصحة ، يرافقه الهجر الجميل ... الهجر الذي لا جدال فيه ولا خصام ولا قتال وإنما هو هجر جميل ، هجر يغمض فيه العين عنهم ليلتفت إلى أمر دعوته ، وبيان أركان العقيدة السليمة ، ويترك أمر هؤلاء المكذبين إلى الله سبحانه فانه هو الذي سيتولى حربهم ، دع هؤلاء الذين لديهم المال والجاه يتمتعون بجاههم ومالهم في هذه الحياة الدنيا التي لاتساوي في عمر الزمن إلا يوماً أو بعض يوم ، وسيصيرون بعدها إلى حياة أخرى يتلاشى فيها كل مال ، وكل حسب ، وكل انصار ، حيث لايبقى أمامهم إلا القيود ، والنار ، والطعام الذي ينشب في الحلوق ، والعذاب المروع ... إن هذا اليوم يوم مخيف جداً ... كل ما فيه مخيف ... فالقيود ، والنار ، والعذاب الأليم ، أعد لهؤلاء « أولى النعمة » الذين لم يؤدوا حق النعمة، فالأرض على عظمها تهتز وتتفتت والجبال الراسيات على جبروتها تصبح ككثبان الرمل تنزلق ذراتها فتنهال انهيالا ... وإذا كان أمر الأرض العظيمة والجبال الشامخة « في ذلك اليوم » هذا ... فمن هو الانسان الضعيف ...؟ ذلك هو هول الآخرة المفزع الذي يهز كل قلب ، ويحبس كل نفس .

أما هول الدنيا فهو اخذ شديد شديد أيضاً يتمثل بأخذ الله لفرعون ، الأخذ الشديد عندما اغرقه الله وجنوده في اليم ، ونجى رسوله موسى ومن آمن معه ، ثم اخرجه من اليم ليكون عبرة يعتبر به الناس ، قال تعالى « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » صدق الله العظيم ، لقد قذفه اليم ، فالتقطه الناس ، وحفظوه محنطاً إلى اليوم ، حيث هو معروض في قاعة المومياء في متحف القاهرة ، حيث يلهج بذكره وذكر موسى كل لسان ... هذا هو اخذ الدنيا ، وهذا هو مصير فرعون الذي كذب برسالة موسى ، ومحمد إلى الناس ـ اليكم ـ كموسى إلى فرعون ، فان عصيتموه فان الله سيأخذكم كما اخذ فرعون ... وقد صدق الله ماوعد، فأين اليوم الوثنية ؟ وأين أهلها ؟ أين ابو جهل، وأبو لهب ، وأم جميل ؟ لقد مكن

الله المسلمين منهم فكان لهم شر مصير ، حتى أصبحنا لا نحفظ من قصصهم إلا ابشع الذكريات وأحقرها ... لقد أحذهم الله ... ان اخذ الله في الدنيا لشديد ... وفي الآخرة هو أشد ، فكيف تتقون هذا الأخذ والعذاب إذا لم تؤمنوا ؟ كيف تتقون هذا اليوم الذي يشيب من هوله الولدان ، وتنشق السماء ، انه يوم رهيب حقاً ، وهو واقع لا محالة وكائن لا محيد عنه « كان وعده مفعولاً »...

ان هذا الذي تقدم في هذه السورة من الاعداد الروحي في المقطع الأول، ومن أخذ الله للمكذبين رسله ، والاتعاظ بيوم القيامة ـ تذكره ـ نصيحة يقدمها الرب سبحانه إلى العباد ، وقد بين لهم فيها طريق الخير والرشاد ، كما بين لهم فيها طريق الغي والفساد ، فليتبع الانسان أي طريق شاء .

٣ ـ هذا هو المقطع الثالث من السورة وقد نزل بعد المقطع الأول بسنة كما مر معنا في اسباب النزول، وفيه تخفيف على الرسول وعلى المؤمنين في قيام الليل الشاق المضني ، بعد أن تهذبت النفس ، وشحنت الروح بشحنة الايمان ، وسمت وارتفعت ، ان الله سبحانه يرى قيام رسوله والمؤمنين الليل ، فهم تارة يقومون أقل من ثلثي الليل بقليل ، وتارة يقومون نصف الليل ، وتارة يقومون الثلث ، عن غير قصد منهم لأنه يصعب التقدير المضبوط ، فتارة يقصر الليل ، وتارة يطول، ولذلك فان الله لم يقدر لهم الفرض بقيام الثلث بالضبط ، لأنه علم أنهم لن يحصوه ، وبما ان الله لايريد لهم الشدة ولا المشقة ، وانما يريد الزاد الروحي ليستعينوا به في رحلة الدعوة الشاقة ، وقد تزودوا بما فيه الكفاية ، فهو الآن يخفف عنهم « فاقرأوا ما تيسر من القرآن » من غير تحديد بوقت ، ولكن قدموا من الليل ما تيسر . (١)

ان المقصود قد حصل وهو التزود بالطاقة الروحية ، وما دام قد حصل

---

(١) ورد في القرآن التعبير بالقراءة عن الصلاة كما في هذه الآية « فاقرأوا ما تيسر من القرآن » كما عبر عن القراءة بالصلاة في قوله تعالى « ولا تجهر بصلاتك » .

المقصود فلا مانع من التخفيف لان في المسلمين من هم اصحاب اعذار كالمرضى والمسافرين والمجاهدين ، والعاملين اعمالاً شاقة مضنية ، فندبهم الى القيام بقدر المستطاع ، والقيام بالفرائض المكتوبة من صلاة الصلوات الخمس المفروضة ، ودفع ما وجب عليهم من زكاة ، يضاف إلى ذلك الصدقات المندوبة لأن كل ما يقدمه الانسان من الأعمال الخيرة محفوظ عند الله كما قال تعالى « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة » وفي الحديث الشريف « ما زال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » ومهما جد الانسان واجتهد فانه سيقصر في جنب الله سبحانه من حيث يشعر أو لا يشعر ، ومن كرم الله أنه غفور لمن يستغفره رحيم لمن يسترحمه ، وقد وجه الله المؤمنين إلى طلب المغفرة عن كل تقصير يرتكبونه « واستغفروا الله أن الله غفور رحيم »

فقه السورة

١ ـ قيام الليل : من هذه السورة نستطيع أن نلمح أن الله سبحانه أوجب على الرسول وعلى صحابته قيام الليل ، وأدنى قيام هو الثلث ... ثم نسخ هذا المقدار وبقي افتراض أصل التهجد ـ قيام الليل ـ مقيد بقدر الاستطاعة « فاقرأوا ما تيسر من القرآن » ثم خفف أكثر من ذلك ، فنسخ افتراض قيام الليل ، وكان الناسخ له افتراض الصلوات الخمس ليلة المعراج ، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة ، هذا بالنسبة إلى المؤمنين ، أما بالنسبة إلى الرسول فان الظاهر أن الوجوب قد استمر عليه ، فلم ينسخ إلى آخر حياته عليه الصلاة والسلام ، كما تدل على ذلك الآية المذكورة في سورة الاسراء « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً »

٢ ـ التغني بالقرآن : « ورتل القرآن ترتيلاً »

لا خلاف بين العلماء أن تحسين مخارج الحروف واظهار مقاطعها مطلوب

حين تلاوة القرآن ولكن الخلاف قد وقع بالتلحين:

١ ـ قال البعض منهم أمثال سعيد بن المسيب وابن سيرين وابراهيم النخعي ومالك واحمد ابن حنبل وغيرهم يكره ان يلحن القارىء بالقرآن . فقد روي عن سعيد بن المسيب أنه سمع عمر بن عبدالعزيز يؤم الناس ، فطرب في قراءته ، فأرسل اليه سعيد يقول :

اصلحك الله ان الأئمة لا تقرأ هكذا ، فترك عمر التطريب ، وروى عن الامام احمد أنه كان يقول في قراءة الألحان : ماتعجبني ، ويقول: القراءة بالألحان بدعة لاتسمع ، اما الامام مالك فكان يقول :

انما هو غناء يتغنون به ليأخذوا عليه الدراهم .

٢ ـ ولكن فريقاً آخر من العلماء أمثال عمر بن الخطاب وعبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود وابو حنيفة والشافعي والطبري وغيرهم اجازوا القراءة بالتلحين ودليلهم على ذلك

١ ـ عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال « زينوا القرآن باصواتكم » ـالنسائيـ

٢ ـ عن عبدالله بن مغفل قال : قرأ رسول الله ﷺ في مسيرة له سورة الفتح على راحلته فرجع في قراءته ـالبخاريـ

٣ ـ قول رسول الله ﷺ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن ـمسلمـ وغيرها من الآثار

الترجيح : والأدلة تشهد لمن قال بجواز التغني بالقرآن ، أما إذا كان هذا التغني يغير من الفاظ القرآن ، أو يخل بمخارج الحروف ، أو يخل بقواعد التجويد المأثورة أو كان متكلفاً على نحو التوقيعات الموسيقية ، فلا كلام في أنه ممنوع محرم ، أما إذا كان تحبيراً ، وترقيقاً ، وتحزيناً ، فليس هناك من الادلة ما يمنعه .

٣ ـ ما تجوز به الصلاة من القراءة : « فاقرأوا ما تيسر من القرآن »

اتفق العلماء على أن القراءة في الصلاة فرض ، وقال الحنفية : ان الفرض مطلق القراءة فتصح الصلاة سواء قرأ الفاتحة أو لم يقرأها عملاً بقوله تعالى « فاقرأوا ما تيسر من القرآن »

وبما رواه أبو داود عن أبي هريرة « لاصلاة إلا بقرآن ولو بفاتحة الكتاب ».

وبما رواه البخاري ومسلم عن ابي هريرة أيضاً : ان رجلا دخل المسجد فصلى ، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد عليه النبي ﷺ وقال : ارجع فصل فانك لم تصل ، فصلى ، ثم جاء فأمره بالرجوع ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال: والذي بعثك بالحق ما احسن غيره ، فقال عليه الصلاة والسلام : إذا قمت إلى الصلاة فاسبغ الوضوء ثم استقبل القبلة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ... الحديث .

بينما يقول الشافعي واحمد ومالك إن قراءة الفاتحة فرض في الصلاة عملا بما نقله عبادة بن الصامت عن الرسول ﷺ أنه قال « لاصلاة لمن يقرأ بفاتحة الكتاب ـ البخاري وغيره ـ .

وبما نقله أبو هريرة من قوله ﷺ « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج فهي خداج فهي خداج ـ مسلم والترمذي ـ.

سورة الملك

نزلت بمكة بعد سورة الطور

النص : ١ ـ تَبارَكَ الذي بيدِه المُلْكُ وهو على كل شيءٍ قدير، الذي خَلَقَ المَوتَ والحياةَ ليَبْلُوَكم أيُّكم أحسنُ عملاً وهو العزيزُ الغَفور، الذي خَلَقَ سبعَ سَماواتٍ طِباقاً ما ترى في خَلقِ الرحمنِ من تَفاوُتٍ فارجِعِ البَصَرَ هل ترى من فُطُورٍ، ثم ارجعِ البَصَرَ كَرَّتَيْن ينقلبْ إليك البَصَرُ خاسئاً وهو حَسير ولقد زَيَّنا السماءَ الدُّنيا بمصابيحَ وجعلناها رُجُوماً للشَّياطينِ واعتَدنا لهم عَذابَ السَّعير »

٢ ـ وللذين كَفَرُوا بربِّهم عذابُ جهنمَ وبئسَ المَصير، إذا أُلْقُوا فيها سَمِعوا لها شَهيقاً وهي تَفُور، تكادُ تَمَيَّزُ من الغَيْظِ كلما أُلْقِيَ فيها فوجٌ سألهم خَزَنَتُها ألم يأتِكم نَذير، قالوا بلى قد جاءَنا نذيرٌ فكَذَّبْنا وقلنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شيءٍ إن

أنتم الا في ضلالٍ كبير ، وقالوا لو كُنا نسمعُ أو نعقِلُ ما كنّا في أصحابِ السعير ، فاعترَفُوا بذَنبِهِم فسُحْقاً لأصحابِ السَّعيرِ .

٣ ـ إن الذين يخشوْنَ ربّهم بالغيب لهم مغفرةٌ وأجر كبير ، وأسروْا قوْلكم أو اجهَرُوا به إنّه عليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ ، الاَ يعلَمُ من خَلَق وهو اللطيفُ الخبيرُ ، هو الذي جعَل لكم الارضَ ذلولاً فامْشوا في مَناكبِها وكُلوا من رِزْقه وإليه النُّشور . أأمنْتُم من في السَّماءِ أن يَخْسفَ بكم الأرضَ فاذا هي تَمورُ ، أم أمِنْتم مَنْ في السماءِ أن يرسِلَ عليكم حاصباً فستَعلمون كيف نَذير ، ولقد كَذَّب الذين من قبلِهم فكيف كانَ نكير ، أولم يَرَوْا إلى الطّيْرِ فوقَهُمْ صافّاتٍ ويقْبِضْنَ ما يُمسكُهن الا الرّحمنُ إنه بكلّ شيْءٍ بصيرٌ .

٤ ـ أمّنْ هذا الذي هو جُنْدٌ لكم يَنْصرُكُمْ من دونِ الرّحمنِ إن الكافرونَ الا في غُرورٍ ، أمّنْ هذا الذي يرْزُقُكم إنْ أمسك رِزْقَه بل لَجّوا في عُتُوٍّ ونُفورٍ ، أفَمَنْ يمشي مُكبّاً على وجهِهِ أهدى اَمّنْ يمشي سَوياً على صِراطٍ مُستقيم ، قل هو

الّذى أنشأكم وجعل لكم السّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قليلاً ما تشكرونَ ، قُلْ هُوَ الذّي ذرأكم في الارض وإليه تُحشرونَ ، ويقولونَ متى هذا الوعدُ إن كُنتم صادقين ، قل إنما العلمُ عند الله وإنما أنا نذيرٌ مُبين ، فلمّا رأوْه زُلْفةً سيئَتْ وُجوهُ الذين كفروا وقيلَ هذا الذي كنتم به تدّعونَ .

٥ ـ قل أرأيتم إنْ أهلكنيَ اللهُ ومَنْ معيَ أوْ رحمنا فمن يُجيرُ الكافرينَ من عذابٍ أليم ، قل هو الرحمنُ آمنّا بـه وعليه توكّلنا فستعلمون مَنْ هو في ضلالٍ مبين ، قل أرأيتُم إنْ أصبح ماؤُكم غوْراً فمَنْ يأتيكم بماءٍ معين .

شرح الكلمات : تبارك : تعالى وتعاظم ـ ليبلوكم : ليمتحنكم ـ طباقاً : بعضها فوق بعض ـ تفاوت : اختلاف ـ فطور : شقوق وصدوع ـ ينقلب : يرجع ـ خاسئاً : ذليلا ـ حسير : كليل ـ السماء الدنيا : السماء القريبة منا ـ هي السماء الأولى ـ مصابيح : المراد بها هنا الكواكب ـ الرجوم : جمع رجم وهو مصدر ما يرجم به ـ اعتدنا : هيأنا ـ السعير : اسم من اسماء جهنم ـ شهيقاً : صوتاً منكراً ـ تفور : تغلى ـ تميز : تتقطع ـ فوج : جماعة ـ نذير : رسول يخوفكم من عذاب الله ـ سحقاً : بعداً ـ ذلولاً : مذللة ، سهلة لا تمنع المشي عليها ـ مناكبها : جوانبها ـ النشور : المرجع والمعاد ـ تمور : تضطرب ـ حاصباً : حجارة ـ صافات : باسطات اجنحتها ـ يقبضن : يضممن ـ لجوا : تمادوا ـ عتو : استكبار عن الحق ـ مكباً على وجهه : متعثراً في مشيته ـ ذرأكم : خلقكم ـ زلفة : قريباً ـ غوراً :

غائراً او ذاهبـــاً في الارض لا تصل اليـــه الدلاء ـ معين : جار يصل اليه من أراده .

فضلها : أخرج اصحاب السنن الأربعة : قال رسول الله ﷺ « ان سورة من القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له : تبارك الذي بيـــده الملك » ـ قال الترمذي حديث حسن ـ

اسباب النزول : ١ـ كان كفار مكة يدعون على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك فأنزل الله قوله « قل ارأيتم ان اهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم »

٢ ـ كان المشركون ينالون بألسنتهم من رسول الله ﷺ ، فأخـــبره جبريل عليه السلام بما قالوه فيه وما نالوه منه ، وكان يقول بعضهم لبعض « أسروا قولكم لئلا يسمع آله محمد » فأنزل الله سبحانه فيهم « وأسروا قولكم أواجهروا به انه عليم بذات الصدور ... »

معه روح السورة : ابتدأ الله سبحانه هذه السورة الكريمة بالكلمة الجامعة لكل ما فيها « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » يمجد الله سبحانه نفسه ، ويخبر أنه هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشـــاء ، لا معقب لحكمه ، واذ هو كذلك ، فهو قادر لايعجزه شيء ، ولا يحد مشيئته حـــد ، وان هذه العقيدة ـ عقيدة ان الله هو المالك وهو المتصرف ـ حينما تستقر بالنفس البشرية تملأها نوراً ويقيناً بالله ، فلم الطلب من العباد والله هو المالك ، ولم اللجوء إلى المملوك وترك المالك ، ولم تعظيم العبد ونسيان السيد المتصرف ؟ انه ضـــلال ما بعده ضلال أن تلجأ إلى المملوك وتعرض عن المالك ... انه مالك كل شيء ... الم تكن أيها الانسان شيئاً غير مذكور ، فجعلك انسانـــاً لك حياتك ولك سعيك وعملك ، ثم هو يميتك بعد هذه الحياة ليحييك الحياة الآخرة كما قال سبحانه

« كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » والله سبحانه إذ يفعل ذلك ليس منه مصادفة أو لعباً ... وانما هو تخطيط محكم ، إنه اختبار للانسان لاظهار المكنون في علم الله من سلوك الناس على الأرض ، ليظهر للناس المسيء من المحسن ، والمطيع من العاصي ، وليكون التسابق إلى الخير « ليبلوكم أيكم احسن عملا » وهو العزيز الغالب الذي لايعجزه من أساء العمل ، الغفور الذي لاييأس منه أهل الاساءة والذلل ، كما قال تعالى « وإني غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

وبعد أن لفت الله سبحانه نظر الانسان إلى الانسان ذاته ، ليرى ملك الله وقدرة الله ، ارتفع به إلى الكون في أعلى طباقه ، إلى السماء وما فيها ، إن السماء وحدها لعجب عجاب ، انها سبع سماوات بعضها فوق بعض ، بينها خلاء ، كما دل على ذلك حديث الاسراء ، ومع كل ما تقدم به علم الفضاء في هذااليوم ، فانه ما زال في مقدمة ابحاثه عن الفضاء العجيب ، وليس لنا أن نخوض في علم الفضاء فانه لايسعفنا في تفسير هذه الآيةالكريمة، لأنه كما قلنا ما زال في البداية... ويكفي أن تستدل على عظمة الله وقدرته وسيطرته على هذا الكون الكبير ، أن ترتفع بنظرك إلى السماء وتتفحصها محاولاً أن تجد فيها عيباً أو شقاً وانك لن تستطيع ذلك ، ولو حاولت ذلك المرة بعد المرة ، لأجهد بصرك وانقطع عن النظر دون أن تجد وهناً أو عيباً ، إنه لاتجد الا الجمال ، الجمال الكوني الأخاذ ، إنك لاتجد إلا السماء الدنيا وقد ازدانت بالنجوم ... وانك إن نظرت إلى السماء في ليلة من ليالى الصيف الهادئة لرأيت منظراً لا يفوقه في الجمال منظر آخر ، ولو جربت أن تربط بين هذا المنظر البديع وبين الخالق الذي خلقه ، وبين مايقوله العلم بأن هذه النجوم هي عبارة عن كواكب ضخمة ، يبلغ حجم اصغرها مبلغ مئات أضعاف أرضنا هذه ، وأن منها ما يبعد عنا ملايين السنين الضوئية ، إذا تذكرت ذلك عرفت معني قوله تعالى في مطلع السورة « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » .

ان هذه الكواكب لها وظيفة أخرى وهي « رجوماً للشياطين » ونحن ليس لنا أن نخوض برأينا في أمور غيبية لا يعلمها الا الله ، أما كيف تكون رجوماً للشياطين فذلك ما يعلمه الله وحده ، ولا يسعنا الا أن نقرن هذه الآية بالآية الأخرى التي وردت في الموضوع نفسه لعلها تلقي ضوءاً على هذا الموضوع قال تعالى « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب ، الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » .

٢- إن هؤلاء الشياطين وظيفتهم معروفة ، ومهمتهم التي أخذوها على أنفسهم هي ما صرحوا به للرب سبحانه وتعالى « قال فبما أغويتني لأقعدن لهم على صراطك المستقيم » ان مهمتهم صريحة وهي إضلال عباد الله ، وحملهم على ترك شريعة الله ، ومنابذة الرسل ، وقد صرحوا بهذه المهمة في مكانين في القرآن في قوله تعالى « لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين » بل انه يقسم على أن ينفذ هذه المهمة بكل اصرار وعناد فيقسم ويشدد القسم فيقول « فبعزتك لأغوينهم أجمعين »

ان هؤلاء الشياطين تعرضوا للناس ، فمنهم من نبذ وساوسهم وطردهم شر طردة ، ومنهم من استمع اليهم ، وانصت إلى وساوسهم ، أما الذين انصتوا فكان نتيجة انصاتهم لتعاليم الشيطان أن كفروا بالله وبرسوله ، وقد اعد الله لهؤلاء جهنم ، ومصيرهم في جهنم مصير كالح مشئوم ، ويكفي ان نعرف من شؤمه وسوء طالعه أنهم عندما يلقون فيها ، يسمعون صوتها المذهل ، وصوت النار نعرفه في الدنيا ، وهي نار قش ، أو نار حطب ، أو نار بترول ، نسمع صوت نار الدنيا فتنهلع قلوبنا لشدتها وهولها ، فما بالك بنار الآخرة التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين ، ان صوتها ليلعلع ، وانها لتتلاعب ألسنة من النار في ألسنتها ، فتبدو وكأنها تغلي ، تبدو ألسنة النيران في ألسنتها كحبات قليلة من القمح في

ماء كثير يغلي فيقلبها ، إنها نار حانقة ثائرة ، تهوج وتموج ، تأكل بعضها بعضاً ، تود أن تنشطر من شدة حرها وعظم لهبها ، ولكنها لايكون لها ذلك الانشطار ، فتبقى كنار محصورة متراصة اللهب ، مرتفعة الحرارة ، لتكون أشد عذاباً وإيلاماً لأولئك الكافرين الذين يقودهم حراس جهنم إليها فيلقونهم في غير مارحمة ، متعجبين من شأنهم سائلين : ألم يأتكم رسل يعلمونكم شريعة الله ، ويحذوكم ناره وعذابه ؟ فانه من عدل الله سبحانه أنه لايعذب أحداً الا بعد قيام الحجة ، وارسال الرسل إليه كما قال سبحانه « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » فندموا على ما كان منهم واجابوهم لقد أتانا الرسل فعرفونا شرع الله وحذرونا عذابه ، ولو كانت لنا عقول سليمة نفكر بها التفكير المستقيم البعيد عن اهواء النفس ، ووساوس الشيطان لاتبعناهم ، وهكذا فقد اعترفوا بالجريمة التي ارتكبوها ، فحق عليهم العذاب ، كما قال تعالى « حتى اذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا بلى !! ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » .

٣ـ هذا شأن الذين يستمعون إلى الشياطين ، أما الذين يعرضون عنهم ويثبتون على إيمانهم ، وخوفهم من ربهم في السر والعلانية ، فيكفون عن المعاصي بينهم وبين أنفسهم ، ويقبلون على الطاعة في خلواتهم ، إن هؤلاء لهم الثواب العظيم عند الله سبحانه .

قال ابن كثير قال الحافظ ابو بكر البزار في مسنده ... عن أنس قال : قال يارسول الله انا نكون عندك على حال فاذا فارقناك كنا على غيره قال : كيف انتم وربكم ؟ قالوا الله ربنا في السر والعلانية قال ليس ذلك النفاق »

وهكذا فان الله يعلم الخفاء كما يعلم الجهر ، فمن شاء أن يسر فليسر ، ومن شاء أن يظهر فليظهر ، فان ذلك لايؤثر في علم الله شيئاً ، لأنه هو الخالق يعلم ما تخفيه الصدور وما يدور في الخلد ، وما يمر به الفكر ، فهو العليم بدقائق

الاشياء ، المعارف لحقائقها ، إنه عليم بهذا الانسان ، وعليم بما تكنـــه نفسه ، وعليم بما يحتاج اليه ، فخلق له الأرض ، وجعلها صالحة لتحقيق ما يحتـاج إليه ، فهي مذللة له ، يسير عليها ، ويبنى بيته ، ويحرث ، ويغرس ، ويجني و ... وجعلها ذلولاً فأوجد فيها الجاذبية فهي لاتلقى الناس عنها رغم دورانها الشديد ... وأمر الله الانسان أن يمشي في اطراف الأرض ، ويلتمس الرزق ، وليس المقصود من المشي هو السير العادي من امتداد الخطى ونقل الأقدام وإنما المراد منه الاطلاع على مكنونات هذه الأرض ، واستخراج عجائبها ، وتركيب بعضها مع بعض ، وتحليل بعضها من بعض ، وبعبارة أدق المراد بها البحث عن الاختراع الذي يعود على الانسانية لا بالتدمير والتخريب ، ولكن يعود عليها بالرزق والخير والبركة ، وهكذا تتجلى لنا تعاليم الله نيرة وضاءة ،لاتخرب ولا توجه إلى التخريب ، ولا تدمر ولا توجه إلى التدمير ، وإنما هي ترزق وتوجه الى الرزق ، وتسعد وتدل على السعادة ، وتندب الانسان المؤمن الى ذلك كله وتزوده بالايمـــان والتقى ، الايمان باليوم الآخر والعودة إلى الله يوم الحساب « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ».

ان هذا السكون والتذليل في الأرض لايغرن الانسان ، فانه قـد ينقلب إلى ثورة وبراكين تضطرب بها الأرض ،أو انهدام وخسف بأمة اذا ما عصت الله سبحانه وخالفت انبياءه وسعت في الأرض فساداً ، وقد ينقلب الهواء الآمن رمز الحياة إلى ريح مدمرة ، تقذف الناس وكأنها حجارة ، فتكون سبباً لسلب الحياة من أمة آذت رسل الله، وهذا المسلك من التعذيب والابادة،سيكون نذيراً من الله بالعاقبة الوخيمة التي تنتظر أولئك الذين كـــذبوا رسول الله ﷺ من قريش وغيرها ، ليتعظ هؤلاء المجرمون باسلافهم الذين كذبوا برسالات الانبياء قبلهم ، كيف أن الله سبحانه عاقبهم عقاباً شديداً في هذه الحياة ، والعقاب الأشد ينتظرهم يوم القيامة ، وليعودوا إلى التاريـخ ، ألم يخسف بقارون الأرض لذلك السلوك المشين الذي سلكه مع موسى عليه السلام ، وقارون يومذاك كبير في

جاهه ، كبير في ماله ، فأخذه الله واخذ ماله ، كما قال تعالى واصفاً لنا غناه : « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ... » حتى أصبح محط أنظار الناس السذج الذين يغترون بمظاهر الدنيا الذين وصف الله لنا حالهم فقال « قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم » أما الذين ينظرون إلى الحقائق لايأخذهم وميض الذبال ، علموا أن هذا المال والجاه لا يقدم ولا يؤخر عند الله « وقال الذين أوتو العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ... » وحاول قارون مسخراً ماله أن يلفق التهم الباطلة على نبي الله موسى عليه السلام ، فأهلكه الله وأهلك ماله معه قال تعالى «فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » ... ثم ألم يسمعوا بخبر عاد التي أهلكها الله بالرياح ، ألم يذكر الله قصتها في القرآن الكريم حينما قال سبحانه « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية »

ان هذه الارض وهذا الهواء وهما اللذان يشكلان عنصر الحياة الأول بفضل الله ونعمته ينقلبان إلى قوى هائلة مدمرة إذا ما انتهكت حرمات الله وأسيء إلى انبيائه .

وبعد هذا التهديد الهائل ، يلجأ القرآن الكريم إلى العقل الانساني ليفكر بأن الذي خلق هذا كله وخلق غيره ... وغيره ... وغيره ... آله يستحق العبادة ... فهذه الطيور في السماء تسبح فيه تفرش اجنحتها حيناً وتقبضها حيناً آخر ، وتقوم بحركاتها الاستعراضية الرائعة ، من الذي يمسكها بين السماء والأرض فلا تهوى ؟ ان الذي يمسكها هو الذي أمسك الانسان على الأرض وهو الذي جعل الأرض ذلولاً لهذا الانسان وهو الذي خلق السماء وزينها بالكواكب ، وهو باختصار الذي بيده الملك والحياة انه سبحانه يعرف كيف يخلق وكيف يدبر

الخلائق ، فتبارك الذي بيده الملك .

٤ ـ الله بيده الملك ،منه النصر ، ومنه الرزق ، ولكن كثيراً من الناس لايعقلون ، وهنا يسأل الرب سبحانه أولئك الكافرين ، يسألهم ليقيم عليهم الحجة، ويبطل مايعتقدون،يسألهم : لو أنهم حشدوا الجنود ، والأتباع ، والآلهة المزيفة ، والشياطين ، و ... فهل يستطيع هؤلاء أن يمنعوهم من الله شيئاً ؟ إنه لامانع منه الا هو سبحانه ، فما لهؤلاء الكافرين يلجأون لغيره دون جدوى، ولم لايرفعون إليه الأيدي يطلبون منه النصر ؟... إنهم مغرورون .

ثم من الذي يرزقكم إن امسك الرب سبحانه عليكم رزقه ، قد تقولون نعمل ونعمل ... ولكن الحقيقة أن الرزق ليس بالعمل ، فالعمل وسيلة إلى الرزق، إن سلبكم الصحة فقد امسك عليكم الرزق ، وان أمسك المطر فقد أمسك عنكم الرزق ، وإن أنقص بعض المواد الضرورية ـ كالنتروجين مثلا ـ من الهواء ، فتعطل الزرع ، فقد أمسك عنكم الرزق ، ومن باستطاعته أن يمدكم بالرزق غير الله سبحانه ؟! ومع ذلك فان الكافرين يلجأون إلى غيره ... إنهم معاندون ينفرون من الحق والهداية .

ولكن شتان بين المؤمن والكافر ، ان مثلهما مثل انسان يسير منتصب القامة مرفوع الرأس في طريق معبد سوي ، ورجل يتعثر في مشيته ، لايمشي الا لينكب على وجه من طريق مليء بالعثار ، فأيهما أحسن ؟ وهذا مثال المؤمن والكافر يوم القيامة اما المؤمن فيسير سيراً متزناً ، وأما الكافر فيسير متعثراً أو يمشي على وجهه بدلاً أن يمشي على قدميه « ورد في الصحيحين عن نفيع قال سمعت أنس بن مالك يقول : قيل يارسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال أليس الذي امشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » انه سبحانه قادر على ذلك ، أليس هو الذى خلق الانسان من العدم ، ثم هو الذي زوده بما يحتاج اليه من السمع والبصر والأفئدة ، وقد حاول العلم الحديث أن يكشف عن

بعض الاعجاز في السمع والبصر ، فرأى ان حاسة السمع تبدأ بالأذن الخارجية، ولا يعلم الا الله اين تنتهي ، ويقول العلم ان الاهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينقل إلى الأذن التي تنظم دخوله ليقع على طبلة الأذن وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن ، والتيه يشمل على نوع من الأقنية بين لولبيه ونصف مستديرة ، وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس »

وهنا أترك القارىء ليتأمل وليتساءل ما حجم القوس ، وكيف ركب هذا العدد الهائل من الأقواس ، وما لحيز الذي شغلته و ...

أما البصر : هذه المعجزة الالهية الكبرى ، فيكفي أن تعلم ان هذه الحاسة « العين » تحوي مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء .

أما الأفئدة : فبها صار الانسان انساناً ، انها قوة الادراك والتميز، بها حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، ان الانسان انسان بادراكه فاذا سلب منه هذا الادراك ، أو عطله كان كالعجماء التي لاتهتدي ، ولاتطلب هدى .

انها لأمور عظيمة جداً اعطاها من بيده الملك للانسان ، وكان من حقه أن يشكره عليها حق الشكر ، وأول هذا الشكر أن يعترف به رباً ، وبرسله هداة ، ولكن المخجل حقاً أن يرفض الانسان الشكر ، بل ويستعمل هذه الحواس في معصية الله ، وقليل من عرف حق الله عليه فاستعملها في طاعته ، وامتثال أمره ، كما قال تعالى « وقليل من عبادي الشكور » وكأن هؤلاء الغافلين نسوا أن الله سبحانه هو الذي خلقهم على كثرة عددهم على هذه الأرض ، ليعدوا العدة لليوم الذي يحشرون فيه جميعاً ، ويقفون بين يدي الله سبحانه يحاسبهم عما قدموا من أعمال . ويرتاب المشركون بهذا الكلام ، ايحشرون إلى الله بعد موتهم ...؟ إن هذا غير معقول ... ويسألون متى هذا الحشر ؟ ومتى هذا اللقاء ؟ ويأتيهم الجواب إن موعده غير معروف ، ومن الخير ان لايعرف، ولا أثر

لمعرفته في التكاليف ، فمن أراد أن يعمل الصالحات سواء كان الحشر بعد عام أو بعد ملايين السنين عنده سيان ،وميعاد الحشر قد اختص الله سبحانه بعلمه وما على الرسول الا البلاغ والانذار بهذا اليوم ، وعندما يصير الأوان ، وينفذ الوعد يبهت الكافرون ، ويسوؤهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، ويسقط بأيديهم ، ويقال لهم هذا ... هذا الذي كذبتم به وادعيتم انه لن يكون ... انه أمامكم فادفعوه عنكم ... ولكن انى لهم ذلك .

٥ ـ اطلع الله سبحانه على ما يلهج به الكافرون من الدعاء على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه بالهلاك ، ليخلص العرب منهم ، فيطفأ نور دعوتهم ، ويقطع دابر الايمان ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم ، إن الله هو الذي بيده الملك ، وليس بأيديكم ، ولو كان الأمر بدعائكم ، لما امتد نور الله ، ولما علا ضياء شرعه ،ثم... وعلى كل حال ... فان اهلاك الرسول وأصحابه ، أو رحمة الله لهم بعد آجالهم ، لن يقدم ولن يؤخر في تعذيب هؤلاء الكافرين أو رفع التعذيب عنهم ، لأن الله حي لا يموت، وهو بيده الملك ـ فتبارك الذي بيده الملك ـ ان الله هو الذي يعذب وهو الذي يثيب . وان الرسول واصحابه قد آمنوا بذلك كل الايمان ، حتي خالط ذلك قلوبهم ، فألقوا إليه أمورهم ، متوكلين عليه ، بعد أن قاموا بواجب التبليغ ، وسيرى الذين كفروا من الذي كان على الحق ؟ ومن الذي كان يرفل في الضلال، يخيل إليه أنه في نعمة ، وما هو إلا في طريقه إلى النار ، وان النصيحة كل النصيحة لكم ، أن تؤمنوا بالله الحي الذي لا يموت ، والذي بيده الملك ، والذي يحيي ويميت ... وتكفروا بما عداه من الاصنام والأناسي . لأنهم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ، وانكم لتلحظون ذلك في كل شيء ، فهذا الماء سبب الحياة ان جفت ينابيعه ، فمن الذي يأتيكم بالماء الجاري ؟ وقد لاحظنا ذلك نحن اليوم وفي القرن العشرين هذه الآية الكبرى ، مع توفر مشاريع الري ، وتوفر مياه الشرب، لاحظنا ذلك عندما توالت سني المحل فجفت الينابيع ، وانقطع جريان الماء ، لم نجد حيلة لاعادة المياه إلى مجاريها ، وعدمنا كل وسيلة ، ولم يكن منا إلا رفع

الأكف إلى السماء مبتهلين إلى الله أن يتجاوز عن سيئاتنا ، ويعيد إلينا المياه الجارية ، فتبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

وهكذا تنتهي هذه السورة العظيمة . بعد أن حوت من معاني الايمان الراسخ ، ما يخر به الانسان ساجداً لله ، ومن نفحات الروح ما يحلق به في السماء ، بل وكانت كل عبارة من عباراتها تندرج تحت ما افتتحت به السورة «تبارك الذي بيده الملك».

سورة الجمعة

نزلت في المدينة بعد سورة الصف

النص : ١ ـ يُسبِّحُ للهِ ما في السموات وما في الارض المَلِك القُدُّوس العزيز الحكيم ، هو الذي بَعَثَ في الأميين رسولاً منهم يَتْلُو عليهم آياتِه ويُزَكّيهم ويُعَلّمُهُم الكتابَ والحكمةَ ، وإن كانُوا من قبلُ لفي ضلالٍ مُبينٍ ، وآخرين منهم لمّا يَلْحَقُوا بهم وهو العزيزُ الحكيمُ ، ذلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتيه مَنْ يشاءُ واللهُ ذو الفَضْلِ العظيم .

٢ ـ مَثَلُ الذينَ حُمِّلوا التَّوراةَ ثم لَمْ يَحْمِلوها كمثلِ الحمارِ يَحْمِلُ أسفاراً بئسَ مثلُ القومِ الذين كَذَّبُوا بآيات اللهِ واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين ، قل يا أيها الذين هادُوا إنْ زَعَمْتم انكم أولياءُ للهِ مِنْ دونِ النّاسِ فتمنَّوُا المَوتَ إنْ كنتم صادقين ، ولا يَتَمَنَّونه أبداً بما قَدَّمتْ أيْديهم واللهُ عليمٌ بالظالمين ، قل

إنّ الموتَ الذي تَفِرونَ منه فانّه مُلاقيكم ثم تُرَدُّون إلى عالِمِ الغيبِ والشهادةِ فيُنَبِّئكم بما كنتم تعملون.

٣ ـ يا أيها الذين آمَنُوا إذا نُودِيَ للصلاةِ مِنْ يومِ الجُمُعَةِ فاسعَوْا إلى ذِكْرِ الله وذَرُوا البَيْعَ ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تَعلَمون، فاذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشِرُوا في الارضِ وابتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ واذكُروا اللهَ كثيراً لعلّكم تُفْلِحونَ.

وإذا رَأَوْا تِجارةً أو لَهْواً انفَضُّوا إليها وتَرَكوكَ قائماً، قل ما عندَ اللهِ خيرٌ من اللهوِ ومِنَ التِجارةِ واللهُ خيرُ الرازِقين.

شرح الكلمات: القدوس: المنزه عن النقائص الموصوف بالكمالات ـ الأميون: المراد بهم هنا العرب ـ يتلو عليهم آياته: يتلو عليهم القرآن ـ يزكيهم: يطهرهم من الشرك ـ يعلمهم الكتاب والحكمة: يعلمهم القرآن والسنة ـ حملوا التوراة: كلفوا العلم بالتوراة والعمل بها ـ اسفاراً: كتباً ـ هادوا: اتبعوا الديانة اليهودية ـ فاسعوا إلى ذكر الله: فاذهبوا لسماع الخطبة ـ ابتغوا من فضل الله: اطلبوا الرزق ـ انفضوا اليها: قصدوها.

اسباب النزول: أخرج البخاري ومسلم عن جابر قال: كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة اذا قبلت عير قد قدمت فخرجوا إليها حتى لم يبق معه الا اثنا عشر رجلاً فأنزل الله سبحانه «واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها

وتركوك قائماً ».

أصاب المدينة المنورة جوع وغلاء ، وقدم دحية بن خليفة الكلبي في تجارة من الشام وضرب لها طبل يؤذن الناس بقدومه ، وصادف ذلك صعود رسول الله ﷺ على المنبر يخطب خطبة الجمعة ، فخرج الناس من المسجد الى التجارة ولم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا فنزل قوله تعالى « واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً » .

المعنى العام : ١ـ تبدأ السورة بقوله تعالى « يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم » وإنها لحقيقة كبرى من حقائق الوجود، ولفتة من لفتات الفكر إلى هذا العالم الفسيح بسماواته وما فيها من كواكب وفضاء ، وهذه الأرض وما فيها من انسان وحيوان ونبات وجبال وانهار ،ان كل واحد من هؤلاء يدل دلالة قاطعة على وجود الله ، بل على تنزيه الله سبحانه عن كل نقص ، ووصفه بكل كمال ، ومن ثم تذكر الآيات الصفات المناسبة للمقام في هذه السورة « الملك القدوس العزيز الحكيم » قال سيد قطب : ومن ثم تذكر ـ الآيات ـ « الملك » الذي يملك كل شيء بمناسبة التجارة التي يسارعون اليها ابتغاء الكسب ، وتذكر « القدوس » الذي يتقدس ويتنزه ويتوجه اليه بالتقديس والتنزيه كل ما في السماوات والأرض بمناسبة اللهو الذي ينصرفون اليه عن ذكره ، وتذكر « العزيز » بمناسبة المباهلة التي يدعي إليها اليهود والموت الذي لا بد أن يلاقي الناس جميعاً والرجعه إليه والحساب ، وتذكر « الحكيم » بمناسبة اختياره الأميين ليبعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ... وكلها مناسبات لطيفة المدخل والاتصال .

كان العرب قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام ولكن هذا الدين فقد مع الأيام معالمه ، وحلت الوثنية مكانه ، فكانت العقيدة تسودها الفوضى والاضطراب ، فكل قبيلة لها وثن تعبده ، أما اهل الكتاب فقد دخل كتبهم

التحريف والتبديل سواء عن سوء نية ، أو حسن نيـــة ، والواقع أن الكتب المقدسة لم تجمع في عهد أصحابها الأنبياء ، ولا في زمن يقارب زمنهم فهـذا مثلاً التوراة « العهد القديم » ليس بين أيدينا نسخة منه ترجع إلى المصادر الأولى التي أخذمنها ،والذي بين أيدينااليوم ثلاث نسخ منه ،النسخة الأولى تسمي«السبتآجنت» وهي ترجمة يونانية نقلت من اللغة العبرية في القرن الثالث قبل الميلاد ، وكانت هذه النسخة تقرأ في الكنائس القديمة في العصور النصرانية الأولى ، النسخة الثـانية « الماسورة » وهي جمعت في القرن الأول الميلادي ، وهذه النسخة هي المعترف بها عند اليهود ، والمعترف بها عند البروتستانت من النصارى ، والنسخة الثالثة هي « الفولـكات » وقد جمع هذه النسخة « سان جيروم » وتأخذ بها الكنيســـة المسيحية من غير البروتستانت ، أما البروتستانت فعـــدوها منحوله وسموها « العهد المنحول » .

واذا علمنا أن التوزاة تشكل أصلاً من أصول النصرانية اذ أنها تجمع مع الأناجيل لتكون الكتاب المقدس ، وعلمنا أن أول نسخة جمعت « السبتـآجنت » وهي جمعت بعد نزولها من السماء باكثر من الف ومائتي عام هي نسخـــة غير معتمدة لا عند اليهود ولا عند النصارى ، وان النسخ التي جمعت مؤخراً وفي ظل المسيحية هي النسخ المعتمدة مع أن جمعها يبعد عهد زمان نزولها اكـــثر من الف خمسمائة سنة ، واذا قلنا مثل هذا الكلام في تأخر جمع الأناجيل ، واختلاف كل نسخة عن النسخة الأولى ، وكثرة عدد النسخ المعتمدة وغير المعتمـــدة ، داخلنا الشك في صحة بقاء اصول هذه الديانات كما انزلها الله سبحانه ، ولكن ليس معنى ذلك أن كل ما جاء فيها قد داخله الخطأ ، فان الكثير منهـا صحيـح كل الصحة .

ولقد كان اليهود وغيرهم قبيل البعثة النبويـــة ينتظرون ظهور نبي أظل زمانه ، كما كان العرب بحاجة شديدة إلى هذا النبي الكريم ، ولكن الجميـع يتوقعون أن يكون هذا النبي من اليهود ، وكان أهل الكتاب يرتقبون ظهور هذا

النبي بفارغ الصبر نظراً لأن تحديد الزمن التي يظهر فيه هذا النبي قـــد ورد في كتابهم المقدس « التوراة » فقد ورد في التوراة انـــه كان « دانيال » في الاسر في «بابل» وكان حزيناً جداً لأجل حالة امته وأورشليم ان كان عليهـــا أن تقضي سبعين سنة في الأسر ، فكان يسأل الله أن يعيد مجد « أورشليم » ولكن الله اخبره بأنه قضى على امته وأورشليم قضاء أطول فقال في الاصحاح التاسع من سفر دانيال « ٢٤ سبعون اسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة»

ونحن نعلم أن الاسبوع في اللغتين العبرية والعربية « السبعة » فهنـــاك اسبوع أيام واسبوع شهور واسبوع سنين ، والقرينة هي التي تعين المراد.

أما اليوم من أيام قضاء الله وعقابه لليهود فهو بسنة كما ثبت ذلك في سفر العدد «٣٣ . وبنوكم يكونون رعاة في القفر أربعين سنة ٣٤ كعدد الايام التي تجسستم فيها الارض أربعين يوماً كل سنة يوم » وعليه فالأسبوع في مقـــام القضاء والجزاء غيره في مقام الفرح فالأول اسبوع سنين ، والثاني اسبوع ايام.

وبناء على هذا فان الجزاء الدنيوي من الظلم والاضطهاد الذي فرضه الله على بني اسرائيل والذي هو سبعون اسبوعاً يساوي في مقام الجزاء ٧٠ × ٧ = ٤٩٠ عاماً لأن كل يوم بعام . وتبتدىء من عام ١٣٢ التي تلاشت فيها كل قوة لليهـــود عندما هدم الرومان اورشليم وتشتت اليهود وتنتهي عام ٦٣٦ وهي السنة التي فتح فيها المسلمون أورشليم وذلك بعد اسقاط ١٤ سنة وهي المدة التي استراح فيهـا اليهود من الاضطهاد وذلك عندما دخل الفرس أورشليم عام ٦١٤ فمنعوا اضطهاد اليهود وايذاءهم إلى ان خرجوا منها سنة ٦٢٨.

ولنعد إلى عبارة التوراة من جديد « سبعون اسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا وللكفارة الاثم وليؤتي بالبر الابدي ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين » دانيال ٩/ ٢٤

واذن فالتوراة تنص على أن عام ٦٣٦ هو العام الذي يرتفع فيه البلاء عن بني اسرائيل ولا شك أن الرافع لهذا البلاء لا بدوأن يكون قد مضي عليه سنوات وهو يعد المدة لتأسيس الدولة وتثبيت العقيدة ، وهذا ما حدث فعلاً فان الرسول ﷺ بقي في مكة ١٠ سنين يدعو الى الله ثم هاجر وبين الهجرة وفتح القدس ١٤ سنة ، فكان المجموع ٢٧ سنة ، فترة الاعداد ، وقدر أهل الكتاب هـــذا التقدير ، وقرأوا عبارة التوراة « وليؤتي بالبر الابدي ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القدوسين » فعلموا أن نبياً قد أظل زمانه ، فهم بانتظاره ، وهم يعتقدون أنه منهم لان رفع الضيم سيكون عنهم ، ولما أرسله الله سبحانه في العرب أخذوا كل مأخذ ، فراحوا يكيدون له ولدعوته .

وهنا يمن الله سبحانه على العرب بأن ارسل الرسول منهم وليس من اليهود ، فيقول سبحانه « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ... » وان الله سبحانه قد ارسل هذا الرسول الكريم من العرب دون اليهود ، لانـــه اراد سبحانه أن يحول قيادة العالم الروحية من بني إسرائيل إلى العرب ، وكان هذا استجابة لدعوة ابراهيم عليه السلام عندما دعا ربه حين بنائه للكعبة مع ابنـــه اسماعيل فقال « ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم » فاستجاب الله لنداء أبراهيم ، وأشار القرآن الى هذه الاستجابة ، عندما استعمل نفس الفاظ دعوة ابراهيم ، وأرسل محمداً عليه الصلاة والسلام وقال سبحانه « هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » وكانوا قبل رسول الله ﷺ في ضلال مبين ، بدلوا دين ابراهيم فعبدوا الاصنام واي ضلال اكبر هذا ؟ والمقصود من بعثة الرسول الكريم إليهم تطهير عقولهم ونفوسهم من رجس الشرك ، وتطهير تصرفاتهم من الجور ، ليغرس مكانها عقائد وأخلاق وتهذيب كتاب الله ، وسنة رسول الله ﷺ .

ومع هذا الضلال الجاهلي الذي هم فيه فقد علم الله استعدادهم للتفاني في

هذا الدين ونشر تعاليمه ، وعلم أن نفوسهم ما زال فيها كثير من الخير الذي خلا من قلوب بني اسرائيل .

ولنا هنا أن نتساءل: هل هذا الدين خاص للعرب دون غيرهم ، حتى افردهم بالذكر هنا ، قال ابن كثير « وتخصيص الاميين بالذكر لاينفي من عداهم ولكن المنة عليهم أبلغ واكثر كما قال تعالى « وانه لذكر لك ولقومك » وهو ذكـــر لغيرهم يتذكرون به ، وكذا قال تعالى « وانذر عشيرتك الاقربين » وهذا وأمثاله لاينافي قوله تعالى « قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً » ... ونحن نقول ان الآية التالية « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » تنفي هذا الاعتراض ، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول ، ان الله أرسل محمداً في العرب ولكن أقواماً من غير العرب سيؤمنون بهذا الدين ، فيكونون منهم ، أو أن أقواماً آخرين لايحصون سيأتون بعد هذا الجيل ـ جيل الصحابة ـ فيؤمنون بالقرآن ، فيكونون من الامة المحمدية ايضـــاً ، وان الروايات المـــأثورة عن الرسول ﷺ لتدل على ذلك .

روى البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ فأنزلت عليه سورة الجمعة « وآخرين منهم لما يلحقوبهم » قالوا من هم يارسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال « لو كان الايمان عند الثريا لنالهرجال ـ أو رجل ـ من هؤلاء » حتى قال كثير من المفسرين في تفسير قوله تعالى وآخرين منهم لما يلحقوا بهم : هم الاعاجم .

وروى ابن ابي حاتم عن سهل بن سعد الساعـــدي قال : قال رسول الله ﷺ « ان في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب ثم قرأ « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » ولا شك بأن جعل الرســالة في العرب ، فضل عظيم من الله ، لان هذه الامة هي التي اختارها الله لحمل أ.

الله ، لحمل دين الله إلى سائر المعمورة ، فالجدير بهـــا أن لاتضيـع هذا الدين ، والاولى بها أن تكون السبّاقة إلى نشره ... ان الله وضع فيها العز ، فعليها هي ان تحافظ عليه ، حتى اذا نبذته نبذها الله ، وسلط عليها عدوها بعـــد أن ينزع مهابتها من قلبه .

٢ ـ وبعد أن منّ الله سبحانه على العرب بهذا الفضل العظيم الذي جعله فيهم ، فضل الرسالة ، فضل حمل لواء الدعوة الروحية ، الدعوة إلى الله ، شرع يبين لنا لماذا سلب بنى اسرائيل هذا الفضل فقال سبحانـــه « مثل الذين حملوا التوراة ... » الآيات إنه سبحانه كلفهم القيام بدعوة الله ، والعمل بشريعته وسبر أغوار هذه الشريعة ، ولكن بني اسرائيل ،هم بنو اسرائيل الذي يبدلون دين الله ويقتلون انبياءه ، لم يفقهوا معنى هذه الامانة ، ولم يقدروها قـــدرها ، فلم يلتفتوا الى دراستها وفهمها ، كما لم يلتفتوا إلى تبليغها واعلاء شأنها ، فكان مثلهم مثل الحمار الذي يحمل الكتب العلمية ، وهو لا يستفيد منها ، فليس له نصيب من حملها الا التعب ، وكذلك بنو اسرائيل ليس لهم من حمل الشريعـــة الا العبء الثقيل ، والمسئولية الجسيمة ، والحساب العسير ، ألم تحدد لهم التوراة زمن مبعث هذا النبي الكريم ، كما مر معنا سابقاً ، ألم تأمرهم التوراة بالايمان بهذا النبي عندما قال « وأزلزل كل الامم ويأتي مشتهى (١) كل الامم فأملأ هـــذا البيت مجداً قال رب الجنود» ومع ذلك فان هؤلاء اليهود لم يؤمنوا برسول الله فهم اذن أسوأ مثل يضرب في المكذبين بآيات الله ، وطالما ان الله قد بين لهم طريق الخير من طريق الشر ، وأمرهم أن يتبعوا الخير ، ويؤمنوا بهـــذا الرسول ، فلم يجيبوا نداء الله ، فقد ظلموا انفسهم ، والله لايهدى قوماً اختاروا ظلم أنفسهم على هداهتـا وانصافها .

---

(١) جاء في حاشية الاصل العبري : مشتهى : حمدوت ، أي الذي تحمده كل الأمم ، ونحن نقول إنه محمد (ص) .

ان هؤلاء اليهود الذين يدعون أنهم شعب الله المختـــار ، وأنهم على رأس الامم ، وان غيرهم من الشعوب بعيدة كل البعد عن السيادة ، وعن القيـــادة ، ولنهم هم اصحاب الحوزة عند الله سبحانه ، فان كانوا صادقين فيما يدعون فليبتهلوا إلى الله كى يميتهم ، وينقلهم إلى دار كرامته التي أعدها لاوليائه واحبـــائه ، ولكنهم يعلمون أنهم على غير حق ، وأن عقيدتهم عقيدة فاسدة ، وان اعمـالهم اعمال شريرة ، فهم ليسوا من أولياء الله ولا من احبائه ، وانهم ان ماتوا فالى جهنم وبئس المصير ، ولذلك فهم لايستجيبون لهـــذه الدعوة التي وجهها اليهم القرآن الكريم .

روى البخارى عن ابن عباس قال : قال ابوجهل لعنه الله ان رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه ، قال : فقـــال رسول الله ﷺ « لو فعل لاخذته الملائكة عياناً ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النـار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لايجدون اهلاً ولا مالاً ».

ولهذا لم يتمنوا الموت ، ولكن ما الفائدة من الفرار من الموت ، والمصير المشئوم ينتظرهم ، وجهنم تناديهم ، انهم سيموتون لا محالة كما قال تعـالى « اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » والعودة إلى الله حقيقة لايمكن الهرب منها ، والجزاء على قدر العمل الذي يقدمه الانسـان في هذه الدنيـا ، فالاعمال محفوظة عند الله يقابل بها العبد يوم القيامة ويومئذ تبيض وجوه وتسود وجوه ، ويومئذ يقول الكافر ياليتني كنت تراباً .

٣ ـ وبعد أن ذكر الله سبحانه منتـــه على العرب أن بعث فيهم رسولاً منهم ، وذكر زيف ما يدعيه اليهود من أنهم ابناء الله وأحباؤه ، انتقلت الآيات الكريمة الى مظهر من مظاهر القوة التى غرسها رسول الله ﷺ في الامة ، ألاوهي صلاة الجمعة ...

ويوم الجمعة يوم له مكانته في الاسلام ، قال ابن كثير « انما سميت الجمعة

جمعة لانها مشتقة من الجمع ، فان اهل الاسلام يجتمعون فيـــه في كل اسبوع مرة بالمعابد الكبار ، وفيه كمل خلق جميع الخلائق ، فانه اليوم السادس من السنة التي خلق فيها السموات والارض ، وفيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيـــه اخرج منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة لايوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيهـا خيراً الا اعطاه إياه ، كما ثبت بذلك الاحاديث الصحيحة »

وقد شرعت صلاة الجمعة في ظهر هذا اليوم ، وهي ركعتان تتقدمهما خطبة ، وقد امر رسول الله ﷺ بالاستعداد لهذه الصلاة بالغسل والمشي اليها بسكينة ووقار عند سماع الاذان الاول ، والانصات إلى الخطبة ، ووعد من يفعل ذلك الاجر العظيم ، روي اصحاب السنن من حـــديث أوس بن أوس الثقفي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول من غسل واغتسل يوم الجمعة وبكر وابتكر ، ومشي ولم يركب ، ودنا من الامام واستمع ولم يلغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها » .

وقد أمر الله سبحانه عبادة المؤمنين اذا سمعوا أذان الجمعة أن يسعو اليهـا والمراد بالسعي هنا الاهتمام بأمرها كقوله تعالى « ومن أراد الآخرة وسعى لهـا سعيها وهو مؤمن » أما المشي بسرعة فهو مشى عنه بقوله ﷺ فيما رواه عنـــه البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه « اذا سمعتم الاقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولا تسرعوا ، فما ادركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا »

كما امر سبحانه أن نترك كل سبب من اسباب المعاش ، وكل امر مادي من بيع وشراء ونقصد المساجد لنستمع إلى خطبة الجمعة ، ولا شك ان ذلك خير لنا ، لان خطبة الجمعة تشمل الترغيب والترهيب ، وتشمل التوجيه السليم ، وتحمل الينا الروح السامية ، وتعبئنا بطاقات لاتنفذ ، تبعدنا عن الشر وتقربنا من الخير ، واذا لم نستمع نحن الى مثل هذه التعاليم والمواعظ ربما انزلقنا في مهاوي المـادة ، فلم نعرف حلالها من حرامها ، فاذا انهيت الصلاة فلا مانع من العودة الى الحيـاة

اليومية ، من طلب للرزق ، وعيادة للمريض و ... ولكن على كل حال علينا أن لاننسى ذكر الله في بيعنا وشرائنا ، ودراستنا ، ووظيفتنا ، فذكره ونذكر جنته وناره ، ونذكر حلاله وحرامه ، فنقف عند حدوده فلا نتعداها ، وهذا هو التوازن الحق ، التوازن بين المادة والمثل ، طلب للرزق ولكن من طريق يرضى الله ، وبيع وشراء ولكن ضمن حدود الله ، ولكن الدنيا أخاذة ، وزخارفها مغرية ، فلا بد من فترة انقطاع عن الدنيا بيعها وشرائها ، زخارفها وزينتها ، والانقطاع إلى الله للتزود بالزاد ، وتعبئة الشحنة الروحية لتمنع من الانحراف « فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » ولذلك كان عراك بن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني اجبت دعوتك وصليت فريضتك ، وانتشرت كما امرتني ، فارزقني فأنت خير الرازقين ـ نقله ابن كثير عن ابن ابي حاتم ـ

والآيات الكريمة إذ تأتي لنا بهذه المقدمة عن صلاة الجمعة وفضلها ووجوب ترك حطام الدنيا والسعي إليها لتخلص إلى تعليم المؤمنين كيف يتأدبون مع رسول الله ﷺ ويؤثرون هدية على تجارتهم ولهوهم ـ

وكأني بالسورة الكريمة تسير حسب المخطط التالي : ان الله من على العرب بأن ارسل الرسول منهم وكان اليهود يتمنون أن يكون النبي يهودياً ، ولكن الله اكرم العرب برسوله فيجب عليهم أن يلتفوا حوله ، ويأخذوا بتعاليمه الحقة ، فما بالهم إذا سمعوا جلبة التجارة في المدينة يتركونك قائماً على المنبر تخطب خطبة الجمعة ، ويؤمون التجارة والمال مع أن ثواب الله خير من التجارة ، انهم يفكرون بزاد الدنيا ، والدنيا الى زوال ، ولا يفكرون بزاد الآخرة ، والآخرة باقية ! ان الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء ، اتخافون الجوع ؟ أم تخافون الفقر ؟ ، والجوع والفقر بيد الله سبحانه ، والعطاء والرزق بيده ، وهل يعقل أن يمنحكم الرزق إذا اعرضتم عنه الا ما كان من قبيل الاستدراج ، كما يرزق الكافر ويعطي العاصي

ليأخذهم بعد ذلك اخذاً قوياً ويحاسبهم حساباً عسيراً .

قال النسفي : وكانوا اذا اقبلت العير ـ عير التجـــارة ـ استقبلوها بالطبل والتصفيق فهو المراد باللهو في قوله تعـــالى « واذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ...»

وبعد : فان هذه السورة تحمل العرب قبل غيرهم من الأمـــم والشعوب مسئولية الحفاظ على شرع الله ، وتبليغه للناس ، وما على العرب اليوم الا أن يعرفوا مـــكانهم تحت الشمس ، ويشعروا بمسئوليتهم أمام الله تعالى، وينطلقوا حاملين لواء الاســـلام ، فانه عزهم وفخـارهم ، ومهما ابتغوا العزة بغـــيره أذلهم الله .

فقه السورة :

١ ـ اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله :

هل المراد بالنداء هنا : الأذان الأول أم الأذان الثاني ؟:

ان من المقرر أن رسول الله ﷺ كان له مؤذن واحد وكان أذان الجمعة في زمنه أذاناً واحداً فكان اذا جلس على المنبر اذن المؤذن على باب الجامع واذا نزل من على المنبر أقام الصلاة وكان هذا الأذان كافياً لابلاغ الناس لقرب بيوتهم من المسجد ولحرصهم على الحضور إلى الجامع قبل الوقت . ولكن لما انتشر الناس زاد عثمان أذاناً آخر فكان الأذان الأول يرفع على داره التي تسمى « الزوراء » وكان الأذان الثاني يرفع عندما يجلس على المنبر . وبناء على هذا نجد طائفة من الفقهاء ترى أن الأذان الذي يجب أن يسعي فيه إلى الصلاة هو الأذان الاول ، لأن الأذان هو التبليغ ، والتبليغ يحصل به ولأن الناس ان كانوا سيسمون الى الجمعة عند الأذان الثاني لفاتهم شيء من الخطبة .

أما الطائفة الأخرى من الفقهاء فيرون ان الأذان الذي يجب أن يسعى

عند سماعه هو الأذان الثاني لأنه هو المعمول بـــه في زمن الرسول ﷺ وأما الأذان الأول فقد زاده عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أقول ثم تبدل اليوم الأول على غير ما كان في زمن الرسول ﷺ وفي زمن عثمان رضي الله عنه ، اذ أصبح الأذان اليوم أذانين ، الأول في المنارة ـ على ظهر المسجد ـ والثاني بين يدي الامام ، أى ان الناس قد ابقوا على الأذان الذي كان يؤذن في عهد الرسول ﷺ على ظهر المسجد ، ونقلوا الأذان الذي زاده عثمان رضي الله عنه الى بين يدي الامام .

وبناء على ذلك فاننا نرى أن الذي يوافق السنة هو السعي الى صلاة الجمعة عند سماع الأذان الأول الذي يؤذن في المنارة ـ على ظهر المسجد ـ لأنه هو الذي كان موجوداً في عهد النبي ﷺ .

٢ ـ فاسعوا الى ذكر الله : لنتأمل كلـــة « فاسعوا » أنها أمر ، والأمر يقتضي الوجوب واذا كان المقصود من « ذكر الله » في الاية صلاة الجمعة نفسها كانت صلاة الجمعة فرضاً .

واذا كان المقصود من « ذكر الله » في الاية الخطبة ، كانت صلاة الجمعـــة ايضاً فرضاً لأن الخطبة شرط لصحة صلاة الجمعة ، وعلى كلا الحالين فان الأمر « فاسعوا » يدل على فرضية صلاة الجمعة .

٣ ـ وذروا البيع : المراد من البيع المعاملة مجازاً ، وقـــد قال بعض العلماء أن الأمر « ذروا » في هذه الآية للوجوب ، وعلى هـــذا فان التعامل وقت صلاة الجمعة حرام ، ولكن قال البعض الآخر : ان التعامل وقت صلاة الجمعة ليس حراماً ولكنه مكروه تحريماً ، وهو أمر يجب أن ينبه اليه المسلمون اليوم ، وان هذا التحريم يستمر من وقت الأذان على الخلاف الذي ذكرناه في قوله تعـالى « فاسعوا إلى ذكر الله » أو ان هـــذا التحريم يستمر من الأذان الأول ـ على ما رجحناه ـ إلى انتهاء صلاة الجمعة .

٤ ـ وتركوك قائماً : ان هذه الآية تدل على مشروعية القيام اثناء الخطبة وقد ثبت في السنة ان الرسول ﷺ ما خطب إلا قائماً ، ويروى أن أول من خطب جالساً معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه وذلك عندما عجز عن القيام .

اما حكم القيام عند الشافعية فهو شرط من شروط صحة الخطبة ودليلهم ما ورد في الآية الكريمة « وتركوك قائماً » وهي تشير الى ذلك إشارة ، وبما ورد من سيرة الرسول والخلفاء الراشدين انهم كانوا لايخطبون الا قياماً.

وقال الحنفية : هو سنة : لأنه لم يثبت ان الرسول ﷺ أمر بذلك صراحة ، والفروض لاتثبت عندهم الا بما هو قطعي الدلالة .

سورة لقمان

نزلت بمكة إلا الآيات ٢٧ ـ ٢٨ ـ ٢٩ فنزلت بالمدينة

بعد سورة الصافات

النص: ١ ـ الٓمٓ ، تِلكَ آياتُ الكتابِ الحكيم ، هُدىً ورحمةً للمحسنين ، الذين يُقيمونَ الصلاةَ ويُؤْتون الزكاةَ وهُمْ بالآخرةِ هُمْ يُوقنون ، اولئكَ على هُدىً مِنْ ربِهِم وأولئك هم المُفْلِحون .

ب ـ ومِنَ النّاسِ من يَشْتَرى لَهْوَ الحديثِ ليُضِلَّ عن سبيلِ الله بغيرِ علْمٍ ويَتخِذَها هُزُواً أولئك لهم عَذابٌ مُهين ، واذا تتلى عليه آياتُنا ولّى مُستكْبِراً كأن لم يَسمَعْها كأنَّ في أُذُنيه وقراً فبَشّرْه بعذابٍ اليم .

جـ ـ إنَّ الذين آمنوا وعَملوا الصالحاتِ لهُمْ جناتُ النَّعيم ، خالِدين فيها وَعْدَ الله حقّاً وهو العزيزُ الحكيم.

د ـ خَلَقَ السَّموات بغَيْر عَمَدٍ تَرونها وأَلْقى في الأرض رواسِيَ أن تَميدَ بكم وبَثَّ فيها مِنْ كل دابَّة وانزَلْنا من السماء ماءً فأنبَتْنا فيها من كل زَوجٍ كريم ، هذا خَلْقُ الله فأرُوني ماذا خَلَقَ الذين مِنْ دونه بل الظالمونَ في ضَلال مُبين.

٢ـ ولقد آتَيْنا لُقْمانَ الحكمةَ أنْ اشكُرْ لله ، ومَنْ يَشكُرْ فانما يَشكُرُ لنَفْسه ومن كَفَرَ فان الله غَنيٌّ حَميدٌ ، وإذ قال لُقْمانُ لابْنه وهو يعظُه يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ بالله إن الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ ، ووصَّينا الانسانَ بوالدَيه حملتْه أمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وفِصالُه في عامَين أنِ اشكُرْ لي ولوالدَيْكَ إليَّ المَصيرُ ، وإنْ جاهَداكَ على أنْ تُشرِكَ بي ما لَيْسَ لك به علْمٌ فلا تُطِعْهما وصاحِبْهُما في الدُّنيا مَعروفاً واتَّبِعْ سبيلَ من أنابَ إليَّ ثم إليَّ مَرْجِعُكم فأُنَبِّئُكم بما كنتم تَعْمَلُون . يا بُنيَّ إنَّها إنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ من خَرْدَلٍ فتكن في صَخْرةٍ أو في السموات أو في الارض يَأْتِ بها الله إن اللهَ لطيفٌ خبيرٌ ، يا بُنيَّ أقِمِ الصَّلاةَ وأمُرْ بالمَعْروف وانْهَ عن المنكر واصبِرْ على ما أصابَكَ إن ذلكَ مِنْ عَزْمِ الأُمور ، ولا تُصَعِّرْ خدَّكَ للنَّاس ولا تَمْشِ في الأرْضِ مَرَحاً إن اللهَ لا يُحبُّ كل

مُخْتالٍ فَخورٍ ، واقْصِدْ في مَشْيِك واغْضُضْ من صَوتِك إن أنْكرَ الأصْواتِ لَصَوتُ الحميرِ .

٣ـ ا ـ أَلَم تَرَوْا أن الله سَخَّرَ لكم ما في السماوات وما في الارضِ واسْبَغَ عليكم نِعَمَه ظاهِرَةً وباطِنَةً ، ومن الناسِ من يُجادِلُ في اللهِ بغيرِ علْمٍ ولا هُدىً ولا كتابٍ مُنيرٍ ، وإذا قيلَ لهم اتَّبِعوا ما أنزَلَ اللهُ قالوا بل نَتَّبِعُ ما وجَدْنا عليه آباءَنا أو لو كان الشيْطانُ يَدْعوهم إلى عذابِ السَّعيرِ .

ب ـ ومن يُسْلِمْ وَجْهَه إلى الله وهو مُحسِنٌ فقد استَمسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقى وإلى الله عاقِبَةُ الامُورِ ، ومن كَفَرَ فلا يَحزُنْك كُفْرُه الينا مَرْجِعُهم جميعاً فنُنَبِّئُهم بما عَمِلوا ان الله عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ ، نُمَتِّعُهم قليلاً ثم نَضْطَرُّهم الى عذابٍ غليظٍ .

جـ ـ ولئن سألْتَهم من خَلَقَ السَّمواتِ والارضَ لَيَقولُنَّ اللهُ قلِ الحمدُ لله بل اكثَرُهم لايعلمون ؛ لله ما في السماواتِ والارضِ ان الله هو الغَنيُّ الحميدُ .

د ـ ولو أن ما في الارضِ من شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّه مِنْ

بعده سبعة أبحرٍ ما نفدت كلمات الله إن الله عزيزٌ حكيم، ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفسٍ واحدةٍ إن الله سميعٌ بصيرٌ.

هـ - ألم تر أنّ الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ؟ وسخّر الشمس والقمر كل يجرى الى اجلٍ مسمّى وأن الله بما تعملون خبير، ذلك بأنّ الله هو الحقّ وأنّ مايدعون من دونه الباطلُ وانّ الله هو العليّ الكبيرُ.

و - ألم تر أنّ الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته، إن في ذلك لآياتٍ لكل صبارٍ شكورٍ، واذا غشيهم موجٌ كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجّاهم الى البرّ فمنهم مقتصدٌ، وما يجحد بآياتنا الا كلّ ختّارٍ كفورٍ.

ز - يا أيها الناسُ اتقوا ربّكم واخشوا يوماً لايجزي والدٌ عن ولده ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً انّ وعد الله حقٌ فلا تغرّنكم الحياةُ الدنيا ولا يغرّنّكم بالله الغرورُ.

ح - انّ الله عنده علمُ الساعة ويُنزّلُ الغيثَ ويعلمُ ما في

الارْحامِ ، وما تَدْري نفْسٌ ماذا تكْسِبُ غداً وما تَدْري نفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تَموتُ ، انَّ الله عليمٌ خبيرٌ .

تفسير الكلمات: ألم : حروف مقطعة أراد بها الرب سبحانه تحدي العرب على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ـ يوقنون : يؤمنون ايماناً عميقاً ـ المفلحون : الذين عملوا الفلاح اي الأعمال الخيرة ـ لهو الحديث : اللهو هو الباطل ، ولهو الحديث هو كالسمر بالأساطير التي لا أصل لها ، وكالغناء ... ـ يضل عن سبيل الله : اي ليصد عن سبيل الله ـ هزواً : استهزاءً ـ ولى مستكبراً : اعرض عن تدبرها متكبراً معتقداً انه اعلى من أن يصغى إلى القرآن ـ وقر : ثقل ـ عمد : جمع عماد وهو ما يسند به ـ رواسي : جبال ثابتة ـ تميد : تضطرب ـ بث : نشر ، وزع ـ دابة : كل ما يدب على الأرض من انسان وحيوان ـ مبين : ظاهر ـ لقمان : هو نبي من انبياء الله المذكورين في القرآن وهو لقمان بن باعوراء ـ حميد : حقيق بأن يحمده الخلق ـ وهناً : ضعفاً ـ وفصاله : فطامه عن الرضاع ـ وإن جاهداك : وان الحا في الطلب منك ـ أناب : رجع ، واناب الى الله يعني انه رجع إلى الله يأتمر بأمره ـ مثقال حبة من خردل : حبة صغيرة جداً من خردل ـ عزم الأمور : أى أمر مقطوع به وهو من التعبير بالمصدر عن اسم المفعول وأصل الكلام انه أمر معزوم أى مقطوع به ـ ولا تصعر خدك للناس : وهو من الصعر وهو داء يصيب الابل يلوى منه عنقه ، والمراد بها هنا ولا تتكبر ـ مختال : متكبر ـ اقصد : توسط ـ اسبغ : اتم ـ السعير : من سعر النار اذا اشعلها ـ العروة الوثقى : العروة ما يعلق به الشيء والمراد بها هنا المبادىء القويمة ـ الحميد : المستحق للحمد ـ بعثكم : اعادة الحياة اليكم من اجل الحساب وذلك يوم القيامة ـ يولج : يدخل ـ إلى اجل مسمى : إلى وقت معلوم ـ الفلك : السفن ـ الظلل : جمع ظلة وهي كل ما اظلك من جبل أو سحاب أو غيره ـ مقتصد : المتوسط في العمل يقال فلان مقتصد في النفقة أي متوسط في النفقة ـ ختار : غدار والختر

أقبح العذر ، لايجزي : لا يقضي عنه شيئاً ـ الغرور : المراد به هنا الشيطان أو المال أو الدنيا أو ... فانه يغر الانسان ـ علم الساعة : أي وقت قيام الساعة ـ الغيث : الأمطار .

اسباب النزول: ١ ـ اشترى النضر بن الحارث جارية مغنية ليتخذها فتنة لكل من يريد الاسلام فكان إذا سمع ان أحداً يريد الاسلام انطلق إليه وصحبه إلى قينته وقال لها اطعميه واسقيه وغنيه ، ويلتفت إليه فيقول له: هذا خير مما يدعوك اليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقال بين يديه فأنزل الله قوله « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ... الآية

٢ ـ روى الطبراني ان سعد بن مالك قال انزلت فيّ هذه الآية « وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها ...» قال كنت رجلاً براً بأمي فلما اسلمت قالت يا سعد ما هذا الذي أراك احدثت ، لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال يا قاتل أمه ، فقلت لاتفعلي يا أمه فاني لا أدع ديني هذا لشيء ، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً آخر وليلة فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلة أخرى لاتأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ماتركت ديني لشيء فان شئت فكلي وان شئت لا تأكلي ، فأكلت .

٣ ـ عندما اسلم أبو بكر الصديق أتاه عبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن ابي وقاص ، وسعيد بن زيد ، وعثمان ، وطلحه ، والزبير ، فقالوا لأبي بكر رضي الله عنه : آمنت وصدقت محمداً ؟ فقال أبو بكر : نعم ، فأتوا رسول الله ﷺ فآمنوا وصدقوا ، فأنزل الله تعالى يقول لسعد « واتبع سبيل من أناب إلي » يعني أبا بكر الصديق .

٤ ـ أخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم قال : نزلت بمكة « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » فلما هاجر الرسول الى المدينة أتاه أحبار يهود فقالوا: ألم يبلغنا عنك انك

تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا إيانا تريد أم قومك ؟ فقال كلاً عينت ، قالوا : فأنك تتلو افاقد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء ، فقال رسول الله ﷺ هي في علم الله قليل ، فانزل الله قوله « ولو أن ما في الارض من شجرة أقـــلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم»

٥ ـ واتاه ﷺ رجل من البادية فقال : ان امرأتي حبلى فأخبرني بما تلد ؟ وبلادنا مجدبة فاخبرني متى ينزل الغيث ؟ وقد علمت متى ولدتُ فأخبرني متى أموت ، فأنزل الله « ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام،وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت ».

من روح السورة : افتتحت السورة بالأحرف المقطعة تحدياً للعرب ، وللاشارة الى ان هذه السورة بل والقرآن الكريم مؤلف من هذه الأحرف فليأتوا بمثله إن استطاعوا ... انها آيات القرآن الحكيم ، وكيف لايكون حكيماً وهو صادر عن الله الحكيم ، انه يهدي المؤمنين الى العقيدة الصحيحة ، والشرع القويم ، ويغرس في قلوبهم الرحمة ، إن هذه الرحمة لاتكون الا للمؤمنين المتبعين لرسول الله الذين حسنت أعمالهم ، ولكن من هم هؤلاء ؟

انهم الذين يؤدون صلاتهم كاملة بركوعها وسجودها واطمئنانها وخشوعها في وقتها فيسمون بأرواحهم ، ويمثلون بين يدي الله كما أمر الله ،والذين يتغلبون على نفوسهم فيسحقون شحها وجشعها ، ويؤثرون مصلحة الجماعة على مصالحهم الذاتية فيؤدون الزكاة ، فيعدون العدة لليوم الآخرة الذي يحاسب فيه الناس ويوفون اعمالهم ، ان هؤلاء هم المحسنون اللذين احسنوا لانفسهم قبل ان يحسنوا لغيرهم قد اهتدوا الى الطريقة المثلى لمعالجة النفس البشرية وسلوكها ومن اهتدى إلى ذلك فهو من المفلحين .

ثم انتقل القرآن الكريم الى رسم الصورة المقابلة لهؤلاء المحسنين،صورة لحال الاشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله واقبلوا على اســـتماع

المزامير والغناء الفاحش ، وآلات الطرب ، والأساطير التي لايقوم أي دليل على صحتها .

ان هذا الصنف من الناس الذي يشتري بماله وصحته ووقته الاساطير والمغنيات وما شابهها ، من اجل ابشع غاية يتصورها العقل البشري ، غاية ابعاد الناس عن كلام الله كي لايسمعوه ، وهو لايكتفي بتلك الجريمة الشائنة بل يتحكم فيه الجهل والغواية ، حتى يصل به الامر أن يستهزيء بسبيل الله ، ومنهج الدعوة إلى الله ، وأية جريمة اكبر من الصد عن سبيل الله ، والاستهزاء بمنهجه ،وماجزاء هؤلاء إلا العذاب العظيم المشعر بالمهانة ، والمعبر عن الاحتقار .

ثم إن القرآن يصف لنا ذلك المجرم وصفاً يظهر منه الغطرسة والغرور، فانه ما ان تتلى عليه آيات الله ، حتى يعرض عنها في زهو واستعلاء ، وقد تصامم وما به من صمم ، كأنه ما سمعها ، لانه يتأذى بسماعها ، اذ لا انتفاع له بها ولا أرب ، ويهزأ القرآن اشد الهزء بهذا المغتر ، عندما يقول « فبشره بعذاب أليم » لان البشارة لاتكون الا بأمر خير ، وقد استعمل القرآن لفظ البشارة تهكماً على هؤلاء المغترين المستكبرين .

وبعد أن ذكر القرآن هذه المقابلة التوضيحية بين المؤمنين المحسنين،وبين الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ، انتقل الي مصير الاولين ، إلى اولئك الذين آمنوا بالله ايماناً صادقاً ينفي عنه الشرك ، ويثبت له القدرة والعلم والحكمة وجميع صفات الكمال التي تليق به سبحانه ، وآمنوا برسوله محمد ﷺ رسولاً من عند الله ، وآمنوا بالقرآن الكريم ، فهم يستمعون إليه ويتدبرونه ، ان هؤلاء الذين آمنوا هذا الايمان ودعموا ايمانهم بالعمل بما يقتضيه ، لايلتجئون لغير الله ، ولا يطلبون ما لا يطلب الا منه من غيره ، وحكموا رسول الله في كل أمورهم ، حتي كان رسول الله أولى بهم من أنفسهم ،وعملوا بالقرآن جملة ، فهم لايؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، إن هؤلاء لهم جنات

واسعة ينعمون بها ، أبداً ، حياة بلا موت ، وخلود بلا فناء ، ونعيم بلا كدر ولذه بلا ألم ... انها جنات الله التي اعـــدت للمؤمنين العاملين ، وما ذلك على الله بعزيز ، وهو القادر على تنفيذ ما وعد به ، الحكيم الذي يضع الأمـــور في مواضعها ، وهؤلاء المؤمنون اتعبوا النفس، وسهروا الليل ،وجاعوا في النهار إرضاء لله ، فمن الحكمة أن توفي لهم اجورهم .

عجباً لهذا الانسان كيف لا يؤمن ، وكل ما يقع تحت حسه يوجب عليه الايمان ، فلو نظرت إلى السماء ترى فيها العجب العجـــاب ، وسواء كانت السماء تلك الكواكب الضخمة التي تسبح وتسبح في مداراتها الخاصة لاتخرج عنها ، والتي لا تسقط مع أنها خالية عن كل عامل من عوامل الارتكاز ، من عمد وغيرها، أو كانت السماء تلك القبة الزرقاء التي لا يعلم كنهها الا الله ، فانهـــا تبعث العقل على التفكير في أمرها .

وإذا نظرت إلى الأرض أيضاً لرأيت العجب العجاب ... هذه الجبال... ويقول علماء طبقات الارض أن الجبال تشكلت نتيجة برود القشرة الارضية، وهي عبارة عن تجمدات ، وكيفما كان الامر فان هذه الجبال تحفظ توازن الارض حين دورانها ، فان هذه الجبال تعادل تلك الأوديـــة ، ونظرة أخرى إلى الارض تدلك إلى أن أنواع الحيوانات بلغ الآلاف المؤلفـــة ، اختلفت في فصائلها وحجومها وصفاتها .

ونظرة ثالثة إلى النباتات تغرس الايمان جبراً عن الناظر شاء أم أبى ، ان البذرة تلقي في الارض فتنزل الأمطار ، وتنبت هذه البذرة ، ثم تغدو شجـرة تؤتينا الفاكهة ، وإن طعم الفاكهة ليس كطعم الماء ، وليس كطعم التراب ،فما هو هذا الانقلاب الغريب ، ثم إن هذه النباتات منها ما هو الذكر ومنها ما هو الانثى ، ويجرى اللقاح بينها كما يجري بين الحيوانات ... انه لخلق كريم فعلاً صادر عن آله كريم ...

أيها القلب : كيف لاتخر ساجداً لله بعد بيان الحقيقة ، وأيتها الجوارح كيف تجرأين على مخالفة الله وزمامك بيده ... قتل الانسان ما اكفر ، رغم ان قدرة الله بادية في كل شيء ، فهو يلجأ الى تأليه اشياء لاتملك لنفسها ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عن عدم مقدرتهم أن يخلقوا اتفه الاشياء ، ولكن الكافرين عدموا عقولهم عندما آمنوا بغير الله ، وظلموا انفسهم لان الله أقام لهم الحجة وألزمهم أياها فأبوا الا كفوراً ، فضلوا وضلالهم ظاهر واضح لكل ذى عقل .

٢ ـ كان لقمان رجلاً حكيماً ـ وقيل كان نبياً وهو غير صحيح ـ والحكمة التي اعطاها الله سبحانه للقمان كانت شكر الله سبحانه وطاعته ، ولا شك أن هذا رأس كل حكمة ، وأية حكمة اكبر من أن يتبع الانسان ما ينجيه في الآخرة والله سبحانه غني عن شكر الشاكر ، فالشاكر يعمل أولاً وآخراً من أجل مصلحة نفسه ، لأن الله غني عن حمد الحامدين وعبادة العابدين ، وأن هؤلاء لايقدمون ذلك الا لخير أنفسهم ، لأن هذه التكاليف أجمعها ابتلاء للناس والله غني عنها .

وبناء على ذلك وتمشياً مع الجو العام في السورة ـ جو التوحيد ـ ينفح لقمان الحكيم الوصية المخلصة لابنه ، وهي وصية والد لولده ، فيها اخلاص الأب وخوفه على مستقبل ابنه ، يقول له « لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » وقد رأينا عقاب الكفر بالله والدلائل على وجود الله ووحدانيته ، أو ليس من الظلم للعقل أن يقهر على الاعتقاد بما يخالف الفطرة وتقوم الادلة على بطلانه ، من شرك لله وعبادة لغيره ، أو ليس ظلماً للنفس وللجسم أن يسوقها الانسان الى العذاب الاليم بسبب ما يقحم فيها من هذا الاعتقاد الفاسد .

وبعد أن ذكرت الآيات وصية الوالد لولده وهو أمر طبيعي ، يدفع اليه حنو الاب ، تعرضت الآيات الى وصية الولد بوالديه لان الوالدين هما سبب وجود

الولد بعد الله تعالى ، فهذه الأم حملت طفلها في بطنها تسعة اشهر ، وضعفها يتزايد بتزايد صحة الجنين ، فما أن يخرج بين فرحة الأم وآلام الولادة ، حتى يعكف على ثديها يتغذي بخلاصة غذائها ، ويبقى على هذه الحالة مدة سنتين ، وهي تبذل ما تبذل بكل فرح وكل سرور ، والاب يتحمل المشاق يوفر النفقة للولد ووالدته، فهما اذن يستحقان شكر الوليد ، وهذا الشكر للوالدين سيلقاه الطفل يوم القيامة بين حسناته التي تشفع له عند الله سبحانه .

اذن على الولد أن يطيع والديه ، ولكن فيما يرضى الله سبحانه ، وتبقى مع هذا صلة العقيدة فوق كل صلة ، وأمر الله فوق كل أمر ، حتى اذا طلبا منه المعصية من شرك بالله أو كفر أو أرتكاب محرم ، أعرض في غير جفاء، واحجم في غير غلظة ، واعتذر بالحسنى ، وبقي مقيماً على المعاملة الحسنة لهما ، والانفاق عليها ، لما لهما عليه من حق التربية والرعاية وان كانا هما في واد من أودية الكفر ، وهو في وادي الايمان ، وقد أمره الله ان يبقى على ايمانه ، ويلزم سبيل المؤمنين ، ويعتصم بها ، ويقدم لهما الخير والمعروف ، وعندالله تعرض عليه أعماله ويكون الاحسان الى والديه ولو كانا كافرين من جملة الاعمال الخيرة التي قام بها في هذه الدنيا .

ويتابع لقمان الحكيم وصيته لابنه وتتفجر ينابيع الحكمة من قبله فيقول له: يابني إن يوم الحساب حق ، وهو يوم شامل لكل المخلوقات لايستثني منه أحد ، تصور أن الجريمة لو كانت كحبة من خردل ، كم هي صغيرة ؟ فانها إذا اختلطت على صغر حجمها بين كواكب السماء العظيمة الحجم ، بل انها لو ذهبت مختفية في هذا الجرم العظيم ـ السماء ـ المتناهي الاتساع ، التي تبدو الكواكب العظيمة نقطة فيه ، لو اختفت في هذا الاتساع الكبير ، لأتي بها الله سبحانه يوم القيامة وحاسب بها فاعلها ، او كانت مختلطة بين تراب الارض واحجارها، لاستخرجها الله وحاسب بها فاعلها ، فتصور يابني كم أن الله لطيف يتوصل بعلمه لكل خفي ،

خبير بما خفى ودق ، ان هذا يابني عدل الله وميزانه الذي لايغـــادر صغيرة ولا كبيرة «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئـــاً » « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ».

ويتابع لقمان وصيته لابنه بعد أن غرس في نفسه الايمان بيوم الحساب والجزاء، وان اعمال الانسان سيحاسب عليها وان صغرت ،فينتقل بـــه إلى العمل : من صلاة ودعوة الى الله .

ونحن نلاحظ في هذا الركن العملي ترتيباً حكيماً ،إذ قدم الصـــلاة على الدعوة الى الله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا لم يكن جزافـــاً ، إن أول ما أوصى به لقمان ابنه من العمل الصلاة ، لان الصلاة هي التي تزوده بالزاد الروحي الذي يجعله مسموع الكلام ، مجاب الدعوة ، وهو الذي يغرس في نفسه الصبر على الشدائد ، والتفاني في الحق ونشره ، وبعد أن يحمل معه هذا الزاد ، ينتقل الى مرحلة أخرى هي الدعوة الى الله ، وتقويم ما اعوج من عقيدة الافراد والامة ، وأعمال الافراد والامة ، يقوم ما اعوج باللين والاقناع ، انه أمر بالمعروف، وطريق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر طريق شاق طويل ، لا بد أن يلقي فيه الداعية المصاعب ، وينهال عليه الاذى ، فيتصدى له أصحاب النفوس المريضـــة ، والقلوب العفنة بالاذى والشر ، فما عليه الا الصبر ، وعقد العزم على متـابعة الخطوة ، وعدم الرجوع الى الوراء ، لان المضي في الاصلاح أمر حتمه الله على عباده .

وعليك يابني حين تقوم بالدعوة الى الله ان تتصف باخلاق الداعية ، فلا تتكبر على الناس ، فتعرض عنهم اذا كلموك ، ولا تمشي مشية خيلاء وفخر معجباً بنفسك ، بل عليك أن تختلط بالناس ، وتأنس بهم ، وتؤنسهم بنفسك ، فان الله لايحب كل متعال، وانك ان حاولت أن تتكبر ، فانك ستبقى انساناً ليس اكثر ، بطوله وعرضه وقدرته المحـــدودة ، فلن يزداد طولك فتطـــاول الجبال ولن

تزداد قوتك فتخسف الأرض ، وانما أنت ... أنت الانسان العاجز المحدود ...

وليس معنى ذلك أن يمشي الانسان منحني الرأس مقوس الظهر ؟فقد ذكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدد فيه فقال « ان الله لايحب كل مختال فخور » فقال رجل من القوم : والله يارسول الله اني أغسل ثيابي فيعجبني بياضها، ويعجبني شراك نعلي ، وعلاقة سوطي ، فقال « ليس ذلك الكبر انما الكبر ان تسفه الحق وتغمط الناس » فالمشية اذن لها اثرها الكبير ، مشية المسلم الداعي خاصة ليست مشية كبر ، فلا هي سريعة ولا بطيئة وانما هي مشية رزينة مقتصدة، وكلام الداعي كلام موزون ، لايكثر الكلام حتى يكون ثرثاراً ، ولا يرفع صوته يشمئزمنه الناس ، ولا ينفخ في الكلام نفخاً وانما هو كلام قليل مفيد بصوت هادىء وقور موحي .

٣ ـ والناظر الى هذا الكون الفسيح يجد كل شيء فيه ينطق بوجود الخالق سبحانه، وقد تكرر عرض هذا المعنى مرات كثيرة في القرآن الكريم،وفي هذه الآيات يعرضه الله سبحانه بالاشتراك مع مصالح الانسان، فهو يشير الى الكون ولكنه يشير على أنه مخلوق لخدمة الانسان ومسخر له.

وهكذا فان الله قد أتم نعمه على هذا الانسان ، وهذه النعم قد يشعر بها الانسان وقد لايشعر ، فهو يشعر بنعمة السمع والبصر و ... ولكنه كان لايشعر بنعمه بعد الشمس عن الارض بعداً محدداً .... وهو لايشعر بكثير من النعم التي اتمها الله عليه ، ومع كل هذا فان بعض الناس يجادل في وجود الله ،ولاشك أن هذا الجدال يبدو غريباً كل الغرابة في ظل هذا الكون العظيم . ان هذا الجدال بل هذا الانكار لوجود الخالق هو انحراف بالفطرة ، وتعطيل للعقل ، وصمم عن نداء الضمير ، وخيانة للأمانة التي حملها الانسان ، واذا سألت هؤلاء عن الدليل الذي يستندون اليه لقلبوا شفاههم ، وعقد على ألسنتهم ، وبدا جهلهم ، وتأكدلنا

سفههم وحطة عقولهم . هذا في زمننا هذا ، أما في الزمن القديم فربما كان لهم بعض الحجة حيث يقولون اننا نتبع آباءنا ، ولكنها حجة واهية ، لانها مبنية على اساس التقليد الجامد الذي يسمى الاسلام لاطلاق العقل الانساني من قيوده ، ليفكر بكل حرية ، فيصل الى العقيدة الصحيحة التي يقرهـا العقل السليم ، وما دعوى هؤلاء بأنهم يريدون اتباع آبائهم ، الا اتباع للشيطان الذي لا يقودهم إلا الى جهنم .

أما المؤمن الذين يستجيب لدعوة الله التي يقرها العقل السليم ، فيعمل بما تقتضيه من أعمال حسنة ، ويلقي قياده إلى شريعة الله ، فقد ألقى قياده إلى قائد موثوق ومرشد مجرب ، ووصل نفسه بهدف مشدود الى الله ، لا ينفصل ولا يقطع ، ولا يعتريه الوهن او الضعف ، وعلى كل حال فان هـذا المؤمن وذاك الكافر سيأول امرهم الى الله ، وهو الذي يقرر الثواب والعقاب ، ولاشك بان الثواب سيكون لمن آمن به والعقاب لمن كفر ، ولذلك فـلا تحزن على هؤلاء الجاحدين المكذبين ، فان أمرهم اهون من أن يعتريك الحزن من اجلهم ، فان مآلهم إلى الله بعد أن يمد لهم في هذه الدنيا ، ولكن هذه الدنيا فانية والباقي هو الآخرة ، حيث يعرضون على الله فيخبرهم بأعمـالهم فتسود وجوههم من ذلك ويندمون ، ولكن حيث لا ينفع ندم ، ثم يؤمر بهم فيساقون الى جهنم حيث العذاب الشديد ، كما قال تعالى « ان الذين كفروا يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع في الدنيا ثم الينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون».

عجباً لهؤلاء القوم كيف يناقضون فطرهم وعقولهم ، إذا ناقشت أحدهم وقلت له من الذي خلق هذه السموات والارض بنجومها وأقمارها وأشجارها وحيوانها ، لأجابك : الله ، ومع هذا فانهم يعبدون مع الله اشيـاء أخرى ، من احجار وأصنام و .... ألم يعلموا أن ذلك يلزمهم أن ينبـذوا من قلوبهم غير الله ؟

الحمد لله ... قد قامت الحجة عليهم ، وثبت للجميع أن الله هو مالك كل شيء ، السماوات والارض وما فيهن ، وانه سبحانه جعلها مسخرة للانسان،فوجب على هذا الانسان أن يحمده وهو سبحانه غني عن حمد الحامدين.

هذا وإن عظمة الله وكبرياءه وجلاله لايحيط بها مخلوق . وعلمه كثير لايحد ، وكلامه تبعاً لذلك لاينفذ ، ولو أن جميع اشجار الارض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً ، وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ، والمعبرة عن علمه ، لتكسرت الأقلام ، ونفذ ماء البحر ولم ينفد علم الله ،ولو جاء بضعافها مدداً ، وانما ذكرت سبعة ابحر على وجه المبالغة ولم يرد بها الحصر ، وانما أريد بذلك : ولو امدت بحار الارض بحار اخرى كثيرة ، لما نفدت كلمات الله ، كما قال تعالى في آية اخرى « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » فليس المراد بقوله « بمثله » بحر آخر فقط ، بل المراد بمثله ثم بمثله ثم بمثله ثم هلم جراً ...

واذا كانت عظمة الله كذلك ، وقدرته بمثل هذا الذي وصفه لنا سبحانه، فانه يستوي عنده خلق واحد أو خلق ملايين ، وبعث الواحد وبعث الملايين ، لان سبحانه لايعتريه جهد ،وليس في حقه صعوبة انما هي كلمة المشيئة « كن » « انما أمره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون » بل وأقل من كلمة كن كما قال تعالى « وما أمرنا الا واحدة كلمح البصر » فكيف ينكر أولئك الجاحدون البعث والحساب ، وهو لايكلف الله شيئاً ، ولكن الله سميع لاقوالهم بأنه لا بعث بصير بأعمالهم الشائنة ، وسيجازيهم عليها بما يستحقون .

حقاً ان الله سبحانه سخر لنا ما في السماوات والارض ، واسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، ألم تر الليل يعقب النهار ، والنهار يعقب الليل ، فيطول هذا

فيأخذ من ذاك ، ويطول ذاك فيأخذ من هذا ، وقد سخر الشمس والقمر من اجل هذه الغاية ، من اجل تنظيم امر الليل والنهار ، ومنا يكون القرآن قد لفت الانظار الى تلك الحقيقة الفضائية الكبرى وهي ان حركة الليل والنهار تابعة الى الشمس والقمر والارض وجريانهم،ويستمر هذا الجريان الى ان يشاء الله... الى ان يختل نظام الكون وتنتثر الكواكب وينتهي العالم ويكون اليوم الآخر... إنها الآن تدور بانتظام ، لتؤدي وظيفتها خدمة لهذا الانسان الذي كرمه الله « ولقد كرمنا بني آدم » فالقمر يستمد نوره من الشمس ، ويدور حول الارض ليحدث بأمر الله الليل والنهار ، فيتمتع الانسان بهما ، ويطول النهار ويقصر،ويطول الليل ويقصر تبعاً لنظام تلك المجموعة الشمسيه وكذلك « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل » اي يأخذ هذا عندما يطول من ذاك ، ويعطي هذا عندما يقصر الى ذاك ، والله يعلم ذلك، وهو الذي قدره سبحانه ،فكيف لا يعلم افعال العباد وان اخفوها !!

ان هذا التنظيم الدقيق إن دل على شيء فانما يدل على ان الله ـ وهو المنظم لها ـ هو الاله الحق وان ما يعبدون غيره من أوثان هي آلهة مزيفة ، فلا ملجأ إلا إليه ، ولا دعاء إلا له ، ولا طلب إلا منه سبحانه ، وكل من يلجأ اليه من غير الله وكل من يطلب منه من غير الله ، لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، والله وحده هو العلي الذي لا يعلو عليه شيء ، والكبير الذي لا يكبره شيء.

تلك حقيقة لا يلمسها إلا القلب المؤمن والنفس المطمئنة ، اما من ضرب الران على قلبه فيرى ان القوة قد تكون للعبد ، والملجأ قد يكون إلى العبد،ولذلك يتقرب من هذا تملقاً ورياء ، ويخدم هذا مداهنة وكذباً ، لقد ساء ما يفعل ان الله هو العلي الكبير ، ولكن « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم وان تخذلوه فمن ذا الذي ينصركم من بعده ».

حقاً ان الله اسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، ألم تر ان البواخر تمخر

عباب البحار ذاهبه جائية ، ولولا أن يجعل الله في الماء قوة الحمل لحرمنا تلك النعمة الكبري التي بواسطتها نؤمن كثيراً من مرافق حياتنا ، انها نعمة كبرى ولكن الناس لا يشعرون، الا ترى لو أن كثافة الماء قد اختلت أو اختل ضغط الهواء على سطح البحر أو .... فما هو مصير البواخر السائرة فيه ؟ او كيف يمكن ان تجري فيه البواخر ؟ ثم هي نعمة أيضاً ليعرفنا الله مخلوقاته البحرية التي لا يمكن معرفتها الا بركوب البحار .

اليست هذه آيات لكل مؤمن ، وقد ذكر هنا « صبار شكور » بدلاً من كلمة المؤمن لان هذه هي صفات المؤمن ، اذا أصابه خير شكر ، واذا أصابه بلاء صبر . وإن الايمان موجود في فطرة الانسان ، واكبر دليل على ذلك انه لو ركب قوم في سفينة فجرت بهم في البحر ، وبينما هم في وسط البحر اذ ثار عليهم البحر وقذفهم بموجة من كل جانب ، هنا نجد الأكف ترتفع الى السماء تطلب من الله النجاة ، وقد علمت أنه لا منجي لهم مما هم فيه الا الله ، لقد انقطع عنهم كل سبب من اسباب الارض ، فلم يبق لهم الا اللجوء الى الله ، فدعوا الله مخلصين فاستجاب الله لهم ونجاهم الى البر ، ولكن قسم منهم من يثبت على إيمانه ، فهو يعمل الصالحات بقدر ما يستطيع ، ومنهم من يقصر في جنب الله ويتسنى ما حدث له، وينسى ان الله هو الذي نجاه فيجحد نعمه ، وهذه صفاة الغدارين الآثمين ، الذين لا يعترفون بنعمة ولا يشكرون على فضل ، لقد انساهم الرخاء واجباتهم ، والهام البطر عن ذكر الله ، وكان من حقهم أن يعرفوا حق الله عليهم اذ نجاهم من اليم ... »

يا أيها الناس مالكم لا تبصرون ، ما لكم قد بهرتكم الدنيا بزخرفها ، وزينتها ، وغرورها ، لم استجبتم لنداء الشيطان فاتبعتموه ؟ انه يريد أن ينفذ الوعد الذي قطعه على نفسه أمام الله سبحانه عندما قال « لأقعدن لهم على صراطك المستقيم » بقصد الغواية ، هل انساكم الشيطان وأنستكم الدنيا ذلك اليوم الذي

تقديمون فيه على الله ، وقد ابتعدت عنكم دنياكم بمالهـــا وزينتها ، وابتعد عنكم أولادكم ووالديكم لانهم يطلبون النجاة لانفسهم قبل كل شيء « يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » ولا يحضر امامكم الا عملكم وهو يطالب بادانتكم وزجكم في جهنم لانكم نسيتم الله ولم تحسبوا حساب هـذا الموقف المريع الذي تقفونه بين يدي الله تعالى ، وهو موقف حق وعدل لتجزون بما كنتم تعملون .

وتنتهي السورة بنهاية رائعة حيث تقرر أن علم الانسان مهما امتد فهو قاصر ، وأن علم الله هو الكامل ، فمن يعلم متى ينتهي العالم وتقوم الساعة ؟ نعم ان الرسول ﷺ اخبرنا بأمارات تدل على اقتراب الساعة ولكنهـــا متي تقوم ؟

ومن يدري متي ينزل المطر ؟ ونحن الآن وقد بتنا ننتظر هطول الامطار ولا أمطـــار ، فلا نملك من وسيـــلة لانزال الامطار إلا الالتجـــاء الى الله والاستغاثة به .

ومن يعلم عندما تعلق المرأة ماحملها اذكر أم أنثى ، وشقي أو سعيد ، اجميل أم قبيح ؟

ومن يعلم ما يقوم به في المستقبل من عمل خير أو عمل شر،فكم من عازم على الشر لم يوفق اليه ، وكم من عازم على الخير لم يوفق اليه .

ومن يدري بأي أرض يموت أفي بلده أو في غير بلده ، في داره او في دار أخرى كل ذلك مما استر عليه ستار الغيب ، وهنا يبدو لنا عجز الانسان وقصر علمه ، كما يبرز لنا سعة علم الله ، وهذا قليل من كثير ، واذا كان الله يعلم مالا نعلم، فلم لا نستجيب لندائه ، ولم لا ننفذ أحكامـــه ، وإن بدا لنا فيهـا

شيء يخالف نفوسنا فانه سبحانه يعلم من الحكمة ما لا نعلمه نحن ، ان الله عليم خبير .

روى عن الامام الزهرى أنه كان يقول « اكثروا قراءة سورة لقمان فان فيها اعاجيب .

فقه السورة :

١ ـ « وفصاله في عامين »

الفصال : هو الفطام ، اى فطام الرضيع يكون بانقضاء عامين.

استدل العلماء غير ابي حنيفة على أنمدة الرضاع الذي يتعلق بها التحريم بالرضاع « عامان »

وقد وردت آية أخرى بهذا المعني وهي قوله تعالى « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة »

وبناء على ذلك فقد استنبط علي وابن عباس وغيرهما من الصحابة أن أقل مدة الحمل المرأة ستة اشهر عملاً بقوله تعالى « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » وقوله تعالى « وفصاله في عامين » فان العامين ٢٤ شهراً وهي مدة الرضاع ، فاذا طرحت من مجموع مدة الحمل والرضاع ، بقيت مدة الحمل وهي ستة اشهر .

ـ ولكن قال الامام ابوحنيفة أن أقل مدة الرضاع المحرم ثلاثون شهراً بقوله تعالى « وحمله وفصاله ثلاثونشهراً »

فقد ذكر سبحانه الثلاثين شهراً ، اجلاً لامرين متعاطفين ، فكانت هذه المدة لكل أمر منها على حدة أما الحمل فقد ثبت ما يوجب نقصانه عن ثلاثينشهراً بما روي عن عائشة أن الولد لا يبقى في بطن أمه اكثر من سنتين ولو بفلكةمغزل. فبقيت مدة الثلاثين شهراً لمدة الرضاع.

وأما الآية « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد ان يتم

الرضاعة ، فقد حملها الامام ابو حنيفة على أن العامين هي المدة التي تستحق عليها المرضعة أجرة الرضاعة ، ولا تستحق اكثر من ذلك لو ادعت الاكثر.

والحق ما ذهب اليه جمهور العلماء من أن مدة الرضاع المحرم هو سنتين ، لان القول الذي استند اليه في تفسير الآية هو رأي لعائشة وليس بحديث بل وان الامام أبا حنيفة يعترف بأن أقل مدة الحمل ستة اشهر وهي مستنبطة من مجموع الآيتين « وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » « وفصاله في عامين »

٢ ـ وصاحبهما في الدنيا معروفاً .

استنتج العلماء من هذه الآية ان الوالد لا يقاد بولده ، وانه لا يحد اذا قذفه ولا يحبس لدين لولده عليه ، وان الولد يجب ان ينفق على والديه وان كانا كافرين.

٣ ـ « واتبع سبيل من أناب إلي »

استدل العلماء بهذه الآية على ان الاجماع مصدر من مصادر التشريع وهذه الآية هي كقوله تعالى « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم... الآية.

الصف السادس ابتدائي

سورة الصف [1]

نزلت بالمدينة المنورة بعد سورة التغابن

النص : ١ـ سَبَّحَ للهِ ما في السّمواتِ وما في الارضِ وهو العزيزُ الحَكيمُ ، يا أيُّها الذين آمَنوا لِمَ تَقولونَ مالا تَفْعَلون ، كَبُرَ مَقْتاً عندَ اللهِ أنْ تقولوا ما لا تَفْعَلون ، إنّ اللهَ يُحِبُّ الذينَ يُقاتِلونَ في سبيله صَفّاً كأنهم بُنْيانٌ مَرْصُوص.

٢ـ وإذ قال موسى لِقَوْمِه يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذونني وقَد تَعْلَمونَ أنّي رَسولُ اللهِ اليكم ، فلمّا زاغوا أزاغَ اللهُ قُلوبَهم واللهُ لا يهدي القومَ الفاسِقين ، وإذْ قال عيسى ابنُ مريمَ يا بني

---

(١) ـ ابتداء منهاج الصف الثالث من دور المعلمين واليك نص المنهاج : مراجعة منهج التربية الدينية للصف السادس الابتدائي مع العناية بفهم وحفظ مقرر القرآن الكريم والحديث الشريف ودراسة مقرر العبادات

إسرائيلَ اني رسولُ اللهِ اليكم مُصَدِّقاً لما بين يَدَيَّ مِنَ التَّوراةِ ومُبَشِّراً برَسولٍ يأْتي مِنْ بعدي اسمُهُ أحمدُ ، فلمّا جاءَهم بالبيناتِ قالوا هَذا سِحْرٌ مُبينٌ .

ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى على اللهِ الكَذِبَ وهو يُدْعى الى الاسلامِ واللهُ لا يَهدي القومَ الظّالمين ، يُريدونَ ليُطفِئوا نورَ اللهِ بأفْواهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نورِهِ ولوْ كَرِهَ الكافِرون ، هوالذي أَرْسَلَ رسولَهُ بالهُدى ودينِ الْحَقِّ ليُظْهِرَهُ على الدّينِ كُلِّهِ ولو كَرِهَ المُشْرِكون .

٣ـ يا أيها الذينَ آمنوا هَلْ أَدُلُّكم على تِجارَةٍ تُنْجيكمْ مِنْ عَذابٍ أَليم ، تُؤْمِنونَ باللهِ ورَسولِهِ وتُجاهِدونَ في سبيلِ اللهِ بأمْوالِكم وأنْفُسِكم ذلكم خَيْرٌ لكم انْ كنتم تَعْلَمون ، يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم ويُدْخِلْكم جَنّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الانْهارُ ومساكِنَ طَيِّبَةً في جَنّاتِ عَدْنٍ ذلك الفوزُ العظيم ، واخرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ من اللهِ وفَتْحٌ قَريبٌ وبَشِّرِ المُؤْمِنين .

٤ـ يا أيها الذين آمنوا كونوا انْصارَ اللهِ كما قال عيسى بنُ مَريمَ

للحواريينَ مَنْ أنْصاري الى الله ، قال الحواريونَ نحن أنْصارُ الله فآمَنَتْ طائفَةٌ مِنْ بني اسرائيلَ وكَفَرَتْ طائفَةٌ فأيَّدنَا الذينَ آمنوا على عَدُوِّهِمْ فاصبحوا ظاهِرين .

شرح الكلمات : سبح : نزه ـ المقت : اشد انواع البغض ، ومعنى كبر مقتاً : كبر قولاً لانه يجلب غضب الله ـ زاغوا : مالوا عن الحق ـ الفاسقين : الذين لايطبقون تعاليم الله وهم يؤمنون بصحتها ـ هذا سحر مبين : هذا سحر ظاهر ـ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم : يريدون أن يصدوا عن تعاليم الاسلام وابطال هذه التعاليم بأقوالهم ـ ليظهره على الدين كله : ليعليه على جميع الاديان ـ جنات عدن : جنات أقامة وخلود ـ يقال : عدن فلان بالمكان يعني أقام فيه ـ انصار الله : انصار دين الله ـ الحواريون : أصفياء عيسى عليه السلام وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً ، وهي مأخوذة من « حور » وهو البياض الخالص ، والحواري : هو القصار في الأصل ثم استعير لمعني الناصح والناصر ـ ظاهرين : غالبين ـ .

اسباب النزول : أخرج الامام احمد عن عبدالله بن سلام قال : تذاكرنا ايكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله أي الاعمال أحب الى الله فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسول الله ﷺ الينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ـ يعني سورة الصف ـ كلها ، وقريب من هذا ما رواه الترمذي والحاكم وصححه .

وذهب بعض العلماء الى أن المؤمنين كانوا يتمنون ان يباح لهم الجهاد في سبيل الله ، فلما فرض عليهم الجهاد ، نكل عنه بعضهم ، فأنزل الله قوله « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وقد قص الله

سبحانه علينا قصة هؤلاء في مكان آخر من القرآن في سورة النساء فقال« ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو اشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى اجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خيرلمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » .

ونحن نرى أن كلا القولين صحيحـــان ، إذ من السهل الجمع بينهما ... فهؤلاء للمؤمنين يعانون من ضغط قريش وأذاها ، فيتمنون أن يكتب الله عليهم القتال ليشفوا غليلهم من قريش ، ومن وراء قريش ، ولا شك كان بين هؤلاء المؤمنين جماعة من المنافقين ، وجماعة من الذين لما يتمكن الايمان في قلوبهم بعد، فلما نزلت آيات القتال اجاب من أجاب ، وبلس من بلس ،كما قال تعالى « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ؟ فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت ...»فأنزل الله تعالى في هؤلاء « لم تقولون ما لا تفعلون » مقرعاً لهم ثم مضى القرآن مؤرخاً تلك النكسة في السلوك ، بقوله « فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو اشد خشية ...» وقوله « فاذا انزلت سورة محكمة وذكرفيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت...»

ويمضي الزمن ويجتمع بعض أصحاب رسول الله ﷺ يلتمسون احب الاعمال إلى الله ، ويهمون بسؤال الرسول عليه الصلاة والسلام عن ذلك ولكنهم يحجمون لأمر ما... ويرسل اليهم الرسول ﷺ ليبلغهم بأحب الاعمال الى الله فيقرأ عليهم سورة الصف بكاملها .

وهكذا أنت ترى أن اخبارهم بأحب الاعمال الى الله ـ والله اعلم ـ حدث بعد نزول السورة لاسبباً في نزولها .

وقد كدنا أن نميل إلى ما ذكره ابن جرير الطبري رحمه الله من أن جماعة من المسلمين اجتمعوا قبل أن يشرع الجهـــاد يقولون « لودِدنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال اليه فنعمل به فلما شرع الله الجهاد واخبرهم انـــه احب الأعمال اليه ، كره ذلك ناس من المؤمنين فأنزل الله سبحانه « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ...» قد كدنا أن نميل الى هذا لولا تلك الروايـــة التي اخرجها احمد عن عبدالله بن سلام والـــتي يقول فيها « فقرأ علينا هـــذه السورة ـ يعني سورة الصف كلها ـ والمفهوم أن قوله تعالى « ... لم تقولون ما لا تفعلون » منها أيضاً .

من روح السورة : ابتدأت هذه السورة باشعـــار المؤمن أن كل ما في السماوات من كواكب وأقمار و ... وكل ما في الارض من أشجار وانهار وبحار وحيوانات ، تدل دلالة واضحة على عظمة الله ، وحكمته ، وتدبيره ، واتصافه سبحانه بالكمالات ، وهي لسان ناطق على هذا ، وهي بمجموعها تنزه الله سبحانه عن كل نقصان ، فحري بالانسان ان يؤمن بهذا فيعتقد اعتقاداً حازماً بحكمة الله ، ويخضع لذلك ، ويتمثل هذا الخضوع بتطبيقه شريعة الله بعد الاعتقاد بأنها تسمو على كل شريعة ، ثم يتمثل هذا الخضوع بعمله الدائم وباتباع كل الوسائل لنشر دين الله « حتي يظهره على الدين كله ، وهذه البداية كما ترى تنسجم مع الغرضين الرئيسيين في هذه السورة الكريمة ، إذ أن الغرض الاول : هو الاعتقاد بكمال شريعة الاسلام . والغرض الثاني : القيام بفرض الجهاد لجعل شريعـــة الله هي السائدة .

ويمضي السياق الكريم فينكر على هؤلاء الذين تمنوا أن يعرفوا أحب الاعمال الى الله فيأتوها ، فلما أعلمهم الله أنها الجهاد في سبيل الله ، رأيت الضيق يعلو وجوههم ، والضجر يبدو على سماتهم ، إنهم إذن لايحبون ولا يصبرون إلا بالكلام ، أما العمل فهم بعداء عنه كل البعد ، وما اقبح هذا من قوله وما اخسه

من كلام ، انهم بعداء عن محبة الله ورحمة الله ، ان الله يحب أولئك الذين اتحدت كلمتهم على قتال عدوهم ، فلم يشذوا ، ولم يلجأوا الى بيوتهم ، ووقفوا أمام العدو صفاً واحداً يقارعونه بالسيف ، ويجولون معه في الساح .

روى الامام احمد وابن ماجه عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يضحك الله اليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم اذا صفوا للصلاة ، والقوم اذا صفوا للقتال »

وهنا وفي هذه الآيات الثلاث ، تلمح تربية الاسلام للمسلم ، انها تربية لاتقوم على المادة فقط ، وانما تقوم على محبة الله ، وتعلق الضمير الانساني به ، انه لم يشأ الله أن يقول ان العدو معاند ، وان الباطل متبختر ، وان الشر طاغ ، وكل هؤلاء يتمثلون في العدو الذي يريد أن ينقض عليكم ، فيسلبكم نعمة الحياة ، ويستولى على مالكم وبلادكم ، انه لم يقل ذلك ، وكان باستطاعته أن يقول ، ولكنه آثر الارتفاع بالمسلم الى السماء ، وتعلقه بمعنى يستمد منه العون ، ويقوي العزم والتصميم ، فيكون الغاية التي ليس بعدها غاية إنها حب الله له ، حب لله الذي يقاتل المؤمن من أجل الحصول عليه ، وأمامه تتضاءل العشيرة والقبيلة والقوم ، فيصبح الأمر من الله ، والقتال في سبيل الله ، والهدف محبة ورضوان الله ...

٢ ـ ان هذا الجهاد الذي فرضه الله لاعلاء كلمة الله ـ دين الاسلام ـ ودين الاسلام دين حق ، اتى في نهاية تطور الحياة الدينية للبشرية ، وقد اشار القرآن الكريم الى ذلك مبتدئاً في هذه الآيات من موسى عليه السلام ، فقد تحمل موسى عليه السلام من قومه بني اسرائيل الذين تصفهم التوراة بقولها « انكم قوم غلاظ الرقاب » ألواناً من العذاب .

لقد ضل بنو اسرائيل فعبدوا فرعون بدلاً من الله عز وجل ، فأرسل

الله اليهم موسى عليه السلام فخلصهم من ظلم فرعون، وحملهم على طـــريق الحق بهديه ، وما ان غادرهم لميقات ربه ، حتى عادوا يعبـــدون العجل بدلاً من الله ، وتوالت اعمالهم المنكرة ... فمالوا عن دين الله الحق الذي اتاهم به موسى عليه السلام بعد ان بذل كل الجهود لحملهم على الاستقامة ، وهنا صـــدر الامر الالهي « وان الله لايهدي القوم الفاسقين » فانتهت قيادتهم، ولم يعودوا يصلحون لأمر... ثم أتى عيسى عليه السلام واعلم بني اسرائيل أنه كسلفه موسى عليه الســـلام رسول من الله اليهم يهديهم إلى الطريق السوي وقد أعلن لهم أنه يقر ما أتى بـه موسى عليه السلام من التوراة وأنه يقرّ أنها كلام الله تعالى وقد عبر عن هـــذا انجيل متى الاصحاح الخامس (١٧) بقوله « لاتظنوا اني جئت لانقض النـاموس أو الانبياء ، ما جئت لانقض بل لأكمل »

ويبشر برسول كريم يأتي من بعده اسمه احمد ،وهو رسولنا الكريم خاتم الرسل ، ورسول الله ﷺ من جملة اسمائه احمد فقد روي البخاري عن محمد بن جبير بن مطعم عن ابيه قال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول « إن لي اسماء ، أنا محمد وأنا احمد وانا الماحي الذي يمحو الله به الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وانا العاقب »

ونحن إذا رجعنا الى انجيل برنابا ـ وهوانجيل غير معتمد عند النصـارى ـ نجده صريحاً كل الصراحة في بشارته بالرسول الكريم محمد ﷺ.

فقد جاء في الفصل ٤٢/٣ فما بعدها « فان رؤساء الكهنة تشاوروا فيما بينهم ليتسقطوه ـ يعني يسوع ـ بكلامه (٤) لذلك أرسلوا اللاويين وبعض الكتبة يسألونه قائلين « من أنت » ؟ ٥ فاعترف يسـوع وقال : « الحق اني لست مسيا » ٦ فقالوا « أأنت ايليا أو أرميا أو احد الانبياء القدماء » ؟ ٧ أجاب يسوع « كلا » ٨ حينئذ قالوا : « من أنت » ؟٩ قل لنشهد للذين أرسلونا ؟» ١٠ فقال حينئـــذ يسوع « أنا صوت صارخ في اليهودية كلها ١١ يصرخ « اعدوا طريق رسول الله كما

هو مكتوب في اشعيا » ١٢ قالوا « اذا لم تكن المسيح ولا إيليا أو نبياً ما ، فلماذا تبشر بتعليم جديد وتجعل نفسك اعظم شأناً من مسيا » ؟ ١٣ أجاب يسوع « ان الآيات التي يفعلها الله على يدى تظهر اني اتكلم بما يريـــد الله ١٤ ولست أحسب نفسي نظير الذى تقولون عنه ١٥ لأني لست اهلاً أن احل رباطات جرموق أو سيور حذاء رسول الله الذي تسمونه مسيا ٩ الذي خلق قبلي وسيأتي بعدي ١٠ وسيأتي بكلام الحق ولا يكون لدينه نهاية »

وقد جاءت البشارة بالرسول الكريم محمد ﷺ صريحة جداً في انجيل برنابا ٤٣/ ٢٥ وما بعدها « ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون »؟ ٢٦ اجاب التلاميذ « من داود » ٢٧ فاجاب يسوع « لا تغشو انفسكم ٢٨ لأن داود يدعوه في الروح قائلا هكذا « قال الله لربي اجلس عن يميني حتى اجعل اعداءك موطئـــاً لقدميك ٢٩ يرسل الرب قضيبك الذي سيكون ذا سلطان في وسط اعدائك ٣٠ فاذا كان رسول الله الذي تسمونه مسيا إبن داود فكيف يسميه داود رباً ٣١ صدقوني لأني اقول لكم الحق ان العهد صنع باسماعيل لا باسحق .

ويتابع يسوع قوله كما جاء في برنابا ٤١/ ٢٧ وما بعدها « ما اسعد الزمن الذي سيأتي فيه الى العالم ٢٨ صدقوني إني رأيته وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبي ٢٩ لأن الله يعطيهم روحه نبوة ٣٠ ولما رأيته امتلأت عزاء قائلاً : « يا محمـــد ليكن الله معك وليجعلني أهلاً أن احل سير حذائك ٣١ لأني ان نلت هذا صرت نبياً عظيماً وقدوس الله »

على أن الأناجيل المعتمدة عند النصارى وهي : حنا ، متى ، لوقا، مرقس، لاتخلوا من الاشارة إلى الرسول الكريم محمد ﷺ بل وان التوراة المعتمدة عند النصاري واليهود في آن واحد كانت أكثر دقة في البشارة بالرسول الكريم «محمد» ﷺ واليك طرفاً من ذلك

١ ـ ان مملكة الاسلام هي مملكة الله في الارض المسماة في العهد الجديد

بملكوت الله ، وملكوت السماوات ، وكان المسيح عليه السلام يبشر الناس بقرب مجيئها ، وأمر عيسى عليه السلام النصارى أن يطلبوا من الله في صلواتهم اتيانها فقد جاء في انجيل متى ٤/١٧ « من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات » ان هذه المملكة الاسلامية بدأت صغيرة ثم نمت وكبرت حتى ملأت العالم ولذلك شبهها عيسى عليه السلام بالزرع الجيد وبحبة الخردل التي تصير اكبر البقول

فقد جاء في انجيل متى ١٣/٢٤ وما بعدها « يشبه ملكوت السماوات انساناً زرع زرعاً جيداً في حقله (٢٥) وفيما الناس نيام جاء عدوة وزرع زواناً في وسط الحنطة ومضى (٢٦) فلما طلع النبات وصنع ثمراً حينئذ ظهر الزوان أيضاً (٢٧)، فجاء عبيد رب البيت وقالوا له يا سيد اليس زرعاً جيداً زرعت في حقلك فمن أين له الزوان (٢٨) فقال لهم انسان عدو فعل هذا . فقال له العبيد اتريد أن نذهب ونجمعه (٢٩) فقال لا ، لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وانتم تجمعونه (٣٠) دعوهما ينميان كلاهما معاً الى الحصاد وفي وقت الحصاد أقول للحصادين أجمعوا أولاً الزوان واحزموه حزماً ليحرق ، واما الحنطة فاجمعوها الى مخزني »

كما جاء في انجيل متى ١٣/٣١ فما بعدها « يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها انسان وزرعها في حقله (٣٢) وهي اصغر جميع البزور ، ولكن متى نمت فهي اكبر البقول ، وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتتآوى في أغصانها »

وإنك ترى أن هذا الوصف الذي ورد في الانجيل هو الذي اشار اليه القرآن الكريم - والله اعلم - بقوله

« ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع »

ومن الواضح أنه ليس المراد من الزرع ذلك النبات الذي يزرع في

الأرض وإنما المراد به البشر ، فالزرع الصالح القوي من غرس الايمان في قلبه ، والزرع الفاسد من آوى الى الكفر ... إن هؤلاء الصحابة الذين سكن الايمان قلوبهم ، هم الذين قال الرسول ﷺ فيهم « نحن الآخرون السابقون » وهم الذين قال انجيل متى فيهم ٢٠/١٦ « هكذا يكون الآخرون أولين والأولون آخرين لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون » .

ان هؤلاء الصحابة هم الأمة التي اعطي لها «ملكوت الله » ورئيسهم محمد ﷺ هو رأس الزاوية والحجر الذي من سقط عليه سحق ، كما جاء في انجيل متى ٢١/٤٢-٤٤ « قال لهم يسوع أما قرأتم قط في الكتب ، الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في اعيننا ٤٣ لذلك أقول لكم ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطي الأمة تعمل أثماره ٤٤ ومن سقط على هذا الحجر يترضرض ومن سقط هو عليه يسحقه » نعم إن ذلك عجيب في أعين المسيح عليه السلام كما جاء في نص انجيل متى الذي ذكرناه ، كما هو عجيب في نظر داود عليه السلام وسائر انبياء بني اسرائيل فقد جاء في التوراة سفر المزامير ١١٨/ ٢٢-٢٣ » الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية ٢٣ من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا » .

وسبب هذا العجب أن محمداً ﷺ وأصحابه كانوا من بني اسماعيل وهم من نسل الجارية المحقرين عند اليهود ، فقد جاء في التوراة سفر التكوين ٢١/٩-١٣ ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لابراهيم يمزح ١٠ فقالت لابراهيم اطرد هذه الجارية وابنها ، لان ابن هذه الجارية لايرث مع ابني اسحق ١١ فقبح الكلام جداً في عيني ابراهيم لسبب ابنه ١٢ فقال الله لابراهيم لايقبح في عينيك من اجل الغلام ومن اجل جاريتك ، في كل ماتقول لك سارة اسمع لقولها لأنه باسحق يدعى لك نسل ١٣ وابن الجارية ـ اسماعيل ـ ايضاً سأجعله أمة لأنه نسلك » ولكن الله بارك ابناء الأمة هاجر وكثرهم حتى ملأوا الارض ،وفتحوها

وصاروا لايعدون ، كما قال ملاك الرب لهاجر في سفر التكوين ١٦/١٠« وقال لها ملاك الرب تكثيراً اكثر نسلك فلا يعد من الكثرة » ولم يجعل الله لأولاد الحرة ـ سارة ـ فضلاً على أبناء الأمة ـ هاجر ـ فأعطى الله سبحانه عهداً لأبناء سارة أن يعطيهم أرض الكنعانيين كما يذكر ذلك سفر التكوين ١٧ /٨ «واعطي لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكاً ابدياً ، واكون الههم، وقد اشار القرآن إلى ذلك الوعد فقال سبحانه « ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين ٤ ـ المائدة ٢١ ـ

أما ابناء الأمة هاجر ، فلولا محمد ﷺ لما كان لبني اسماعيل (العرب) شأن يذكر في العالم . فبمحمد وحده تحقق هذا الوعد وصاروا أمة اخضعت العالم كله لها ، ونشرت فيه الدين الحق والعلم والمدنية، حتي صاروا بعد الاسلام لايعدون من الكثرة كما بشر ملاك الرب هاجر بذلك كما جاء في سفر التكوين ١٦ / ١٠ « وقال لها ملاك الرب تكثيراً اكثر نسلك فلا يعدمن الكثرة» .

وهكذا نجد ان الكتب المقدسة تبشر بالرسول الكريم محمد ﷺ وفي الحقيقه ليست هذه هي البشارة الوحيدة بل هناك بشارات وأوصاف عدة وردت في الكتب المقدسة نسوق لك طرفاً منها :

٢ ـ جاء في سفر التثنيه ١٨/١٥-٢٢ « يقيم لك الرب آلهك نبياً من وسطك من اخوتك مثلي له تسمعون ١٦ حسب كل ما طلبت من الرب آلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلاً لا أعود اسمع صوت الرب الهي ولا أرى هذه النار العظيمة أيضاً لئلا أموت ١٧ قال لي الرب قد احسنوا فيما تكلموا ١٨ اقيم لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ١٩ ويكون أن الانسان الذى لايسمع لكلامي الذي به باسمي انا اطالبه ٢٠ واما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي ٢١ وان قلت في قلبك كيف نعرف الكلام

الذي لم يتكلم به الرب ٢٢ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه »

وخلاصة مفهوم هذا النص
ا ـ إن الله سيرسل نبياً من ابناء اسماعيل
ب ـ ان هذا النبي سيكون في وسط اليهود
ج ـ الذي يدل على صحة دعواه النبوة أنه سيخبر بحوادث غيبية وستقع هذه التي اخبر عنها .

ا ـ وإن محمداً عليه الصلاة والسلام من أبناء اسماعيل

ب ـ وإن محمداً عليه الصلاة والسلام اسس دولتـــه في المدينة المنورة والمدينة المنورة في وسط اليهود حيث يحيط بـه خيبر وبنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ..

ج ـ وإنه أخبر بأخبار غيبية وقد وقع ما اخبر به ، نذكر من ذلك قوله تعالى « ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » وقد وقع ذلك . كما أخبر القرآن بدخول المسلمين المسـجـد الحرام قال تعـالى « لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون » وقد وقع ذلك كله .

٣ ـ رأى الملك بختنصر رؤيا هالته فطلب تفسيرها وهنا خاطب دانيـال بختنصر مفسراً له رؤياه كما جاء في التوراة سفر دانيال ٢/٣١-٤٥ « انت ايها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم ، هذا التمثـــال العظيم البهي جداً وقف قبالتك ومنظره هائل ٣٢ رأس هذا التمثال من ذهب جيد ، صدره وذراعاه من فضة ، بطنه وفخذاه من نحاس ٣٣ ساقاه من حديد ، قـدماه بعضها من حديد والبعض من خزف ٣٤ كنت تنظر الى ان قطع حجر بغير يدين فضرب التمثـال

على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما ٣٥ فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كمصافة البيدر في الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان ، أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض كلها ٣٦ هذا هو الحلم فنخبر بتعبيره قدام الملك.

٣٧ : انت ايها الملك ملك ملوك لأن اله السموات اعطاك مملكة واقتداراً وسلطاناً وفخراً ٣٨ وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطك عليها جميعها ، فأنت هذا الرأس من ذهب ٣٩ وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة اخري من نحـــاس فتتسلط على كل الارض ٤٠ وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد لأن الحديد يدق ويسحق كل شيء وكالحديد الذي يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء ٤١ وبما رأيت القدمين والأصابع بعضها من خزف الفخار والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة ويكون فيها قوة الحديد من حيث انك رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين ٤٢ واصابع القدمـــين بعضها من حديد والبعض من خزف فبعض المملكة يكون قوياً والبعض قصماً ٤٣ وبما رأيت الحديد مختلطاً بخزف الطين فانهم يختلطون بنسل النـاس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف ٤٤ وفي أيام هـــؤلاء الملوك يقيم اله السموات مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفني كل هذه الممالك وهي تثبت الى الأبد ٤٥ لأنك رأيت انه قد قطع حجر من جبل لا بيدين فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب . الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتي بعد هذا ، الحلم حق وتعبيره يقين.

وخلاصة تعبير دانيال للرؤيا التي رآها نختنصر هو مايلي :

١ ــ هناك مملكة قائمة كالذهب

٢ ــ ثم تأتي مملكة ثانية اصغر منها .

٣ ــ ثم تنشأ مملكة ثالثة كالنحاس تتسلط على كل الأرض

٤ — ثم تنشأ مملكة رابعة كالحديد تسحق كل شيء ثم تنقسم هـذه المملكة فيكون بعضها قوياً وبعضها ضعيفاً

٥ — ثم تنشأ في عهد المملكة السابقة (الرابعة) دولة تبتلع الممالك كلها وتعيش هي إلى الابد .

ومن التتبع التاريخي للذي حدث بعد رؤيا بختنصر وتعبير دانيال لتلك الرؤيا نجد :

١ — ان المملكة التي وصفها دانيال بأن ملكها كالذهب هي مملكة بابل

٢ — ثم قامت دوله الفرس التي اسسها « كورش » وهي دون مملكة بابل

٣ — ثم مملكة اليونان التي كالنحاس ، وقد تسلط مؤسسها الاسكندر الأكبر على كل الارض المعروفة آنذاك

٤ — ثم قامت المملكة الرابعه مملكة الروم التي كانت لها السيطرة التامة ثم انقسمت الى قسمين كما انقسم ساقا التمثال وكانت فيها قوة الحديد مختلطاً بخزف الطين وهو كناية عن الملوك الضعفاء فيهم في أيام هذه الدولة بعد انقسامها .

٥ — ثم بعد انقسام هذه الدولة ولدت الدولة الاسلامية التي لن تنقرض ابداً ، وقد سحقت كل هذه الممالك وثبتت الى الأبد كما قال دانيال في تعبير رؤيا بختنصر . ومحمد ﷺ هو الحجر الذي قطع بالقدرة الآلهية لابيد انسان وهوى من الجبل ليسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب وصار جبلاً كبيراً ، وملأ الأرض كلها ، وفي ذلك أيضاً اشارة الى منشئه في الفقر وبين الجبال .

فان قيل إن المراد بتلك الدولة التي ذكرها دانيال انها ستبقى إلى الابد هي دولة النصارى ـ اي الدولة الرومانية بعد اعتناقها النصرانية ـ قلنا إن هذا

غير صحيح لأن الدولة الرومانية قد اعتنقت النصرانية في عهد قسطنطين اي قبل انقسامها مع أن صريح كلام دانيال ان الدولة المرادة بكلامه هي التي يقيمها الله بعد انقسام الدولة الرومانية الى قسمين اثنين فيها القوي والضعيف ، والدولة النصرانية (اي الرومانية بعد اعتناقها النصرانية) لم تفن الدولة الرومانية بل هي استمرار لها ، وقد بدأ الضعف فيها بعد اعتناقها النصرانية حتى صارت اضعف مما كانت عليه في زمن وثنيتها الى أن سحقتها دولة الاسلام وأزالتها من الوجود .

ومعنى ذلك أن التوراة قد تنبأت بانتشار الدولة الاسلامية فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً .

٤ — وورد في التوراة سفر حجي ٢/٦ - « لأنه هكذا قال رب الجنود ، هي مرة بعد قليل فأنزل السموات والارض والبحر واليابسة ٧ والزلزل كل الأمم ويأتي مشتهى كل الأمم فأملأ هذا البيت مجداً قال رب الجنود ٨ لي الفضة ولي الذهب يقول رب الجنود ٩ مجد هذا البيت الأخير يكون أعظم من مجد الأول قال رب الجنود وفي هذا المكان اعطى السلام يقول رب الجنود.

ومن التدقيق في هذا الكلام نجد أنه ينص على ما يأتي:

١ — زلزلة كل الأمم على يد مشتهي كل الأمم

٢ — عودة المجد إلى بيت المقدس على يد مشتهي كل الأمم حتى يكون مقدساً اكثر من تقديسه الاول فتتفق الكلمة على تقديسه

٣ — اعطاء السلام في بيت المقدس.

ونحن لنستقرىء التاريخ لنتبين متى صدق هذا الكلام

١ — ان كلمة مشتهى كل الأمم المذكورة في نص التوراة هي « حمدوت »

باللغة العبريه أي محمود كل الأمم وهذا صريح في « محمد »ﷺ

وفعلاً قد جاء محمد ﷺ فكان الرجل الذي تحمده كل الأمم ، فلاتجد مطعناً تطعن عليه في سمعة ولا سلوك ولا أخلاق ولا .... واسس الدولة الأسلامية التي زلزلت كل الأمم ، واستولت على ممتلكاتها ، ودخل الناس في دين الله افواجاً ، لا اكراهاً ولا اجباراً ، ولكن عن رغبة وحب وتفهم، فكان رسول الله ﷺ بحق مشتهي كل الأمم .

واستولى المسلمون على بيت المقدس ، فنشروا الأمن فيه ، واعطوه مجداً اعظم من مجده الاول حيث اصبح هذا البيت معظماً عندجميع الديانات،الاسلامية والمسيحية واليهودية ، واي مجد اعظم من اجتماع الكلمة على تعظيمه ، وقد يقول قائل ان ذلك كان زمن المسيح عليه السلام ، ولكن هذا القول محض خداع ، ففي زمن المسيح عليه السلام لم يزد قدر بيت المقدس شيئاً عما كان عليه قبل مجيئه عليه السلام ، بل كان يقيناً أقل من مجده الاول ، فقد خرب بعده بقليل ، ودمر حتى لم يبق فيه حجر على حجر ، ثم جاء النصارى فزادوا فياهانتهوتحقيره عناداً لليهود ، حتى طهره المسلمون وبنوه وزينوه « فصار فيعهدهم كعبة يقصده الناس من جميع الجهات على اختلاف مللهم واقطارهم ، يرافقهم الامن والسلام ، فهل رأيت مجداً واجماعاً على تعظيمه في يوم من الأيام كما كان في عهد الاسلام ؟

٥ — بل إننا لنزيد على ذلك فنقول إن التوراة قد حددت بالضبط زمان ومكان الرسالة المحمدية ، أما زمانها فقد أشرنا إليه في مقدمة تفسيرنا لسورة الجمعة ولا بأس أن نذكر هنا موجز ما ذكرناه هناك :

جاء في سفر دانيال من التوراة ٩/٢٤ سبعون اسبوعاً قضيت على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الاثم وليؤتي بالبر

الأبدي ولختم الرؤيا ولمسح قدوس القدوسين»

إن هذا النص الذي ورد في التوراة يؤخذ منه مايلي :

١ — سيفرض عذاب على بني اسرائيل مقداره سبعة اسابيع كفارة لهم عما ارتكبوه من الاثم ، وان الاسبوع الذي يذكر في مقام الجزاء هو اسبوع سنين وعلى هذا يكون مقدار العذاب الذي فرض على بني اسرائيل هو:
٧ × ٧٠ = ٤٩٠ عاماً .

٢ — وبتمام هذه المدة يرفع العذاب عن بني اسرائيل وتختم النبوة.

ولنعد إلى التاريخ ولنستعرض تاريخ بني إسرائيل باجمال شديد وسرعة كبيرة فنجد أن بختنصر قام بحملات على الهيكل المقدس وكانت آخر حملاته سنة ٥٨٨ ق م واسر دانيال نفسه

اذن «كورش» برجوع اليهود إلى أورشليم سنة ٥٣٦ ق م

وفي سنة ٧٠ م حارب «تيطس» اليهود وأحرق الهيكل واجلاهم عن البلاد ولكنهم عادوا إليها بعد ان دفعوا كمية من المال ولكن سرعان ما بدأ اليهود بتحصين المدينة ليخرجوا عن طاعة الامبراطور «أدريانوس» فارسل اليهم جيشاً وحاربهم وخرب المدينة ولم يبق حجراً على حجر وكان ذلك سنة ١٣٢ م وهكذا تلاشت كل قوة لليهود ودخل الفرس أورشليم سنة ٦١٤م وخرجوا منها سنة ٦٢٨م بعد ان مكثوا فيها ١٤ سنة وفي هذه المدة منع الفرس النصاري من اطهاد اليهود، ثم عاد الاطهاد إليهم بعد ان خرج الفرس ، ولم يمنع عنهم الا حينما دخل المسلمون القدس . وعلى ضوء هذه الحقائق التاريخية نجد : أن اطهاد اليهود قد بدأ سنة ١٣٢ التي تلاشت فيها كل قوة لهم وتبددوا في الأرض ولم تقم لهم قائمة وتنتهي سنة ٩٢٢ التي هاجر فيها الرسول ﷺ الى المدينة المنورة وفيها كمل أمره وعظم شأنه ، أو سنة ٦٣٦ وهي السنة التي فتح المسلمون فيها اورشليم ، اي بعد اسقاط ١٤ سنة وهي المدة التي استراح فيها اليهود من ظلم النصارى واستراح الهيكل المقدس من الأذى الذي ينزله به النصارى وهي المدة التي استولى فيها الفرس على بيت المقدس.

فاذن انتهاء مدة الاطهاد كانت معلومة عند اليهود ، وأن رفع الاطهاد عنهم سيكون على يد نبي تختم عنده النبوات ، وهو قدوس القدوسين ، وهو محمد ﷺ، وبذلك نرى أن زمان وجود النبي الكريم محمد ﷺ قد حددته التوراة ، واذا كانت التوراة هي كتاب مقدس معتمد عند اليهود والنصارى على السواء امكننا أن نقول أن اليهود والنصاري (على الأقل) يعرفون زمن وجود النبي ﷺ ولذلك كانوا يتنبأون بهذا فكانوا يقولون : انه سيبعث نبي قد اظل زمانه وكانوا يعتقدون انه منهم .

أما مكانه : فقد جاء في سفر اشعيا ٤٢/١-١٣ هوذا عبدى الذي اعضده مختاري الذي سرت به نفسي ، وصفت روحي عليه فيخرج الحق للأمم ....(٤) لايكل ولا ينكسر حتي يضع الحق في الارض وتنتظر الجزائر شريعته .... (١٠) غنوا للرب اغنية جديدة تسبيحه من اقصي الارض ، ايها المنحدرون في البحر ومُلُوه والجزائر وسكانها (١١) لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التي سكنها قيدار ، لترنم سكان سالع ، من رؤوس الجبال ليهتفوا (١٢) ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر ،

ولتفسير هذا النص لابد لنا أن نعرف من هو قيدار وأين هي مساكنه ، وما هي سالع واين مكانها .

قيدار : هو أحد ابناء اسماعيل عليه السلام فقد جاء في التـــوراة سفر التكوين ٢٥/١٣ وهذه اسماء بني اسماعيل باسمائهم حسب مواليدهم : نبايوت بكر اسماعيل وقيدار وأدبئيل وميسام....»

والبرية التي سكنها قيدار هي بلاد العرب فقـــد كانت مساكن أولاد اسماعيل من حويلة الى أمام مصر وحويلة هي اليمن فقـــد جاء في التوراة سفر التكوين ٢٥/١٨ وسكنوا ـ لولاد اسماعيل ـ من حويلة إلى شور التي أمام مصر حينما تجيء نحو اشور ، أمام جميع إخوته نزل .

أما سالع : فان معناها الصخر ، ولذلك ترجمت الكاثوليك العبارة هكذا

« ولترنم سكان الصخرة »

وفي المدينة المنورة جبل يسمى « سلع »

اما سالع المساة (بطرة) وهي التي بين خليج العقبة وبحر الميت فكانت تعرف في زمن اشعيا النبي « يقتئيل » الذى سماها به « أمصيا » ملك يهوذا كما جاء التوراة سفر الملوك الثاني ١٤/٧ « وأخذ سالع بالحرب ودعا اسمها يقتئيل الى هذا اليوم.»

مما تقدم نرى أن التوراة قد حددت المكان الذي يبعث فيه النبي محمد ﷺ الذي يخرج الحق للأمم وهو الجزيرة العربية ومن بين الجبال وقد بعث فعلاً في الجزيرة العربية وفي مكة التي تحيط بها الجبال الصخرية .

وقد سجل القرآن الكريم هذه البشارات بقوله : « الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل » كما أقر بهذه الحقيقة التي سجلها القرآن الكريم بعض المخلصين من علمائهم الذين اسلموا كعبدالله بن سلام ، وكانوا يتواصون بكتمانها .

مما تقدم يتبين معنا أن التوراة والانجيل قد بشرا بالرسول الكريم محمد ﷺ وكان من المنتظر أن يكون اليهود والنصارى هم أول من يؤمن بهذا النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم المقدسة .

ولكنهم بدلاً أن يؤمنوا واجهوه بالكيد تارة ، والوقيعة تارة أخرى ، والاتهام بالسحر تارة ثالثة ... واستمرت عداوتهم الى هذا اليوم ، حيث بذلوا المستحيل لهدم دولة الاسلام ، وإذلال أهله.

ألم تكن حربهم سافرة جداً عندما افتتح مؤتمر لوزان في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٢٢ ووضع « كروزون » ممثل الاستعمار والكفر وانكلترا ـ أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي :

١ ـ الغاء الخلافة الاسلامية الغاءً تاماً ـ ٢ ـ طرد الخليفة العثماني من البلاد ـ ٣ ـ اعلان علمانية الدولة التركيـــة ـ وعلق نجاح المؤتمر على قبول هذه الشروط .

وأعلن مصطفى كمال ـ وهو من أصل يهـــودي ووالده حاخام يهودي ـ موافقته على هذه الشروط وتم توقيع معاهدة لوزان التي تعترف باستقلال تركيـا ـ دولة الكفر ـ في ٢٣ نيسان ١٩٢٣

واحتج احد النواب الانكليز البلهاء على (كروزون) على اعترافـــه باستقلال تركيا

فأجابه هذا بدراية وخبث « القضية أن تركيا قد قضي عليها ، ولن تقوم لها قائمة ، لأننا قضينا على القوة المعنوية فيها : الخلافة والاسلام»

وها هي فرنسا عندما حاولت جعل الجزائر فرنسيـــة ، وفشلت بذلك ، أرادت أن تعرف سر فشلها مع أنها استعملت كل الوسائل لذلك ، فأرسلت رئيس مصلحة التجسس الفرنسية « فيليب فندانسي »فكتب هذا يقول « ولئن كان بيننا ـ فرنسا ـ وبين السود ـ المسلمين ـ هوةظهر من المعقول ـ استنـــاداً إلى الدراسات الفنية الحديثة للنفسية السوداء وللحضارات السوداء ـ أنه بالامكان ردمها فان الاسلام يجعل الهوة قائمة لاتردم أبداً »

هذه بعض عداوتهم اليوم لدين الله ، وهي مستمدة من عـداوة قديمة في زمن الرسول ﷺ حينما اتبعوا كل الأساليب لابعاد الناس عنـه ... حـتى قالوا انه لساحر مبين ، وانه لظلم ـ واكبر به من ظلم ـ ظلم للحقيقة أن يقال لمن يخاطب الناس بالمنطق السليم ، والفكر السديد ، والعقيدة الصحيحة ، والشريعةالسمحة، فيستجيبون للحق ، ظلم للحقيقة ، أن يقال عنه انه ساحر ، وكيف يهد الله قوماً كهؤلاء وهم لم يلتمسوا في يوم من الأيام طريق الهداية ، بل هم مصرون على الكذب والبهتان ، وقياده حملة التشويش والتضليل ليصدوا عن دين الله،فيعوز

هذا الدين في الأرض ويمحى له كل أثر .

وانه لمنظر مضحك جداً أن نرى إنساناً يقطع أنفاسه ليطفىء نور الشمس ، ولكنه منظر مضحك اكثر منه ان نرى أقواماً تنفخ وتنفخ لتطفىء نور الله ، وهؤلاء الكافرون القدامى والمحدثون جميعاً ، يعملون ويعملون ... ويكيدون ... ويكذبون ... لتدمير دين الله ولكن الله مظهر شريعته ، ومعل دينه ، رضى الكافرون بذلك أم كرهوا . وها ان الشعب التركي مازال مسلماً رغم كل جهود أعداء الله واعداد دينه ، وها ان الجزائر مسلمة رغم كل الجهود التي بذلتها فرنسا ومن وراء فرنسا ، وقد عرف الاستعمار ذلك فلجأ إلى طريق تشكيك المسلمين بدينهم وفي ذلك يقول المستر «بنروز» رئيس الجامعة الاميركية الذي توفي عام ١٩٥٤ « ان المبشرين يمكن ان يكونوا قد خابوا في هدفهم المباشر ، وهو تنصير المسلمين جماعات جماعات الا أنهم قد احدثوا بينهم آثار نهضة ...» والنهضة التي يعنيها : ذلك التحلل الديني -

ولقد برهن التعليم على انه اثمن الوسائل التي استطاع المبشرون ان يلجأوا اليها في سعيهم لتنصير سورية ولبنان ، وليت بنروز بقي حياً حتى اليوم لنسمع ما سيقول ...!!

ان الله لم يرسل هذا الدين ليكون مغموراً في التراب ولكنه أرسله ليكون سيد الموقف وحاكم الناس ، ومن أجل هذه الغاية أرسل رسوله به ، واننا لنلمح هذا في طبيعة هذا الدين ، وإقبال الناس عليه ، ولقد حار الاستعمار والكفر بذلك ، فجندوا الحملات لايقاف زحفه ، كتب فيليب فوندانسي رئيس المكتب الخامس الفرنسي عام ١٩٥١ يقول وقد بدا عليه القلق « انه بعد انقضاء اكثر من خمسين سنة من الجهود التبشيرية ، فان الآباء البيض ـ المسيحيين ـ في السودان لم ينجحوا إلا في تنصير ثلاث وسبعين ألفاً من الزنوج وفي تلقين المبادىء الأولية للمسيحية لتسعة وعشرين الف زنجي آخرين لم يعمدوا بعد ، مع

انه في فترة خمس سنوات ، وفي منطقة واحدة فقط من وادي الفولتا الأعلى ،فان ثلاثين الفاً من شعب « الموسي » قد دخلوا في الاسلام على يد احـــدى الطرق الاسلامية المتعصبة للاسلام ، والتي تكره الأجانب الأوربيين ، وهي طريقـــة «الحماوية» وعلى رغم أن بعض النفوس المتسامحة تميل بطبيعتها وعن رضي منهـــا إلى عدم تقدير هذا الخطر « الاسلام » حق قدره ، فانه يبدو في الظروف الحالية للتطور الاجتماعي والسياسي لعالم البشر الأسود انه من الضروري (لفرنسا) أن تقاوم الاسلام في هذا العالم وأن تنتهج سياسة عدائية للاسلام »

٣ ــ إن هذه الحالة لايخلصنا منها الا اعتصام بالله ورسوله ، وإعلان الجهاد ... الجهاد في كافة أشكاله وصوره جهادبالقلم، وجهاد باللسان،وجهادبالحكم، وجهاد بالبارود .

وبما أن الجهاد هو الموضوع الرئيسي في السورة ، فاننا نجد القرآن يلفت النظر اليه ، ويغرسه في النفس غرساً باسلوب معجز حقاً « يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ....» ومن من المؤمنين لا يتطلع إلى هـــذا الذي ينجيه من العذاب الأليم ..؟ إنه إيمان بالله ورسوله لاتزعزعـــه الدعايات المغرضة ، ولا الأقاويل الكاذبة ، وجهاد في سبيل الله ... والجهاد خير كلـــه إن مات المؤمن في حالة جهاده ، كانت له جنات تجري من تحتها الانهار خالداً فيها ، وإن عاش عاش مكرماً عند الله ، ففي الحديث الصحيـح « عينان لاتمسها النـار عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله » وفي كلتا الحالتين ، حالة موته وحالة حياته يحقق الله بالجهاد نصر الاسلام والمسلمين ، وتحطيم دول الكفر والطغيان ، وايقاف حملات الفتنة والتبشير والزيغ والضلال ــ والفتنـــة اشد من القتل ــ فما أحوجنا نحن اليوم إلى الجهاد ، ان الاسلام لم يعرف الاستكانة ولا الخنوع ، لقد عرفناه منتصباً مرفوع الرأس ، فما بال المسلمين اليوم ، ألم يقل الله تعالى « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله » وأنا أفهم من هذه الآية:

أن من الواجب على المسلمين ان لايتيحوا الفرصة لعدوهم كي يبدأهم بالفتنة ، بحملات التضليل والتشكيك ، وانما يبدأوه هم بنشر روح الايمان بين صفوفه ، اقرأ معي بامعان « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله»

٤ — ويتوجه نداء الله إلى المؤمنين الذين انزل الله فيهم « وكـــذلك جعلناكم وامة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » يتوجه إلى هؤلاء الذين فضلهم على العالمين قائلاً لهم : كونوا أنصار الله، كونوا منحازين إلى شريعة الله في جميع أقوالكم وأفعالكم ،وأبذلوا كل غالورخيص من أجل إعلائها ، إن النصاري ـ وانتم أفضل منهم ـ إستجابوا لهذا النـــداء ، اما ترونهم عندما قال عيسى بن مريم من معيني في الدعوة إلى الله ؟ قام منهم حواريوه فأجابوا لهذا النداء ، فبعثهم دعاة إلى الناس في بلادالشام في الاسرائيليين واليونانيين، فـآمن قسم من بني اسرائيل بما جاء به عيسى عليه السـلام ، وكفر قسم منهم ، فجحدوا نبوته ورموه وأمه بعظائم التهم ـ وهم هم اليهود عليهم لعنة الله ـ

ولكن الله تعالى أيد الذين آمنوا بعيسى عليه السلام وجعلهم يتحكمون باليهود ، وأظهرهم عليهم ، وان كل مالاقاه اليهود في تاريخهم الطويل من اضطهـاد ومهانه كان على يد النصاري الى أن كان عام ٦١٤ حين استولى الفرس على القدس فمنعوا النصارى من اطهاد اليهود ، وبقي الحال كذلك حتى عام ٦٢٨ حيث خرج الفرس وعاد الاطهاد حتي كانت سنة ٦٣٦ م حيث فتح المسلمون القدس ،وأعلنوا حرية الأديان ، وعاش اليهود في بحبوحة ... واليوم جازى اليهود المسلمين كما يجزي سنمار ، فتحالف الاستعمار والصهيونية على حرب الاسلام

وبعد : أما آن للعرب المسلمين ان يفتحوا عيونهم ليروا حقيقة الخطر المحدق بهم وليعرفوا مكمن الداء ليسهل عليهم انتقاء الدواء .

ان الاستعمار قد تكالب علينا ، وهو لم يعد يلجأ إلى جر الجيوش واحتلال

الأرض ، ولكنه بدأ يلجأ إلى تأسيس المدارس وفتح الجامعات ،وانشاء الجمعيات وتأسيس الأحزاب ، ليسمم أفكار المسلمين ويوقع بينهم التفرقة ، ويشن بعضهم حرب المبادىء والأفكار على بعض ، وبذلك يصل الى غرضـــه الأصيل وهو ضرب الاسلام في الصميم ، وتلاشي قوة ستمائة مليون من المسلـــين بعد نزع الايمان من صدورهم.

فافتح عينك أخي المسلم... فان الخطر محدق ... ونتائجه سوداء كالحة...

سورة الحشر

نزلت بالمدينة المنورة بعد سورة البينة

النص : ١ ـ سبَّح للهِ ما في السمـوات وما في الارض وهو العزيزُ الحكيم ، هو الذي أخرَج الذين كفروا مِنْ أهْلِ الكِتابِ من دِيارِهِمْ لاوَّلِ الحَشْرِ ما ظننْتُمْ أن يَخْرُجوا وظَنُّوا أنهم ما نِعتُهُمْ حُصونُهم مِنَ اللهِ فأتاهم اللهُ مِنْ حيثُ لم يَحْتَسِبوا وقَذف في قُلوبِهِمُ الرُّعْب يَخْرِبونَ بيُوتَهُمْ بأيْديهِمْ وأيْدي المؤمِنين فاعتَبِروا يا أُولى الابصار ، ولولا أنْ كَتَبَ اللهُ عَليْهِمُ الجَلاءَ لعذَّبهمْ في الدنيا ولهم في الآخرةِ عذابُ النَّارِ ، ذلك بأنهمْ شاقُّوا اللهَ ورسولَه ومَن يُشاقِقِ اللهَ فان اللهَ شديدُ العِقاب ، ما قَطعْتُمْ من لينةٍ أو تَرَكْتُموها قائِمَةً على أصولِها فبِأذنِ اللهِ ولِيُخْزِيَ الفاسِقين .

٢ ـ وما أفاءَ اللهُ على رَسولِهِ مِنْهُم فما أوْجَفْتُمْ عليه مِنْ

خَيْلٍ ولا رِكابٍ ولكن اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَه على مَنْ يَشاءُ واللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، ما أفاءَ اللهُ على رسولِهِ من أهْلِ القُرى فلِلّه وللرَّسولِ ولذي القُرْبى واليَتامى والمَساكينِ وابنِ السَّبيلِ كي لايكونَ دُولَةً بيْنَ الاغْنياءِ منكم وما آتاكم الرسولُ فَخُذوه وما نَهاكم عنه فانْتَهوا واتَّقوا اللهَ إن اللهَ شديدُ العِقابِ .

٣ ـ لِلْفُقَراءِ المُهاجِرين الذين أُخْرِجوا مِنْ دِيارِهِمْ وأَمْوالِهِم يَبْتَغونَ فَضْلاً مِنَ اللّهِ ورِضْواناً ويَنْصُرون اللهَ ورسُولَه أولئك هم الصادِقون ، والذين تَبَوَّأوا الدارَ والايمانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبونَ مَنْ هاجَرَ إليْهم ولا يَجِدونَ في صدورِهِمْ حاجَةً مما أُوتوا ويُؤْثِرون على أَنْفُسِهِم ولو كان بهمْ خَصاصَةٌ ومن يوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هم المُفْلِحون ، والذينَ جاؤوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقولون رَبَّنا اغْفِرْ لنا ولاخْوانِنا الذينَ سَبَقونا بالايمانِ ولا تجعل في قُلوبِنا غِلاً للذينَ آمَنوا ربَّنا إنَّك رَؤوفٌ رَحيمٌ .

٤ ـ ألم تَرَ إلى الذين نافَقوا يَقولون لاخْوانِهِم الذين كَفَروا

مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لئن أُخْرِجْتُم لنَخْرُجَنَّ معكم ولا نُطيعُ فيكم احداً أبداً ، وإنْ قوتِلْتُم لننصرنكم ، والله يَشْهَدُ إنَّهم لكاذبون ، لئن أُخْرِجوا لا يَخْرجُون معَهُمْ ولئنْ قوتِلوا لا يَنْصرونَهم ولئن نَصَروهم ليُوَلُّنَّ الادْبارَ ثم لا يُنصَرون ، لأنتم أشدُّ رهبَةً في صُدورِهم مِنَ الله ذلكَ بأنهم لا يَفْقهون ، لا يُقَاتِلونَكم جميعاً إلاّ في قُرى مُحَصَّنةٍ أوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بأسُهم بينهم شَديدٌ تَحْسَبُهم جميعاً وقلوبُهم شَتَّى ذلك بأنَّهم قَوْمٌ لا يَعْقِلون ، كمَثَلِ الذين مِنْ قبلِهم قريباً ذاقوا وبالَ أمْرِهِمْ ولهم عَذابٌ اليم ، كمَثَلِ الشَّيْطانِ إذْ قالَ للانسانِ اكْفُرْ ، فلما كَفَرَ قالَ إني بريءٌ منك إنيّ أخافُ اللهَ ربَّ العالمين ، فكانَ عاقِبَتَهُما أنَّهُما في النارِ خالدين فيها وذلك جَزاءُ الظالمين .

٥ ـ يا أيها الذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ ولْتنظرْ نَفْسٌ ماقَدَّمتْ لِغدٍ واتَّقوا اللهَ إن اللهَ خبيرٌ بما تعملون ، ولا تكونوا كالذينَ نَسوا اللهَ فأنساهم أنْفُسَهُم اولئك هم الفاسِقون ، لا يَسْتَوي اصحابُ النارِ واصحابُ الْجنَّةِ اصحابُ الْجنَّة هم الفائزون.

٦ ـ لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم .

شرح الكلمات : سبح لله : نزه الله وشهد له بالكمالات ـ من اهل الكتاب : المراد بهم بني النضير ـ من ديارهم : كانت ديارهم بالمدينة المنورة ـ لأول الحشر : عند أول الحشر ، والمراد بأول الحشر : أول جمع لهم واخراج من المدينة المنورة ـ حصونهم : جمع حصن وهو المكان المحمي المنيع ـ فأتاهم الله : أي أتاهم عقاب الله ـ من حيث لم يحتسبوا : من حيث لم يخطر ببالهم وهو قتل رئيسهم كعب بن الاشرف على يد أخيه رضاعاً ـ الجلاء : الخروج من الوطن ـ شاقوا الله : خالفوا الله ـ اللينة : النخلة الكريمة ـ ما افاء الله على رسوله : ما اعطاه من الغنائم ـ أوجفتم : يقال أوجف الفرس إذا جعله يعدو عدواً سريعاً وأوجف بمعنى اسرع ـ ركاب : جمال ـ كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم : كيلا يكون غنماً فاحشاً تتكاثرون به وتتفاخرون ـ يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً : يطلبون الجنة ورضاء الله ـ تبوأوا الدار والايمان : تواطنوا في المدينة وأخلصوا الايمان ـ خصاصة : فقر وضيق ـ غلاً : حقداً ـ لا نطيع فيكم : لا نطيع في قتالكم ـ قلوبهم شتى : قلوبهم متفرقة ـ الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله تعالى ـ القدوس : المنزه عن النقائص ـ السلام : الذى سلم الخلق من ظلمه ـ المؤمن : واهب الأمن ـ المهيمن : الرقيب على كل شيء ـ الجبار : العالي العظيم ـ البارئ : الموجد ـ

المصور : واهب الصورة في الأرحام ـ له الاسمـــاء الحسنى ـ له الصفات الدالة على العلاء ـ

اسباب النزول: ١ ـ روي البخاري عن سعيد بن جبـــير قال : قلت لابن عباس سورة الحشر ؟ قال سورة بني النضير . وهذا يعني أن هذه السورة قد نزلت في بني النضير تحكي لنا قصة هؤلاء القوم الذين غـــدروا برسول الله ﷺ وحاولوا قتله مع أنهم في حلف معه ، فحاصرهم الرسول ﷺ وأجـلاهم عن حيهم وجمع رسول الله ﷺ ما غنمه منهم دون قتال وقال للانصار «ان شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة ، وان شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة ، فقالت الانصار بل نقسم من اموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، وفي هذا نزل قوله تعالى « للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وينصرون الله ورسوله وأولئك هم الصـــادقون . والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هـــاجر اليهم ولا يجـــدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ».

٢ ـ لما نزل رسول الله ﷺ ببني النضير ، وتحصنوا في حصونهم أمر بقطع نخيلهم واحراقها ، فجزع أعداء الله عند ذلك وقالوا :

زعمت يا محمد انك تريد الصلاح ، أفمن الصلاح عقر الشجر وقطع النخيل؟ وهل وجدت فيما زعمت انه أنزل عليك الفســاد في الأرض ؟ فشق ذلك على النبي ﷺ ووجد المسلمون في انفسهم من قول بني النضير شيئاً ، وخشوا أن يكون ذلك فساداً ،فاختلفوا في ذلك ، فقال بعضهم : لاتقطعوا فانه مما أفاء الله علينـــا ، وقال بعضهم : بل اقطعوا ، فأنزل الله تعالى « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبأذن الله » تصديقاً لمن نهى عن قطعه ، وتحليلاً لمن قطعه ، واخبر أن

قطعه وتركه باذن الله.

٣ ـ روي البخاري ومسلم وغيرهما عن ابي هريرة قال : اتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أصابني الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبي ﷺ « الا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله » فقام رجل من الانصار (ابو طلحة) فقال أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً ، فقالت : والله ما عندي الا قوت الصبية ، قال : فاذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالي فاطفيء السراج ونطوي بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال « لقد عجب الله عز وجل ـ أو ضحك ـ من فلان وفلانة » وانزل الله قوله تعالى « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة »

مهم روح السورة : تبدأ هذه السورة وتنتهي بتسبيح الله وان كل ما في هذا الكون من افلاك واشجار وانهار وحيوانات وغيرها ، دليل على اتصاف الله بالكمالات ، وتنزيه له عن النقائص ، وان هذا الكون الكبير يلهج بذكر الله وتسبيحه ، قال تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » وكيف لايسبح له كل شيء ، وهو المنيع الجناب ، الحكيم في تقديره ، ومن حكمته سبحانه أنه هو الذي مكن المسلمين من اليهود ـ بني النضير ـ فأخرجوهم من المدينة المنورة ، وكانوا قد عقدوا مع الرسول ﷺ عهداً على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا عهدهم عندما خرج الرسول إليهم يطالبهم بتنفيذ العهد الذي بينهم وبينه بالمشاركة بدية قتيلين . فما كان منهم الا أن تآمروا عليه ، وحاولوا اغتياله ، ولكن الله نجى رسوله من هذه المؤامرة الدنيئة ، وأمر أصحابه بالاستعداد لحرب بني النضير ... وحاصرهم الرسول ﷺ حتى تم أمر جلائهم عن المدينة ، فذهب قسم منهم إلى اذرعات من بلاد الشام ، وقسم منهم إلى خيبر ، أخرجهم الله من المدينة المنورة ،

والمسلمون يظنون أنهم لن يخرجوا ، لشدة بأسهم ، ومنعتهم ، ووثاقة حصونهم ، وكثرة عددهم وعدتهم ، وظن بنو النضير أن المسلمين لايقدرون عليهم ، نظراً لقوة حصونهم ، واعتقدوا ان حصونهم تمنعهم من وصول المسلمين إليهم ، حتى انستهم هذه القوة قوة الله التي لاترد ها الحصون ، ولا تنفع أمامها العدة ولا العدد ، ان الاستيلاء عليهم أتاهم من داخل أنفسهم ، حيث ألقى الله في قلوبهـــم ارعب ، فخارت قواهم ، وتهدمت معنوياتهم ، وخاصة عندما قتل زعيمهم كعب بن أشرف على يد أخيه من الرضاع ، ولما لم تبق لهم يد تحمل السيف ، ولا رأس يرفع في وجه الحق ، خرجوا ... ولم ينسوا قبل أن يخرجوا أن يهدموا بيوتهم بأيديهـــم ، حتى لايستفيد منها المسلمون ، وبينما هم يهدمون بيوتهم بأيديهم ، كان المسلمون يهدمون الحصون ليتسع لهم الحرب ... وهنا يأتي التعقيب الرائع على هذه الحادثة « فاعتبروا يا أولى الابصار » انظروا أيها الناس في عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله ، وكذب كتابه ، كيف يحل به بأس الله يرافقه الخزي والعار ، ولربما قال قائل إن هؤلاء لو قاتلوا ربما كان أمرهم أحسن من هذه الحال . ولكن هذا القائل مخطىء كل الخطأ ، اذ انهم لو لم يجلوا عن المدينة ، لمكن الله المسلمين منهم ، فأعملوا فيهم السيف ، فيقتلون من يقتلون ، ويسبون من يسبون ، وعلى كل حال فان هذا أمر هين وبسيط بالنسبة لما اعده الله لهم في الآخرة من العذاب العظيم ، جزاء للجريمة الكبرى التي ارتكبوها ، ذلك بأنهم خالفوا كتاب الله ، وسنة رسوله ، وتحدوا الأوامر الالهية ، وما جزاء من يفعل ذلك الا العقاب الشديد.

ومن المقرر في الاصول : أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، ومعنى هذا ، أن هذه الآيات وان كانت نزلت في بني النضير ، الا أن معنـــاها عام للناس جميعاً ، إن من يتنكب عن طريق الاسلام ، يخـــذله الله في الدنيا ، وله عذاب اليم في الآخرة ، ونحن نجد هذا في أمتنا اليوم ، أين عزها ، وأين سؤددها ، وأين هيبتها في قلب العدو ... انه اصبح هباء تذروه الرياح ، وما ذلك إلا لأنهـا تركت أمر الله ، وليت هذا يكون كفارة لها يوم القيامة فيحميها من عذاب الله الأليم ، وكثيراً ماتردد هذا المعنى في القرآن الكريم قال تعـــالى « ومن يشاقق

الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم ... » وقال « ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقـــاب » نعوذ بالله من ذلك .

٢ ــ دالت دولة بني النضير واصبح ما لهم في يد المسلمين فيئاً ، وأحكام الفيء تختلف عن أحكام الغنائم ، فالغنائم يؤخذ خمسها لبيت مال المسلمين ، ويوزع أربع أخماسها على المحاربين ، أما الفيء فلا شيء منه للمحاربين ، ولكن يوزعـــه القائد الاعلى بما تتحقق به المصلحة .

وتكون الغنائم بعد الحرب بما فيها من مبارزة وكر وفر ، ويكون الفيء بعد تسليم العدو من غير قتال .

وهنا يذكر لنا الله سبحانه هذا كله باسلوب القرآن المعجز ... وان التعبير بـ « ما افاء » يحوي نكتة خاصة قال ابن العربي « ما أفاء » يريد « مارد » وحقيقة ذلك : أن الاموال في الارض للمؤمنين حقاً ، ولعله يشير بذلك الى معنى قوله تعالى « ان الأرض يرثها عبادي الصالحون » فيستولى عليها الكفار مع ذنوبهم عدلاً فاذا رحم الله المؤمنين وردها عليهم من أيديهم ، رجعت في طريقها ذلك ، فكان ذلك فيئاً ، ان ماتركه بنو النضير من مال ومتاع وأسلاب ، ليس غنيمة لكم أيهـــا المؤمنون ، وانما هو فيء يوزعه الرسول ﷺ على حسب المصلحه ، لأنكم لم تحصلوا عليه نتيجة حرب وكر وفر واسراع على الخيل والجمـــال ، ولكن الله سبحانه ألقى في قلوب بنى النضير الرعب ، فانقط بأيديهم وسلط رسوله ﷺ عليهم ، فحصلتم على ما حصلتهم عليه من المال والأسلاب ، لابحربكم ولكن بتسليط الله لرسوله على هؤلاء القوم ، والله قادر على أن ينصر قوماً على قوم دون قتال ، كما فعل في بني النضير ، وهنا يبرز دور النبوة والانبياء ، وتأييد الله لهم ، ونصرهم ولو دون حرب ، وليتصرن الله من ينصره ... ألم يقل الرسول ﷺ « اعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الانبياء قبلي ، نصرن بالرعب مســـيرة شهر ، وجعلت لي الارض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي ادركته الصلاة فليصل

واحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، واعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » -البخاري ومسلم-

هذا هو حكم أموال بني النضير التي لم يتكلف المسلمون في الاستيلاء عليها أي عبء ، فقد كان بنو النضير يبعدون عن المدينة ميلين فقط ، خرج الصحابة إليهم راجلين إلا رسول الله ﷺ فقد كان يركب جملاً.

وهنا قد يعرض سؤال وهو: هذا هو حكم أموال بني النضير التي لم نسر إليها طويلاً ، ولم تعاني قتالاً ، فما حكم الفيء من غيرهم ؟ ويكون جواب الله « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ...»

إنه أيضاً لا يوزع بين أفراد الجيش ، ولكنه يكون في صالح المجموعة ، حيث يأخذ الرسول ﷺ منه كفايته من المؤنة ، ويعطي منها لذوي قرابته ، لأنهم يحرم عليهم أن يأخذوا شيئاً من الصدقات وأموال الزكاة ، وفيهم الفقراء ، فقد أبد لهم الله ذلك كله بسهم جعله لهم من الفيء ، كما يعطى قسماً منه للفقراء ولمن حبسه فقد المال عن الوصول إلى أهله و ...

فآية ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى إذن هي بيان وشرح الآية الاولى « وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم ...» ويقوى هذا الوجه من التفسير انه لا يوجد حرف عطف بين الآيتين ، حيث قال تعالى « وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما افاء الله على رسوله من اهل القرى ...» ولم يقل ... (و) ما افاء الله على رسوله من اهل القرى ... » لانه لو أتى بالواو لكان معنى الآية الثانية غير معنى الآية الأولى لان العطف يقتضي المغايرة . كما هو معروف من قواعد اللغة العربية .

وهذا الفهم هو الذي فهمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الآية عندما فتحت عليه اراضي العراق ، فانه لم يوزع الاراضي بين المحاربين ، وانما جعلها

في صالح المسلمين جميعاً ، وسنورد لك فيما بعد قصة ذلك بتمامها . وإن الغاية التي لم يجعل الله اموال الفيء للمحاربين ، وانما جعلها في صالح المجموع ، لان المحاربين اذا كانوا سيأخذون من الغنائم ومن الفيء ، سيبلغ بهم الغني مبلغاً عظيماً ، والله سبحانه جعل المال لا ليكون بيد فئة واحدة من الناس ، ولكن ليكون متداولاً بين الجميع ، وإنها لقاعدة عظيمة اوردها القرآن « كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » تشكل اساساً من اسس الاقتصاد الاسلامي ، اذ ان كل تنظيم يؤدي إلى منع تداول المال وحبسه لدي فئة معينة من الناس ، هو تنظيم مجرم لا يقره الاسلام ولا يعترف عليه ، وفعلاً فقد اقام الاسلام بناءه الاقتصادي بناء على هذه النظرية « كي لا يكون دوله بين الاغنياء منكم » ففرض الزكاة في النقود وعروض التجارة والاغنام والزرع والركاز ـ المعادن الجوفية ـ و ... وحرم الاحتكار والربا والغش و ..... واوجب الميراث بين عدد كبير من الوارثين ....و...

وان هذا الحكم في التنظيم الاقتصادي ... وان هذا الحكم في حرمان المحاربين من الفيء ، وإعطائهم من الغنيمة ، حكم صادر عن الله ، وما على المؤمن إلا ان ينصاع لامر الله وامر رسول الله ، لأن أمره كأمر الله ، ونهيه كنهي الله ، وشرط الايمان أن ينصاع المؤمن لاحكام الرسول ﷺ قال تعالى « فوالله لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » يسمعون ويطيعون وان كان في ذلك اضرار بمصالحهم الشخصية لان امر الرسول ﷺ يبغي المصلحة العامة ، والمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة . ومن يطع امر الرسول ﷺ فقد اتقى عذاب الله وعقابه وعقاب الله شديد .

٣ ـ وشرعت الآيات الكريمة تبين الذين يوزع عليهم الفيء .

١ ـ الفقراء المهاجرين : وهم الذين هاجروا مع رسول الله (ص) من مكة الى المدينة ، فقد كانت لهؤلاء اموال وديار في مكة فتركوها لعدوهم وآثروا دين الله ، فخرجوا الى المدينة تلبية لنداء رسوله ، تاركين أموالهم واراضيهم

وهكـــذا أصبحوا في المدينـــة فقراء ، اختاروا الفقر اختياراً ، وكان بلستطاعتهم البقاء في مكة ، والحفاظ على اموالهم لو اطاعوا شياطينهم ، وعبـــدوا ما تعبد قريش ، ولكنهم رفضوا فأخرجوا من بلدهم مكة ، فخرجوا يطلبون الجنة ورضوان الله ، خرجوا ينصرون الله ورسوله بقلوبهم وسيوفهم ، انهم قـــد بلغوا الذروة من الايمان ، وصدق عملهم ايمانهم ، فهاجروا إلى الله ورسوله انهم من اجل ذلك يستحقون حصتهم من الفيء ، ويدخل فيهم آل الرسول (ص) باعتبارهم من المهاجرين أيضاً .

ب ـ الأنصار : انهم يستحقون من الفيء ايضاً ، انهم قوم كرام فعلاً ، انهم توطنوا المدينة المنورة ـ دار الهجرة ـ وتوطنوا الايمان فأخلصوا بايمانهم من قبل أن يخرج المهاجرون إليهم ، وحينما خرجوا إليهم شاطروهم اموالهم ، وانزلوهم منازلهم ، روى البخاري عن ابي هريرة قال :

« قالت الانصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال لا ، فقالوا اتكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة قالوا سمعنا وأطعنا » إنهم حينما يعرضون على الرسول (ص) ان يعطوا المهاجرين نصف نخيل المدينة ، انما يفعلون ذلك عن حب خالص لاخوانهم المهاجرين ، وحينما يفضل عليهم المهاجرون ببعض العطايا ـ كما هو الحال في فيء بني النضير حيث اعطى الرسول (ص) للمهاجرين ولم يعط إلا لاثنين من الانصار كانوا فقراء ـ لا يحسدون ، ولا يجدون في انفسهم شيئاً عليهم ، وإنما هو الحب والاخلاص والانصياع لامر الرسول والاعتقـــاد بأن الرسول (ص) لايتعصب ، ولا ينحاز ، وانما يفعل ما يفعله لمصلحة ، ان الانصار قوم كرام ... انهم آثروا اخوانهم المهاجرين على أنفسهم ، وبعض هؤلاء الانصار كان بحـاجة لما أعطى ، ولاغرابة أن يصدر منهم ما صدر ، بعد ان هذبت نفوسهم بنور الايمان الذي اقتلع من نفوسهم الحرص على منع العطاء ، ومن يستطع أن يقي نفسه من الشح ، يستطيع أن يسمو إلى العلاء في الدنيا والآخرة ، فهو يدفع ويدفع ويدفع في سبيل الله وفي وجوه الخير .

روى البخاري عن جابر بن عبدالله ان رسول الله (ص) قال « اياكم والظلم

فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح اهلك من كان قبلكم حملهم على ان سفكوا دماءهم واستحلوا محرماتهم » وان الذي يدل على اتقـــاء الشح : الاعطاء حينما يكون المعطي محتاجاً لما أعطاه قال رسول الله (ص) «افضل الصدقة جهد المقل » ـ ابو داود والحاكم ـ قال ابن كثير « وهـــذا المقام اعلى من حال الذين وصف الله بقوله « ويطعمون الطعام على حبه » وقوله « وآتي المال على حبه» فان هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به وقد لا يكون لهم حاجة اليه ولا ضرورة به وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم الى ما انفقوه.

جـ ـ المؤمنين الذين يأتون بعد المهاجرين والانصار : إن هؤلاء المؤمنين يحفظون جهود صحابة رسول الله من المهاجرين والانصـــار ، ويحفظون جهـود السلف الصالح الذين عملوا على ايصال دين الله إليهم ، والذين فتحوا البـــلاد ، وأناروا الطريق للعباد ، انهم لا يسعهم إلا الدعاء لهم ، والتوجه إلى الله بأن يغفر لنا ولهم الذنوب ، ورفع الايدي إلى السماء طالبين من الله سبحانـــه أن لا يدخل في قلوبنا حقداً ولا ضغينة لهؤلاء السلف الكرام ، ولا لغـيرهم من المؤمنين، ليس لنا الا ان نفعل ذلك مستنجدين بربنا الرؤوف الرحيم.

قال سيد قطب معلقاً على هذه الآيات « وتتجلى من وراء تلك النصوص طبيعة هذه الامة المسلمة وصورتها الوطنية في هذا الوجود ، تتجلى الآصرة القوية الوثيقة التي تربط أول هذه الامة بآخرها ، وآخرها بأولها في تضامن وتكافل وتواد وتعاطف وشعور بوشيجة القربى العميقة التي تتخطى الزمان والمكان والجنس والنسب وتتفرد وحدها في القلوب ، تحرك المشاعر خلال القرون الطويلة، فيذكر المؤمن أخاه المؤمن بعد القرون المتطاولة كما يذكر أخاه الحي ، أو أشد ، في اعزاز وكرامة وحب، ويحسب السلف حساب الخلف ،ويمضي الخلف على آثار السلف ... صفاً واحداً وكتيبة واحدة على مدار الزمان واختلاف الاوطان ، تحت راية الله تغذ السير صعيداً إلى الافق الكريم متطلعة إلى ربها الواحـــد الرؤوف الرحيم .

ولننتقل الآن إلى جو الصحابة رضوان الله عليهم بعد أن فتحت عليهم

أراضي العراق في عهد عمر بن الخطاب لنعلم مدى اهتمام هؤلاء الأصحاب الكرام بمن يأتي من هذه الامة، ولنعلم كيف فهموا هذه الآيات الكريمة قال الاستاذ مصطفى الزرقا في المدخل الفقهي العام « فلما فتح سواد العراق في خلافة عمر، طالب الفاتحون بتقسيم أراضيه بينهم كالغنائم، وكان رأي عمر عدم جواز تقسيمها، فجمع الناس واستشارهم، فكان رأي عامتهم تقسيمها الا عليا وعثمان وطلحة ومعاذ بن جبل فقد كان رأيهم كرأي عمر، وقال له معاذ: انك ان قسمتها صار الريع العظيم في أيدي هؤلاء القوم، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة، ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون من الاسلام سداً - اي يكون لهم في الاسلام بلاء حسن ونفع - وهم لايجدون شيئاً، فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم » فأبى الفاتحون في طلب تقسيم الارضين عليهم بعد تخميسها، بحجة ما فعله النبي بخيبر وامتنع عمر عن تقسيمها فرأي ان البلاد المحيطة قد تم فتحها وان الاراضي في، فلا يستحق الفاتحون ملك اعيانها بل للامام النظر فيها بما هو أصلح لأحيائها وأدوم نفعاً لجماعة المسلمين. وانما قسم النبي عليه السلام ما قسمه من أرض خيبر اذ رأى المصلحة في ذلك لحاجتهم حينذاك إلى الارض فمكثوا يتناقشون أياماً حتى قال عمر وجدت الحجة عليهم، بآخر آية الحشر، إذ قالت في بيان من يستحقون من الفيء « والذين جاؤوا من بعدهم » فقال عمر « ما أرى هذه الآية الا قد عمت الخلق كلهم حتى الراعي بكداء »

وقال لهم تريدون أن يأتي آخر الناس ليس لهم شيء فما لمن بعدكم؟ ولولا آخر الناس ما فتحت قرية الا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر » فأجمع أن تبقى الأراضي والأنهار لأهلها وعمالها وان يفرض عليها الخراج وأمر عمر أن يفعل كذلك بأراضي مصر لما وقع فيها نظير هذا الخلاف بين الزبير بن العوام وعمرو بن العاص أمير مصر»

٤ — وتجاه هذه الصورة الوضيئة للمهاجرين والأنصار، ومن تبعهم باحسان من المؤمنين، يعرض القرآن صورة أخرى ملوثة، مليئة بالكذب

والاحتيال ، انها صورة المنافقين ، أمثال عبدالله بن أبي وأضرابه ، إن هؤلاء أظهروا الاسلام ، وقلوبهم مليئة بالحقد عليه ، إنهم قالوا لبني النضير قاتلوا محمداً وأصحابه ونحن معكم ، وقد وضعنا المخطط لاسوأ الاحتمالات ، إذ أن نتيجة قتال محمد واصحابه لكم اما أن يكون اخراجكم من بلادكم ، وإما أن يكون قتال ينتصر فيه أحد الطرفين ، فان اخرجكم محمد من بلدكم لنخرجن معكم ، وان جمع محمد الجموع لقتالكم فاننا سنخذل هذه الجموع فننسحب من بينها ، ولا نقاتلكم مع محمد واصحابه ، ولا نطيع له ولا لأحد من أصحابه أمراً بذلك ، فينفرط الجيش ويتفرق المحاربون ... وان لم ننجح في تخذيل المسلمين عنكم وصمموا على قتالكم فاننا سنكون بجانبكم نقاتل المسلمين .

وهنا يجدر بنا ان نقف وقفة قصيرة عند التعبير القرآني « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون (لاخوانهم) الذين كفروا من أهل الكتاب » ولنلاحظ كلمة « إخوانهم » إن المنافقين ليسوا إخوة في النسب ، وإنما هم إخوان في الكفر ، وإخوان في حرب المسلمين والكيد للدعوة الاسلامية ، ولذلك استعمل القرآن كلمة « اخوان » ولم يستعمل كلمة « إخوة » لأن كلمة أخوة تستعمل لأخوة النسبة والاخوان تستعمل لأخوة الفكر والمبدأ.

ولنعد إلى هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النضير بالنصر على كل حال... والله عليم بحقيقة الأمر، انهؤلاء المنافقين كاذبون ، لأنهم إن أخرجهم الرسول من بلدهم سيؤثرن مصالحهم الذاتية فلا يخرجون معهم ، وان قاتلهم الرسول ﷺ سوف لاينصرونهم ، حتى وإن نصروهم سيغلبون ، وستكون الدائرة عليهم ، ويفرون من المعركة وينكس لهم كل علم ، ويطأطأ منهم كل رأس ... وقد سكت القرآن عن تخذيلهم للمسلمين ، والواقع أنهم فعلوا ذلك ولكن المؤمنين الصادقين نبذوا أقوالهم ، ونظروا إليهم نظرة الريبة ، ولذلك لم ينبسوا ببنت شفة ،ولجأوا إلى أنفسهم مخلفين وعدهم لبني النضير حينما وعدوهم بالنصر ، وما ذلك الا لأنهم يخافون المسلمين اكثر مما يخافون الله ، لأنهم لو خافوا الله سبحانه لأخلصوا له

الايمان ، ولو خافوا الله لما حالفوا أعداء الله من بني النضير ، إنهم لا يعلمون حقيقة عظمة الله حتى يخشوه حق الخشية ، ولو علموا لخافوه .. واكبر دليل على انهم يخافون المسلمين اكثر مما يخافون الله ، أنهم لا يقاتلون المسلمين جميعاً ـ اليهود والمنافقين ـ الا وهم مختبئون في الحصون أو لائذون خلف الجدر خوفاً من القتل .

والحقيقة ان المنافقين والكافرين متفرقوا الأهواء والمنازع ، فعندما يسمع المؤمن خبر تحالفهم يحسبهم قد اصبحوا يداً واحدة ، والحقيقة غير ذلك،ان قلوبهم غير مؤتلفة وخلافهم بينهم شديد ،ان هؤلاء الكافرين يعتقدون ان الحرب بالحرف الواحد تعني: القوة ثم النصر ، لا ... ان اجتماع الاعدادمع استحكام العداوة ، وتفرق الاهداف ، وتشعب المنازع ، وتنافر القلوب ، لا يشكل قوة ، ولا يأتي بنصر .

هذه حقيقة يكشفها القرآن الكريم للمؤمنين ليقوي عزيمتهم ، ويرفع هيبة الأعداء من قلوبهم ، بل ويقيم لهم الدليل المادي الملموس على صحة هذه الحقيقة وذلك عندما حاربوا يهود بني قينقاع ، إن حال هؤلاء مثل حال أولئك ، الم يتحالف النفاق مع الكفر ؟ ان الحادث ليس ببعيد إنه لم يمض عليه اكثر من سنتين ، وما كان للمسلمين أن ينسوا ما قاله بنو قينقاع للرسول ﷺ بعد ان انتصر في بدر « يا محمد انك لترى انا قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، انا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس » ويوم أن خرجت إمرأة إلى سوقهم ووقفت عند صائغ منهم فعمد هذا الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فقتل أحد المسلمين الصائغ ، ثم وثب بنو قينقاع على المسلم فقتلوه . . وسار إليهم الرسول ﷺ فحاصرهم، وهنا برز الحلف بين المنافقين الذين يرأسهم عبدالله بن ابي بن سلول وبين يهود بني قينقاع ، ولكن هذا الحلف لم يكن ليقف أمام النصر الذي اراده الله للمؤمنين ، إنه تحالف النفاق مع الكفر ...

إنها هي الحادثة التي يذكر القرآن بها المؤمنين ويقول لهم إن مثل بني النضير كمثل بني قينقاع، فلا يهمكم أمرهم، فان الذي نصركم على بني قينقاع سينصركم على بني النضير.

وينهي القرآن الكريم قصة بني النضير بهذا المثل المؤثر الذي يأخذ في النفس مأخذه، ممثلاً المنافقين بالشيطان، وبني النضير بالانسان، عندما يقول الشيطان للانسان اكفر بالله وما أن يكفر حتى ينسحب الشيطان بانتظام ليعلن براءته مظهراً خوفه من الله عز وجل، ولكن اني له هذا، فان النار تنتظر الاثنين معاً، كما قال تعالى «قال قرينه ربنا ما اطغيته ولكن كان في ضلال بعيد. قال لاتختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد ...» وهؤلاء المنافقون غرروا ببني النضير، ووعدوهم للنصر ثم انسحبوا بانتظام، والله سبحانه قد اعدالناروالعذاب للمنافقين واليهود معاً ..

٥ — ويهتف النداء الآلهي بالمؤمنين آمراً إياهم اتقاء عذاب الله، والتزود بالعمل الصالح ليوم القيامة، يوم الحساب، ولحساب النفس قبل موعدالحساب، وللتطلع إلى المستقبل العظيم الذي لاينفع فيه مال ولا بنون، «ولتنظر نفس ماقدمت لغد» إنها معان تدخل إلى القلب فتتركه يقظاً لاينام، ومتنبهاً لا يغفو، ومراقباً لايفتر، وذاكراً لاينسي، ومحاسباً لايضل، ليعرف ما قدم لغد وتعود الآيات القرآنية لتؤكد معنى التقوى، ولتذكرنا بأنه لاداعي للتظاهر بالتقوى مع فقدها، ولا محل للرياء لأن الله يعلم كل مانعمله.

ويأمر سبحانه المؤمنين بأن يذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، كما يأمرهم بأن يكونوا مع الله دائماً فلا ينسوه ... ان الذي ينسى الله يهيم في هذه الحياة، يجمع من حلالها وحرامها حتي ينسى مهمته كانسان، فيتجرد من انسانيته فينساها، وينسى كل عمل صالح يخدم أمته ومبادئه ...

ان هؤلاء الناس هم الخارجون على مبادىء السماء، الخارجون عن طاعة الله، الخارجون عن مبادىء الحق، كما قال تعالى «يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم

أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » ، واشعاراً بأن هذا النموج من الناس في النار قال تعالى « لايستوي اصحاب النار واصحاب الجنة اصحاب الجنة هم الفائزون » حقاً إن الذين نسوا الله لايقاسون بمن آمنوا بالله وعملوا الصالحات كما قال تعالى « ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ، أم نجعل المتقين كالفجار»

٦ — ثم تلتفت الآيات الكريمة إلى المؤمن لتؤكد له عظمة القرآن كلام الله وعظمة الله العلي العظيم ، وهي تحمل في ضمنها تأنيباً ضمنياً للناس ، إنها تقول: لو أن الجبل في غلظته وقساوته فهم هذا القرآن وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله ، فكيف يليق بكم ايها الناس أن لاتلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره ، وتدبرتم كتابه ...انه مثال لحقيقة ، يضربه الله سبحانه للناس ليقرب هذه الحقيقة إلى افهامهم فيعقلوا معناها لعلهم يتفكرون بعظمة الله وعظمة كلامه ، ويتجهون إلى دراسته ، فيزداد إيمانهم ، وتسمو نفوسهم ويصلح عملهم ، فيكونون مؤمنين حقاً « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون »

وليس عجيباً أن يكون للقرآن هذا الأثر ، وهو الصادر عن الله الذي لا اله إلا هو عالم السر والعلانية ، والدنيا والآخرة ، وكل موجود ، الموصوف بالرحمة ، الاله الذي لايزول ملكه ، المنزه عن كل النقائص ، المتصف بسائر الكمالات ، الذي سلم الخلق من ظلمه ، الواهب الايمان ، الرقيب على كل شيء ، الغالب غير المغلوب ، العالي العظيم ، الذي يذل له من دونه ، البليغ في الكبرياء والعظمة ، المنزه سبحانه عما يصفه به المشركون من صفات لاتليق بسبحانه ، انه سبحانه هو المقدر لما يوجد ، والموجد لما قدر ، المعطي الملامح الواضحة للمخلوق ، له سبحانه الصفات التي تليق بجلاله سبحانه ، انه يعترف ويشهد له سبحانه بصفات الكمال ، والارادة المطلقة ، كل ما في السماوات والارض من نجوم وشجار ونهار ومخلوقات .

فقه السورة :

١ — تبين لنا هذه السورة اعتباراً من قوله تعالى « ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى » إلى قوله « ربنا إنك رؤوف رحيم » أحكام الفيء وفي أي الوجوه يصرف ،وقد رأينا أنه يصرف للفقراء المهاجرين والانصار ومن تبعهم باحسان الى يوم القيامة .

٢ — « والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » استدل بعض العلماء من هذه الآية الكريمة أن من يلعن الصحابة لايستحق شيئاً من الفيء .

٣— وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا : يستدل بهذه الآية الكريمة على أن السنة النبوية مصدر من مصادر التشريع الاسلامي وأن ما أمر رسول الله كما أمر الله .

٤ — للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ...الآية :

قال الحنفية لايعطي أحد من قرابة الرسول ﷺ شيئاً من الفيء إلا اذا كان فقيراً لأن « للفقراء » بدل من ذي القربى المذكورة في الآية السابقة .

وقال الشافعية ان قرابة الرسول ﷺ يستحقون من الفيء سواء كانوا فقراء أم أغنياء ، لأن « للفقراء » الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف تقديره « اعجبوا للفقراء » وليس بدلاً من « ذي القربى » ويقوي وجهة نظر الشافعية في لجراب « للفقراء » ما نقله « العجيلي » مجيء قوله تعالى « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون » الآيات ... مصدراً « بألم تر » وهي كلمة تعجب لكون ذكرهم جاء مقابلاً لذكر اضدادهم ، وهم « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ...»الآيات ، والذي ذهب اليه الشافعية هو

الصواب ـ والله اعلم ـ

كما أخذ الحنفية من الآية الكريمة « للفقراء المهاجرين » أن الكفار يملكون أموال المسلمين اذا استولوا عليها لأن الله سبحانه سمى المهاجرين فقراء مع انهم لهم أموال في مكة ولكن استولى عليها الكفار.

٥ ـ « لا يستوى اصحاب النار واصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » استدل الشافعية من هـذه الآية على أن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالاستيلاء عليها .

سورة الحجرات

نزلت بالمدينة المنورة بعد سورة المجادلة

النص : ١ ـ يا أيها الذين آمنوا لاتُقَدِموا بين يَدَي اللهِ ورسولِه واتّقوا اللهَ إنّ اللهَ سَميعٌ عليمٌ ، يا أيها الذين آمَنوا لا تَرْفَعوا أصْواتَكم فوق صوتِ النبي ولاَ تَجْهَروا لَه بالقَوْلِ كجهرِ بَعْضِكم لبعض أن تحبَط اعمالُكم وأنتم لا تشعرون ، إنّ الذينَ يَغُضّون أصْواتَهم عندَ رَسولِ الله أولئك الذين امْتَحَن الله قلوبَهم للتّقوى لهم مغْفِرةٌ وأجر عظيمٌ ، ان الذين يُنادونك مِنْ وَراءِ الحُجُراتِ اكْثَرُهم لايَعْقِلون ، ولو انهم صَبَروا حتى تَخْرُجَ اليهم لكانَ خَيْراً لهم واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ .

٢ ـ يا أيها الذين آمَنوا إنْ جاءَكم فاسِقٌ بِنَبَأٍ فتبينوا أنْ تُصيبوا قَوْماً بِجَهالةٍ فتصبِحوا على ما فَعَلْتم نادِمين ، واعلموا أنّ فيكم رسولَ اللهِ لو يُطيعكُم في كثيرٍ من الامْرِ لعَنِتُّمْ

ولكنَّ اللهَ حبَّبَ اليكم الايمانَ وزيَّنه في قلوبكم وكرَّهَ اليكم الكفر والفسوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدون ، فضلاً من اللهِ ونعمةً واللهُ عليمٌ حكيمٌ .

٣ ـ وإنْ طائفتان من المؤمنينَ اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيءَ إلى أمرِ الله ، فانْ فاءَتْ فأصلحوا بينهما بالعدلِ واقسطوا إنَّ اللهَ يحبُّ المقسطين ، انما المؤمنون إخوةٌ فاصلحوا بين أخويكم واتقوا اللهَ لعلكم ترحمون .

٤ ـ يا أيها الذين آمنوا لا يسخرْ قومٌ منْ قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ منْ نساءٍ عسى أنْ يكنَّ خيراً منهنَّ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالالقابِ فبئسَ الاسمُ والفسوقُ بعدَ الايمانِ ومنْ لم يتبْ فأولئكَ هم الظالمونَ .

٥ ـ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً منَ الظنّ إن بعض الظنّ إثمٌ ولا تجسَّسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبُّ احدُكم أنْ يأكلَ لحمَ اخيهِ ميتاً فكرهتموه واتقوا

اللهَ إنَّ اللهَ تَوابٌ رحيمٌ .

٦ ـ يا أيها الناسُ إنَّا خلقناكم مِنْ ذَكَرٍ وأنثى وجعلناكم شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفوا ، إنَّ اكرمكم عند اللهِ اتقاكم إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ .

٧ ـ قالَتِ الأعْرابُ آمنَّا ، قلْ لم تُؤْمِنوا ولكِنْ قولوا اسْلَمْنا ولمَّا يَدْخُلِ الايمانُ في قُلوبِكم وإنْ تُطيعوا اللهَ ورَسولَه لا يَلِتْكم مِنْ أعْمالِكم شَيْئاً إنَّ اللهَ غَفورٌ رحيمٌ ، إنما المُؤمنون الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه ، ثم لم يرْتابوا وجاهَدوا بأمْوالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ في سبيلِ اللهِ أولئكَ هم الصَّادِقونَ ، قل أتُعَلِّمونَ اللهَ بِدِينِكم واللهُ يَعْلَمُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرْضِ واللهُ بكلِ شَيْءٍ عليم ، يَمُنُّونَ عليك أنْ أسلَموا قل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ اسلامَكم بل اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هَداكم للايمانِ إنْ كنتم صادِقين . إنَّ اللهَ يعْلَمُ غَيْبَ السمواتِ والارْضِ واللهُ بَصيرٌ بما تَعمَلونَ .

بين يدي السورة : ان القرآن الكريم كل ما فيه خير عميم ، وأدب جم ، وتشريع حكيم ، ومنهاج رصين واضح ، وسورة الحجرات هذه حوت لنا من الاوصاف آلهية في الادب والسلوك في اسلوب معجز قويم ما يبهر القـــارىء

والسامع ، ويلجم منه كل لسان ، وقد سميت بسورة الحجرات لقول الله تعالى فيها « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات».

فقد ابتدأت السورة الكريمة اول توجيهاتها الرائعة بتقرير أدب المجالسة وخاصة اذا كان المجالس عظيم القدر راجح الفكر ، مسموع الكلمة، يرجع اليه في كل امر عندما يحزب الامر كمحمد، بن عبدالله نبي الله ورسوله.

ثم ينتقل بنا النظم المعجز الى طائفة من التوجيهات الآلهية في جو يسوده الاخاء والتعاون ووحدة كلمة المجتمع .

وبعد هذا ... بعد ان تمتلىء نفسك بشحنة من التوجيهات الآلهية وتتهيأ نفسيا لا .. بل تتطلع الى معرفة الانسان المؤمن في اخلاقه وصفاته ، ينقلك النظم المعجز باسلوبه الساحر الاخاذ الى رسم صورة واضحة للمسلم الكامل، الذي يحمد الله على الاسلام ، لا يمن به ، ولكنه يرد الفضل الى الله سبحانه .

شرح الالفاظ : ١ ـ لاتقدموا بين يدي الله ورسوله : اي لاتسرعوا في البت بأمر والرسول موجود ، بل اتركوا الحكم له وكونوا انتم تبعا لحكمه أو لا تدلوا برأيكم اذا ثبت في حادثة ما حكم لله أو لرسوله. ٢ـ امتحن الله قلوبهم للتقوى: مرنها على التقوى ٣ ـ الحجرات : جمع حجرة وهي الغرفة . تبينوا : توقفوا في التصديق او التكذيب حتي يأتيكم الدليل القاطع ـ لعنتم : لوقعتم في الجهد والهلاك ـ الكفر : الخروج الكامل عن الدين ويكون بجحود ما ثبت من الدين بدليل قطعي، او من انكار شيء معلوم من الدين بالضرورة كفرضية الصلاة و ... ـ الفسوق: هو الخروج عن الايمان بركوب الكبائر من الذنوب ، والفاسق هو من عداد المسلمين ـ العصيان : ترك الانقياد لاوامر الشارع الحكيم ـ تفيء : ترجع ـ اقسطوا: اعدلوا ـ ولا تلمزوا انفسكم : ولا تطعنوا أهل دينكم بالسنتكم ـ الاسم: الذكر ـ قوم : القوم هم الرجال خاصة لانهم القوام بامور النساء وهي في الاصل جمع قائم واختصاص الرجال في الآية ظاهر وصريح اذ لو كانت النساء داخلة في قوم لما

افردها بالذكر وقد ذكر العرب ذلك كثيراً في اشعارهم فقال زهير :

وما أدري ولست أخال ادري أقوم آل حصن أم نساء

لايلتكم : لاينقصكم من ثواب اعمالكم ـ لم يرتابوا : لم يشكوا فيما آمنوا به ـ اتعلمون الله بدينكم : اتخبرون الله بتصديق قلوبكم .

اسباب النزول: ١ ـ « يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدي الله ورسوله» اخرج البخاري عن ابي مليكة ان عبدالله بن الزبير اخبره انه قدم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ فقال ابو بكر أمر القعقاع بن معبد وقال عمر بل امر الاقرع بن حابس ، فقال ابو بكر ما أردت الا خلافي ، وقال عمر ما أردت خلافك فتماريا حتى ارتفعت اصواتهما ، فنزل في ذلك قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدي الله ورسوله ... الى قوله ولو انهم صبروا ....

٢ ـ « يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي » نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في اذنيه وقر ، وكان جهوري الصوت وكان اذا كلم انساناً جهر بصوته ، فربما كان يكلم رسول الله ﷺ فيتأذى بصوته فأنزل الله هذه الآية ، ولما نزلت قال ثابت بن قيس انا الذي كنت ارفع صوتي فوق صوت النبي وانا من اهل النار ـ وجعل يبكي ـ فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : هو من اهل الجنة .

٣ ـ « ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله » لما نزل قوله تعالى « لاترفعوا أصواتكم » آلى أبو بكر أن لايكلم رسول الله إلا بصوت خافت فأنزل تعالى « ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله ».

٤ ـ « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات ... » نزلت في وفد بني تميم حينما قدم على الرسول ﷺ عام تسع للهجرة فوقفوا من وراء حجرات ازواج النبي (ص) وجعلوا ينادون : يا محمد اخرج الينا ، فانزعج النبي من هذا التصرف

فأنزل تعالى « ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لايعقلون ...»

٥ — « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » ... بعث رسول الله (ص) الوليد بن عقبة الى بني المصطلق ليجمع منهم الصدقات ، وكانت بينه وبينهم احنة في الجاهلية ، فلما شارف ديارهم ركبوا اليه مستقبلين، فحسبهم مقاتلين ، فرجع وقال لرسول الله (ص) قد ارتدوا ومنعوا الزكاة ،فبعث رسول الله (ص) خالد بن الوليد فوجدهم يصلون فسلموا اليه الصدقات فرجع الى رسول الله (ص) واخبره ما رأى فانزل الله تعالى « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا .. »

٦ — « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » ... اخرج الشيخان عن انس ان النبي ركب حماراً وانطلق الى عبدالله بن ابي فقال اليك عني : فوالله لقد آذاني نتن حمارك ، فقال رجل من الانصار والله لحماره اطيب ريحا منك ،فغضب لعبدالله رجل من قومه ، وغضب لكل واحد منهما اصحابه ، فكان بينهم ضرب بالجريد والايدى والنعال ، فنزلت فيهم « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما .. وروى غيرهما ان رسول الله (ص) بعث إليهم فأصلح بينهم .

٧ — « لايسخر قوم من قوم » ... نزلت في ثابت بن قيس بن شماس كان في اذنيه وقر ، وكان اذا أتي رسول الله أوسعوا له حتي يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول ، فجاء يوماً وقد اخذ الناس مجالسهم فجعل يتخطى الرقاب ويقول تفسحوا تفسحوا فقال له رجل : قد اصبت مجلساً فاجلس ، فجلس ثابت مغضباً ، فغمز الرجل فقال : من هذا ؟ قال : أنا فلان ، فقال ثابت : ابن فلانة؟ وذكر أماً كانت له يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه استحياء فانزل الله لايسخر قوم من قوم ..

٨ — « ولا نساء من نساء »... نزلت في امرأتين من أزواج النبي سخرتا من « أم سلمة، وذلك أنها ربطت حقويها بسبنية — وهي ثوب ابيض — وسدلت

طرفها خلفها فكانت تجره ، فقالت عائشة لحفصه : انظري ما تجر خلفها كأنه لسان كلب ، فهذا كان سخريتها ، فنزلت « ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ... »

٩ — عن ابي جبير بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة فيدعى ببعضها فعسى ان يكره فنزلت « ولا تنابزوا بالالقاب » ـ الترمذي قال حديث حسن ـ

١٠ — أكل سلمان الفارسي ثم نام فجعل ينفخ ، فذكر أحد الناس كثرة اكله ، ورقاده ، فنزلت « ولا يغتب بعضكم بعضا ».

١١ — لما كان يوم الفتح ـ فتح مكة ـ رقى بلال ظهر الكعبة فأذن فقال بعض الناس أهذا العبد الاسود يؤذن على ظهر الكعبة ؟ فانزل الله تعالى قوله « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ...

١٢ — اخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاءت بنو أسد الى رسول الله (ص) فقالوا يا رسول الله اسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك ، فقال رسول الله ﷺ ان فقهم قليل وان الشيطان ينطق على السنتهم ونزلت هذه الآية « يمنون عليك ان اسلموا ... » تكشف أمرهم .

من روح السورة : ١ — تبدأ السورة بنداء الله للمؤمنين ، المؤمنين الذين آمنوا بالله رباً وبمحمد رسولاً يوحى اليه ، آمنوا بالله حكيماً ومدبراً ومسيطراً وعالماً بما يحتاج إليه الناس من توجيه وتشريع ، ينادي الله هؤلاء قائلاً « لا تقدموا بين يدي الله ورسوله » لاتقترحوا على الله ولا على الرسول اقتراحات وإن بدت لكم المصلحة فيما تقترحون ، لأن الله أعلم بمصالحكم وبما يحتاجه مجتمعكم وعالمكم ، وانها لغلظة في المؤمن أن يقول لو حرم الله كذا ، ولو حلل الله كذا ... هذا في زمن نزول التشريع ، أما بعد أن تم نزول التشريع وختم الدين ، فعلى المؤمن

أن لا يقترح حلاً لمشكلة مهما كانت ما دام فيها نص من الله في القرآن او من الرسول في السنة الصحيحة ، وإنما عليه أن يبحث عن حلها بين الحلول التي قدمتها الشريعة ، فان لم يجد حلاً لها ، فلا بأس عليه من ان يقتبس ويقترح الحل المناسب على ضوء المباديء العامة في الشريعة الاسلاميه .

وقد عبر الفقهاء عن هذا المعنى بالقاعدة الشرعية «لا اجتهاد في مورد النص» وإن عدم الاقدام على الاجتهاد فيما ورد فيه نص شرعي ، من مستلزمات إيمان المؤمن ، ومن متطلبات تقواه ... لأنه يؤمن بأن الله يسمع كل همسة في هذا الكون ، ويعلم حركتها وعملها وما تحتاج إليه ، فكيف يجوز للانسان القاصر العلم ، أن يقترح على الله العليم بكل شيء ، وقد كان صحابة رسول الله شديدي التمسك بهذا ، فهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه قال له الرسول (ص) حين بعثه الى اليمن : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله تعالى ، قال (ص) فان لم تجد؟ قال بسنة رسوله (ص) قال (ص) فان لم تجد؟ قال : اجتهد رأيي ، فضرب في صدره وقال « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى مايحبه رسول الله»

ان عدم اقتراح الأحكام الشرعية بين يدي رسول الله (ص) في حال حياته وفي حالة وجود نص شرعي من قرآن أو سنة صحيحة بعد مماته (ص) أدب رفيع لاشك فيه ، وهو جزء من آداب المحادثة ، محادثة الجاهل مع العالم، والجندي مع القائد المتمرس ، وكثيراً ما يحتاج الجاهل إلى علم العالم، والصغير إلى خبرة الكبير، وهنا لا بد من السؤال بأدب جم ، وصوت يوحي بالتواضع ، دون صراخ وهذا ماوجه اليه القرآن الكريم بقوله « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ...» وإساءة الادب ورفع الصوت أمام رسول الله (ص) ليست كاساءة الادب مع أي انسان ، إنها مع أي انسان عادي لاتعني أكثر من ذنب صغير، أما مع رسول الله فانها تعني ضياع الاعمال الصالحة ، دون ان يشعر الانسان بهذا الضياع ، قال تعالى « لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم لبعض»

ولذلك فان الأدب مع رسول الله (ص) كان موضع اختبار القلوب المؤمنة،

فالذين يحافظون على الادب مع رسول الله (ص) يسكن الله قلوبهم التقـــوى ـ لأنهم اهل لها ـ بعد اختبارها بالأدب مع رسول الله (ص) ، وانه لموقف مشـــين مناف للأدب ذاك الذي وقفه وفد بني تميم عندما قدموا على رسـول الله (ص) عام تسع للهجرة فوقفوا خلف حجرات أزواج النبي (ص) وجعلوا ينـــادون بأعلى اصواتهم: يا محمد اخرج الينا، لانه ما هكذا ينادي الرسول، ولا هكذا ينادي المربي الكبير ، ولو أنهم انتظروا قليلاً حتى يخرج الرســـول (ص) إليهم لكان أحسن ومع انهم ارتكبوا هذه الاساءة في حق النبي العظيم (ص) فان الله يغفرها لهم رحمة بهم إذا ما تابوا وأحسنوا ، فما أوسع رحمته سبحانه وما اكثر غفرانه ولكن الناس لا يعلمون قال تعالى « نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ».

٢ ـ ثم توجه الآيات الكريمة بياناً هاماً للحاكمين والمحكومين، للمؤمنين جميعاً آمراً اياهم بأن لا يأخذوا الناس بالظنة وأن الأصل في المتهم البراءة حـــتى تثبت إدانته ، وان الاخبار لا تؤخذ هكذا ولكنها تمحص وتدقق ، وأن الأصل في حال المؤمنين الصدق والصلاح الا من ظهر فسقه وكل ذلك ضروري لصلاح أمر الجماعة المؤمنة ، ونشر الاستقرار والطمأنينة النفسية في ربوعها ولذلك أمر الله سبحانه انه إن اخبرنا مخبر عرفنا فيه الفسق بنبأ ما ، سواء كان خـــيراً أو شراً ، فعلينا أن لا نأخذ بهذا الأمر دون تمحيص وتدقيق ، وانما علينا أن نتبين حقيقة هذا الأمر ، فان كان صدقاً عملنا به ، وان كان كذباً تركناه، لأننـا ان عملنا بخبر الفاسق دون التثبت ربما ظلمنا ، وربما تعدينا الحدود المشروعة وهذا ليس من الحكمة في شيء ، بل وإن ضمائرنا ستعذبنا وتهتف بنـا من الأعمـاق انكم ظلمتم وانكم ... وانكم ... فتندم ونندم .. ولات ساعة مندم .

أما المؤمن الذي عرفنا فيه الصدق والعدالة فاننا نعمل بخبره بمجرد اخباره لنا بأمر ما ، أما المؤمن المستور الحال الذي لا نعرف عنه جرحاً ولا تعديلاً، فان جمهور العلماء يقولون بقبول خبره .

ولنعد الى الآية الكريمة مرة ثانية « يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق

بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم »

مر معنا في اسباب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أرسل بعض الصحابة ليجبي له الصدقات من احدى القبائل ، ولكنه ما لبث أن عاد مخبراً رسول الله ﷺ أن هذه القبيلة قد منعته الصدقات وارتدت عن الاسلام ، ويبدو أنه كان من بعض المسلمين اندفاع نحو ما سمعوه من ذلك الصحابي وأشاروا على النبي أن يعجل بعقابهم غيرة على دين الله وجزاء على ارتدادهم ومنعهم الزكاة ، ولو أن رسول الله ﷺ أطاع هؤلاء المندفعين من الصحابة الكرام في القضاء على من قيل له انهم ارتدوا ومنعوا الزكاة ـ وهم على غير ما اخبر به ـ لوقع ووقعتم في حرج شديد لأنكم ستقتلون مؤمنين مثلكم ، واكبر بهذا من جريمة ، ولكن رسول الله هو رسول الله قد عصمه الله ، ووصله بالسماء ليعلمه بحقائق الاشياء ، ومستورات الأمور ، فله يجب ان يكون الرأي الأول والأخير ، وما على الألسن الا أن تلجم بحضرته وما على القلوب أن تخشع لأمر الله الذي يمليه رسوله .

إنه الايمان الذي غرسه الله في قلوب المؤمنين جعلهم ينصاعون لأمر الله وأمر رسوله ، الايمان الذي لايجامعه في قلب مؤمن كفر بالله ، ولا خروج عن طاعته ، ولا ارتكاب للذنوب ، أو هو على الأقل كره لهذه الأشياء وتمنى عدم أن إتيانها ، انها نعمة من الله ما بعدها نعمة .

٣ ـ وفي هذا المقطع تبين السورة حرص المبادىء الاسلامية على وحدة الصف واجتماع الكلمة ، فالأصل في نظام الاسلام الاتفاق ووحدة الصف والكلمة لان المبدأ واحد ولكن قد يقع ـ استثناء ـ أن تتخاصم جماعتان من المسلمين ، وهنا فالواجب على الدولة وعلى من لم يكن طرفاً في هذا النزاع ، بالدرجة الاولى ، أن يسرع إلى ازالة النزاع وعودة الحياة إلى مجراها الطبيعي ، الى الاستقرار والامن

والهدوء ، محكماً في كل ذلك مبادىء الاسلام ، فان لم تقبل احدى الفئات المتنازعة بهذا التحكيم رغم تبين الحق ، فهي إذن باغية ظالمة وما على المسلمين جميعاً الا أن يكونوا بجانب الدولة أو بجانب مع يتولى تأديبها قطعاً للنزاع ومحافظة على الامن والاستقرار ووحدة الكلمة ، والمسلمون لايزالون يقاتلون هذه الفئة الباغية حتى تعود إلى الصواب ... إلى أمر الله ، حتى اذا ما رجعت عن القتال وعادت إلى مساكنها ، على المسلمين أن يزيلوا الضغائن من القلوب ويغرسوا الوئام كي لا يتجدد الخصام ويعود النزاع ، كل هذا لان المسلمين أخوة وهل يحب أحد أن يفترق أخواه ؟! أو لاتعني تلك الأخوة الرعاية والحب والتعاون ، أو لا تعني الاتحاد والتناصر ، فما دامت تعني كذلك والأصل في المؤمنين الأخوة فلم الخصام ولم النزاع ؟ أمن أجل الرئاسة والرئاسة زائلة ، أم من أجل الشهرة والجاه ، وهما زائلان ، أم من أجل المال والمال ضائع ... كل ذلك لايساوي شيئاً بجانب وحدة الكلمة ووحدة الصف ، وإن الذي يوصل إلى هذا ، إلى نكران الذات ، وترجيح المصالح العامة على المصالح الخاصة ان الذي يوصل الى هذا «التقوى» التي تشع في قلب المسلم الصادق الايمان . فاذا وجدت التقوى وجد الانصياع الى الحق ، ووجد نكران الذات ، ووجد تفضيل وحدة الكلمة عن كل ما عداها ، وبالتالي وجدت رحمة الله بالمؤمنين الرحمة التي لاتمكن منهم عدوهم ، ولا تديل دولتهم ، ولا تنكس أعلامهم ، وهكذا فان الأمور بأسبابها .

٤ — وطالما أن الموضوع موضوع وحدة الكلمة ووحدة الصف ، فانه يجدر بنا أن نذكر أن وحدة الصف العام لاتكون الا اذا كانت المجموعة المسلمة متفاهمة افرادها ، متحابة عناصرها ، يجد كل مسلم آخاه المسلم في مرآة نفسه ، ولا تكون كذلك إلا اذا تأدبت بآداب القرآن التي تسوق السورة الكريمة باقة عطرة منها وأول ورده في هذه الباقة العطرة « لايسخر قوم من قوم ... » وكأني بالآية الكريمة تقول : يا أيها الناس ... يا أيها المؤمنون

جردوا انفسكم من مقاييس هذه الدنيا الفانية ، المقاييس الضيقة المحدودة وانظروا الى الحقيقة المجردة ، فقد يسخر فقير من غني أو قوي من ضعيف ظاناً أن المال والقوة هما عماد الحياة ... ولو نظرت اليهما بعين فاحصة تجدهما ليساً في ميزان الحقيقة في شيء ، لأن العبرة للنفس السوية والعمل المستقيم « إن اكرمكم عند الله اتقاكم »

وبعد هذه الباقة تتوالى باقات « ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب» وطعن المؤمنين بعضهم ببعض ، ونعت بعضهم بأسماء سيئة ، كل ذلك يشيع الكره بين المؤمنين وبالتالي يقضي أو يحول دون وحدة الصف وتماسك المجتمع .

فالجريمة اذن جريمة كبرى ، اكبر مما يقدرها الناس اليوم ، إنه ذكر مزموم أن ينعت الناس بالفسق وهم مؤمنون ، أو يقدمون على الفسق بعد ان آمنوا ، وهذه الخطيئة الكبرى التنابز بالالقاب و ... لايكفرها إلا توبة نصوح يقبل فيها المؤمن على الله .

وهنا يجدر بنا أن نقف وقفة فاحصة عند هذه الآيات الكريمة ولنمعن النظر في قوله تعالى « ولا تلمزوا انفسكم »

ان العلماء اليوم يقومون بدراسة نفسية الأمم والشعوب ، ويتكلمون كثيراً عن ضرورة البناء النفسي للشعوب التي تريد أن تحكم نفسها وتحتل مكان الصدارة ، ونحن من خلال هذه الآيات الكريمة نجد أن القرآن الكريم قد قام بهذا البناء النفسي للشعب الاسلامي ووضع له المخطط النفسي الدقيق ليحله محل الصدارة بين الأمم .

انظر معي إلى قوله تعالى « لايسخر قوم من قوم ... » والى النتائج النفسية التي تتولد عن السخرية ، قد يسخر الغني من الفقير ، وهذا يعني أن الفقير

سينشأ وهو محقد النفسية ، يحمل الكره لكل غني ، أو هو سينشأ مخرب النفس قانعاً بأنه لا يستطيع أن يبني مجداً ، والموت لصغير من الحياة ، واذا وجدت طائفة من شعب تحمل هذه النفسية وتنظر بهذا المنظار فكيف تستطيع أن تقود وكيف تستطيع أن تسود ؟!

ومثل هذا يقال في قوله تعالى « ولا تنابزوا بالألقاب و...»

ولما كان الضرر من جراء هذا يعود على المجموعة بكاملها ، على الشعب جميعه ، فقد اعتبر الاسلام تخريب نفسية الفقير هدم لثروة الغني ، والسخرية من المرأة القبيحة الخلقة تشويه لجمال الجميلة ، وعبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة الكبرى بقوله « ولا تلمزوا انفسكم »

---

٥ — وتمضي الآيات الكريمة مهتمة بالبناء النفسي للفرد المسلم ، ومن ثم للجماعة المسلمة فتأمر المسلمين باجتناب الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله ، لان بعض ذلك يكون اثماً محضاً ، فليجتنب كثير منه احتياطاً.

فقد روى البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث...»

ولذلك كان يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه « ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً » وبهذا يسمى القرآن الكريم أن ينظف نفسية المسلم من أدران الظن السيء الذي يعصف بالنفس الانسانية ويجعلها تعيش في دوامة لا تستقر على حال ، ومن تمكن هذا المرض ـ الظن السيء ـ في نفسه ، يسعى دائماً متطلعاً إلى كشف ما يستره الناس من قول أو عمل ، إنه يلجأ إلى التجسس ، والتجسس في نظام الاسلام ممنوع إلا ما كان من قبيل التجسس على العدو ، إذ أن للبيوت حرمتها ، وللنفوس قداستها ،

وهو إذ يلجأ إلى التجسس ليتحدث بما وصل إليه من أسرار يكره أصحابها إفشاءها ، أو بكلمة اكثر صراحة ليلجأ الى « الغيبة » ـ وهي كما عرفها رسول الله ﷺ « ذكرك أخاك بما يكره » وهنا تقع البغضاء ، وتتفرق كلمة المجتمع ، وتنقسم الأمة ، ولذلك شدد القرآن في تحريم الغيبة ، وشبه الذي يقدم على الغيبة بوحش دنيء سافل يأكل لحم اخيه بعد موته ، فهل يرضى انسان بل حيوان بهذا العمل ؟ فكذلك عليه أن لا يرضى بالغيبة لنفسه ولا لغيره.

والقرآن عندما حرم الغيبة هذا التحريم الشديد فقد تبعته أحاديث نبوية كثيرة تدور في هذا الفلك نفسه ، وانا لنذكر جيداً قول رسول الله ﷺ لعائشة عندما أقدمت على التحدث عن « صفية » زوجة رسول الله ﷺ بما لا تحب « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » ـ ابو داوود ـ

وإن الذي يريد أن يأخذ نفسه بهذه الآداب الاسلامية لا بد وأن يتحلى بتقوى الله التي تعصمه من الذلل ، وتكبح جماح نفسه ، وتبعده عن الشر ، أما من وقع منه شيء من ذلك فلك باب الرحمة من الله مفتوح ، فما عليه الا أن يقبل عليه بقلب مخلص تائباً مستغفراً عاقداً العزم على عدم العودة على ما بدر منه معاهداً الله على ارتداء ثوب التقوى فيجد الله تواباً رحيماً .

٦ ـ كل هذه الدعوة الملحة التي يؤكدها القرآن الكريم في هذه السورة الآية تلو الآية الى وحدة الصف ووحدة الكلمة ، واتخاذ الاسباب المؤدية لذلك ، لأن الناس كلهم ينحدرون من أصل واحد وان اختلفت أجناسهم والوانهم وقومياتهم ، انهم كلهم لآدم وآدم من تراب ، نعم ان الله سبحانه قد جعل الناس اجناساً وشعوباً وقوميات مختلفة ، ولكن لا لتتنافر وتتحارب ، ولكن لتتساند وتتعاون لتنهض بالبشرية وبالجنس البشري ، ولا فضل لجنس على جنس ولا لقوم على قوم الا بما يقدمه كل فريق من عمل صالح منبثق عن قلب مخلص وهكذا يكون شعار الاسلام « القومية لخدمة الانسانية » ، وقد يرائي الانسان وقد يخاتل ولكن

الله عليم بكرم القلوب وتقواها خبير بهم النفوس في هواها .

قال سيد قطب بعد ان تكلم عن قوله تعالى « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم»

وهكذا تتواري جميع اسباب النزاع والخصومات في الارض ،وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس ، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون : الوهيه الله للجميع ، وخلقهم من أصل واحد ، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته : لواء التقوى في ظل الله . وهذا اللواء هو الذي رفعه الاسلام لينقذ البشرية من عقابيل العصبية للجنس ، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة،والعصبية للبيت ، وكلها من الجاهلية واليها ، تتزيا بشتى الأزياء ، وتسمى بشتى الاسماء،وكلها جاهلية عارية من الاسلام .

وقد حارب الاسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها واشكالها ، ليقيم نظامه الانساني العالمي في ظل راية واحدة ، راية الله ... لاراية الوطنية ، ولا راية القومية ، ولا راية البيت . ولا راية الجنس فكلها رايات زائفة لا يعرفها الاسلام .

٧ـ إذا عدنا الى السورة من أولها نجدأنها تفتتح كل مقطع من مقاطعها بـ « يا أيها الذين آمنوا »وهذا نداءله مدلوله العظيم في ميزان الحقيقة الالهية ، ولذلك اختتم الله هذه السورة ببيان حقيقة الايمان فقال تعالى « قالت الاعراب آمنا ،قل: لم تؤمنوا ... »

وقد مر معنا في اسباب النزول ان هذه الآيات نزلت في بني اسد أول ما دخلوا في الاسلام ، انهم دخلوا في الاسلام فعلاً فهم يطبقون أحكامه،أما قلوبهم فانها مازالت متأرجحة ولذلك كانوا غير صادقين عندما قالوا « آمنا » ولو انهم قالوا « اسلمنا » ونحن نطبق أحكام الله لكانوا بذلك صادقين .

وكان مقتضى هذا أن تكون اعمالهم لا قيمة لها كأعمال الكفار التي

وصفها الله بأنها كسراب بقيعة،وبأنها كرماد تذروه الرياح ، ولكن رحمة الله ومغفرته سبقت ، فانه سبحانه يقبل اعمالهم الصالحة ولا يضيع سالهم ،وتلك هي التربية الالهية العظيمة التي تشجع الخطوة الاولى ،وتبارك القلب منذ أن تهب عليه رياح الايمان ليصل الى الايمان الكامل العميق .

والمؤمنون الكاملو الايمان هم الذين خالط الايمان قلوبهم وجرى في عروقهم ، الايمان الكامل الذي يجعل النفس رخيصة في سبيل الله ،والمال هيناً في سبيل الله ، بل والحياة لاقيمة لها اذا لم تكن في سبيل الله . ان هؤلاء الذين خالط هذا الايمان قلوبهم هم المؤمنون الصادقون حقاً ، غايتهم رضاء الله ، وحياتهم من أجل الله وعملهم في سبيل الله .

عجيب أمر هؤلاء الاعراب ـ بني اسد ـ يظنون انفسهم أنهم مؤمنون حقاً ، وما رأي قلبهم الا ومضة من ومضات الايمان ، أما نوره الوهاج فانه لما يصل بعد ، ويقولون « آمنا » والله يعلم حقيقة أمرهم ، وكيف لا يعلم هذا وهو الذي يعلم علماً حقيقياً ما في السموات والأرض ، علماً لا كعلمنا الذي يعتمد على الظواهر فيشغل بها عن الحقائق ، ولكنه علم خبير بحقائق الاشياء وماهياتها .

واذا نظرت ايها المؤمن الى تصرفاتهم لوجدتها تشهد بأن ايمانهم ما زال متلجلجاً ، وقلوبهم ما فتئت مختلجة ، ألم يمنوا على الرسول ﷺ باسلامهم،ألم يقولوا له « اسلمنا ، وقاتلتك العرب ولم نقاتلك » ولو كان الايمان حقيقة في قلوبهم لما منوا على الرسول (ص) بهذا الاسلام ، بل حمدوا الله سبحانه على هذه النعمة التي ساقها الله اليهم ، انها نعمة الايمان التي تجعل للحياة معنى سامياً يختلف عن معنى الحياة عند البهائم ، الايمان الذي يشعر الانسان بأنه يحيى ليؤدي رسالة الله في الارض ، وليسعد عيال الله في الارض ، الايمان الذي يشعر النفس الانسانية باستقرارها ، ويقودها الى العمل البناء المثمر .

ولا داعي لأن يرائي الانسان ، ولا حاجة لأن يدعي الأعمال الصالحة ويتبجح بها لأن الله تعالى يعلم حقيقة أمر مكنونات النفوس وحقائق الاشياء.

وما أحوج الانسان الى أن يذكر هذه الحقيقة « الله يراني » في كل أحيانه .

في السورة :

١ــ يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ...

ا ـ استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أن الفاسق أهل للشهادة، والا لم يكن للأمر بالتبين « فتبينوا » فائدة .
وقال الحنفية لا تقبل شهادة الفاسق الا في النكاح.

ب ـ كما استدل فريق من العلماء بهذه الآية الكريمة على قبول خبر الواحد المجهول الحال ، لأن الآية الكريمة قد دلت على أن التثبت ناشيء عن الفسق الموجود في المخبر ، فاذا لم يكن فيه فسق يقبل خبره لأن الأصل في المخبر العدالة .

والفاسق على قسمين : ١ـ فاسق متأول كبعض الفرق الاسلامية (الجبرية مثلاً) وهذا يقبل خبره عند جمهور الفقهاء

٢ـ فاسق غير متأول : كبعض فساق عصرنا التاركين لمبادىء الاسلام السائرين وراء مبادىء غير مبادئه ـ وهذه المبادىء لا تصل الى درجة الكفر ـ وهؤلاء لا خلاف في أنهم لا يقبل خبرهم اذا أتى به أحدهم .

٢ ــ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين .

والبغاة أنواع : ١ ـ قوم امتنعوا عن طاعة الامام وخرجوا عليه بغير حق فهم قطاع طريق ساعون في الارض بالفساد.

٢ ـ قوم خرجوا على الإمام متأولين ـ يظنون ان لهم الحق في الخروج ـ ولكن عددهم قليل وهؤلاء أيضاً قطاع طريق عند بعض العلماء.

٣ ـ قوم من أهل الحق يخرجون عن طاعة الامام يريدون خلعه ولهم منعة يحتاج لقتالهم جمع الجيش ، وفي هذه الحالة على الناس مناصرة الامام لئلا يظهر الفساد في الارض ويتم الاستقرار وهؤلاء لهم أحكام ملخصها

ا ـ انهم لايخرجون عن الايمان ببغيهم فان الله سماهم مؤمنين في الآية الكريمة

ب ـ ان قتالهم واجب بالسيف وبغيره ان اضطر الامام لذلك

ج ـ ان الله اسقط قتالهم ان فاؤوا الى امر الله

د ـ أسقط الله عنهم التبعه فيما أتلفوه في قتالهم

والآية الكريمة أفادت جواز قتال كل من منع الدولة حقاً لها.

٤ ـ وقد تبغى بعض القبائل على بعض أو بعض القرى على بعض. وهنا يجب على الدولة أن تتدخل لايقاف البغي واعادة الأمن.

سورة الفتح

نزلت بالمدينة سنة ست للهجرة بعد سورة الجمعة

النص : ١ ـ إنا فتحنا لكَ فتحاً مُبيناً ، ليغفرَ لكَ اللهُ ما تقدمَ من ذنبك وما تأخرَ ويُتمَّ نعمتَه عليك ويهديَك صراطاً مستقيماً ، وينصرَك اللهُ نصراً عزيزاً.

٢ ـ هوَ الذي أنزلَ السكينةَ في قلوبِ المؤمنينَ ليزدادوا إيماناً مع إيمانِهم ولله جنودُ السمواتِ والارضِ وكان اللهُ عليماً حكيماً ، ليُدخلَ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الانهارُ خالدينَ فيها ويكفرَ عنهم سيآتِهم وكانَ ذلك عندَ اللهِ فوزاً عظيماً ، ويعذبَ المنافقينَ والمنافقاتِ والمشركينَ والمُشركاتِ الظانّينَ باللهِ ظنَّ السَّوْءِ عليهم دائرةُ السَّوْءِ وغضبَ اللهُ عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنَّمَ وساءَتْ مصيراً ، ولله جنودُ السمواتِ والارضِ وكان اللهُ عزيزاً حكيماً.

٣ ـ إنا ارسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرةً وأصيلاً ، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يدُ الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكثُ على نفسه ومن أوفي بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجراً عظيماً .

٤ ـ سيقولُ لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفرْ لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إنْ أرادَ بكم ضراً أو أرادَ بكم نفعاً بل كانَ اللهُ بما تعملون خبيراً ، بل ظننتُم أن لن ينقلبَ الرسولُ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزُيّنَ ذلكَ في قلوبكم وظننتم ظنَّ السوءِ وكنتم قوماً بُورا ، ومن لم يؤمنْ بالله ورسوله فانا اعتدْنا للكافرين سعيراً ، ولله مُلكُ السموات والارضِ يغفرِ لمنْ يشاءُ ويعذبُ منْ يشاءُ وكان اللهُ غفوراً رحيماً .

ـ سيقولُ المخلفونَ اذا انطلقتم إلى مغانمَ لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدونَ أن يبدّلوا كلامَ الله قلْ لن تتبعونا كذلكم قال اللهُ منْ قبلُ فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا

لا يَفْقَهون الا قليلاً .

— قُلْ للمُخَلَّفين مِنَ الاعْراب ستُدْعَوْن إلى قَوْم أولى بَأْس شديد تُقَاتِلونهم أوْ يُسْلِمون فان تُطيعوا يُؤْتِكم اللهُ أجراً حَسَناً وإنْ تتولَّوْا كما تولَّيْتم مِنْ قبل يعذِّبْكم عذاباً أليماً ، ليس على الاعْمى حَرَجٌ ولا على الأعْرَجِ حَرَجٌ ولا على المريضِ حَرَجٌ ومن يُطعِ اللّهَ ورَسولَه يُدْخِلهُ جنات تجري مِنْ تَحْتِها الانهارُ ومن يَتَوَلَّ يعذِّبْه عَذاباً اليماً .

٥ — لقَدْ رضي اللهُ عن المؤمنين إذ يُبايعُونك تحت الشجرَةِ فعلِم ما في قُلوبِكم فأنزَلَ السَّكِينَةَ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومَغانِمَ كثيرةً تأخُذونَها وكان اللهُ عزيزاً حكيماً .

— وعَدَكم اللهُ مَغانِمَ كثيرةً تأخُذونها فعَجَّلَ لكم هذِهِ وكَفَّ أيدِيَ الناسِ عنكم ولِتكون آيةً للمؤمنين ويهديكم صِراطاً مُستقيماً ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاطَ اللهُ بها وكان اللهُ على كل شيءٍ قديراً ، ولو قاتلَكم الذين كفروا لولَّوُا الأدْبارَ ثم لا يَجدون وَلِياً ولا نَصيراً ، سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ مِنْ قبل ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْديلاً ، وهو الذي كَفَّ أيديَهم

عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً .

٦ — هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ، إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً .

٧ — لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً .

٧ — محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء

بينهم تراهم رُكّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من اللّه ورضواناً سيماهم في وُجوهِهِم من أثر السُّجودِ ذلك مثلهم في التّوراة ومثلهم في الانجيلِ كزرعٍ أخرَجَ شطأهُ فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقِه يُعجِبُ الزُّراعَ ليَغيظَ بِهِمُ الكُفار وعدَ اللهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً .

شرح الكلمات : فتحنا : الفتح هو الاستيلاء على بلد ما ، والمراد به هنا صلح الحديبية ـ صراطاً مستقيماً : طريقاً مستقيماً والمراد به هنا يثبتك الله على الدين الصحيح ـ السكينة : السكون والطمأنينة ويمكن ان يراد بها الصبر على ما أمر الله والثقة بوعد الله ـ جنود السماوات والأرض: مخلوقات السماوات والارض ـ ظن السوء : الظن السيء والمراد به هنا ظنهم ان الله لا ينصر الرسول والمؤمنين ـ عليهم دائرة السوء : اي ان ما يتربصونه بالمؤمنين واقع بهم ـ عزيزاً : غالباً ـ شاهداً : تشهد على امتك يوم القيامة ـ مبشراً : واعداً المؤمنين بالخير والجنة ـ نذيراً : واعداً الكافرين بالنار ـ تعزروه : تقووه بالنصر ـ توقروه : تعظموه ـ بكرة : صباحاً ـ أصيلاً : بعد العصر ـ ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق ايديهم : ان الذين يعدون ايديهم للرسول ﷺ واعدين اياه بالنصر والمؤازرة هم في الحقيقة يعدون الله بنصر دينه ، ومن كانت هذه الحالة فالله سبحانه يبسط يده فوق أيديهم يرعاهم ويجعل النصر حليفهم ـ نكث : نقض العهد ـ ينكث على نفسه : يعود ضرر نقضه العهد على نفسه ـ أوفى : وفي ـ المخلفون من الأعراب : الذين تخلفوا عنك يوم الحديبية من اعراب غفار ومزينة وجهينة واسلم واشجع ـ من يملك لكم من الله شيئاً : من يمنعكم من مشيئة الله وقدره ـ ينقلب الرسول : يرجع الرسول ... ـ ظننتم ظن السوء : حسبتم أن الكفر سيعلو على الايمان ـ بوراً

جمع بائره وبار الشيء بمعنى هلك وفسد ، والمعنى كنتم قوماً فاسدين مستحقين لاهلاك الله لكم ـ اعتدنا : هيأنا ـ سعيراً : متأججة ـ مغانم : جمع مغنم وهي التي يربحها المحاربون بعد انتهاء القتال ، والمراد بها هنا غنائم خيبر ـ يريدون أن يبدلوا كلام الله : يريدون أن يغيروا موعد الله لاهل الحديبية ، وذلك انه وعدهم أن يعوضهم من مغانم مكة مغانم خيبر اذا قفلوا موادعين ـ كذلك قال الله من قبل: اى من قبل انصرافهم إلى المدينة ـ لايفقهون : لايفهمون ـ الى قوم أولى بأس شديد : وهم بني ضيفة وقيل فارس ـ تقاتلونهم أو يسلمون : اى لايقبل منهم الا الاسلام أو القتال ولا تقبل منهم الجزية ـ تتولوا : تعرضوا ـ اثابهم : جازاهم ـ ولتكون آية للمؤمنين : ولتكون عبرة للمؤمنين ـ قد احاط الله بها : أي قدر عليها واستولى واظهركم عليها ـ ولوا الأدبار : هزموا ـ سنة الله : طريقة الله ـ اظفركم عليهم : سلطكم عليهم ـ المسجد الحرام : مسجد مكه ـ الهدى: مايهدي إلى الكعبة ، والمراد بها هنا الذبائح التي يسوقها الحجاج أمامهم ليذبحوها تقرباً إلى الله تعالى ـ معكوفاً : محبوساً ـ أن يبلغ محله : أن يبلغ مكانه الذي يحل فيه ذبحه ـ تطؤوهم : تقعوا بهم وتبيدوهم ـ معره : اثم وشدة ـ تزيلوا: تفرقوا ـ الحمية : الانفة ـ كلمة التقوى : اشهد ان لا آله إلا الله واشهد ان محمداً رسول الله ـ الرؤيا: المنام ـ آمنين : غير خائفين ـ محلقين رؤوسكم أو مقصرين : اي حالقين جميع شعورها أو بعضها ـ فتحاً قريباً : هو فتح خيبر ـ شطأه : فراخه ـ فآزره: قواه ـ استغلظ : صار غليظاً ـ .

اسباب النزول : ١ ـ نزلت سورة الفتح لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية سنة ست للهجرة حين منعه مشركوا قريش من الوصول إلى المسجد الحرام ليقضي عمرته فيه ، وما لبثوا أن مالوا لمصالحته وعقد الهدنة معه فأجابهم رسول الله ﷺ لذلك على أن يعود في عامه هذا دون زيارة فلما أحصر ـ منع ـ رسول الله (ص) نحر هديه ـ ذبائحه ـ حيث أحصر ورجع فأنزل الله تعالى

هذه السوره

روى البخارى عن البراء رضي الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية.

٢ — وروى الامام احمد عن انس بن مالك رضي الله عنه قال نزلت على النبي (ص) « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » مرجعه من الحديبية ، قال النبي (ص) « لقد انزلت علي الليلة آية أحب إلي مما في الأرض » ثم قرأها عليهم النبي (ص) فقالوا هنيئاً مريئاً يا نبي الله بين الله عز وجل ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه (ص) « ليدخل المؤمنين والمؤمنـــات جنات تجري من تحتها الانهار — حتى بلغ — فوزاً عظيماً » أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة — .

٣ — هبط ثمانون رجلاً من جبل التنعيم يريدون غرة النبي وأصحابه في الحديبية فأخذهم اسرا فاستحياهم فأنزل الله تعالى « وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة بعد ان اظفركم عليهم »

القصة : لا بد لنا من أن نستعرض الحادثة التي نزلت فيها هذه السورة قبل البدء ببيان المعنى العام فيها .

وإن الحادثة كما ذكرنا هي صلح الحديبية ،وخلاصة ذلك:

ان تحالفاً عقد بين خيبر الذين يقيمون شمالي دولة الرسول (ص) (المدينة) ومكه جنوب دولة الرسول (ص) والغاية من هذا التحالف وضع دولة الرسول (ص) بين فكي الكماشة ، وفكر الرسول (ص) بكسر أحد فكي الكماشة ، فلم يجد الا الوسيلة السلمية : فاستنفر القبائل العربية للحج معه ، فاجتمع لديه ألف واربعمائة رجل أو الف وخمسمائة رجل ، وتخلف بعض القبائل كغفار ومزينة وجهينة واسلم واشجع ظانين ان المسلمين سيردون على اعقابهم ، وأن هذا المسير

سيكتب نهايتهم .

وسار رسول الله وساق أمامه الهدي ونزل بالحديبية - وهي بئر قرب مكة - وتوالت رسل مكة في وفودها عليه ، تريد أن تعرف مقصده ، وكان هو يقول : إني أريد الحج ولا أريد الحرب ... ثم أرسل رسول الله ﷺ عثمان بن عفان لمفاوضة قريش ، وشاع بأن قريشاً قتلت عثمان ، وهنا دعا رسول الله ﷺ أصحابه ليجددوا له البيعة على الا يفروا من القتال حتى الموت ، وتمت البيعة تحت شجرة كانت هناك ودعيت « بيعة الرضوان » وقال تعالى بحق هؤلاء المبايعين « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ... »

ثم تبين أن ما اشيع من قتل عثمان لا أساس له من الصحة ، وما هي إلا برهة حتى وفد رسول قريش « سهيل بن عمرو » ليفاوض رسول الله ﷺ بأمر هدنة توضع بين المسلمين وقريش واتفق الطرفان على بنود هذه الهدنة وكانت

١ — ان يرجع الرسول في هذا العام فلا يدخل الحرم ، وإن اراد أن يدخله في العام القادم فلا بأس

٢ — وضع هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنين

٣ — من أتى محمداً من المشركين مؤمناً بغير إذن وليه رده اليهم ومن أتى قريشاً من المسلمين مرتداً لا يرد اليهم .

٤ — من احب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل ، ومن أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل .

ووقع رسول الله ﷺ الكتاب على كره من المسلمين لأنهم كانوا يرون فيه غبناً لهم ، ولكن الله سبحانه قد أراد ذلك ، وخضع المسلمون لأمر الله وأمر رسوله ، ووعدهم بنصر قريب « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت

الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم واثابهم فتحاً قريباً » وسمى هذه المعاهدة (فتحاً مبيناً) لأنه استطاع بواسطها كسر الحصار المضروب عليه ، والقضاء على خيبر، أحد فكي الكماشة ، ثم القضاء على قريش الفك الثاني « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ».

من روح السورة : ١ ـ حدث صلح الحديبية وكان هذا الصلح في حقيقته انتصاراً سياسياً وعسكرياً ومعنوياً على الكافرين ، وهو الذى مهد للقضاء على خيبر ، بل وهو الذي كان مفتاحاً لفتح مكة المكرمة ، فلولاه لما كسر الحصار ، ولولاه لما تم القضاء على خيبر ولا على مشركي مكه ، ولذلك سماه الله « فتحاً مبيناً » .

وقد كان هذا الصلح اعترافاً من قريش بالكيان السياسي للرسول ﷺ واصحابه ، فقد كانت تعتبرهم في السابق جماعة خرجوا عن الاعراف والتقاليد، وأرادوا هدم النظام الاجتماعى القائم ، فوجب تأديبهم ، أما اليوم فانها تعترف بكيانهم الذاتي وتسعى للتفاوض معهم على انهم يشكلون طرفاً في النزاع وعلى انهم جماعة لهم كيانهم ...

وليس هذا الفتح في المجال السياسي والعسكري فقط ، بل في مجال الدعوة والقوى المعنوية ايضاً ، ويتجلى لنا ذلك بكل وضوح في بيعة الرضوان التي أشرنا اليها عند ذكر الحادثة والتي عاهدفيها الصحابة رسول الله ﷺ على الموت ، كما يتجلى ذلك في الاعداد الهائلة التي دخلت في الاسلام بعد صلح الحديبية، ان رسول الله ﷺ استنفر جميع المسلمين ليحجوا معه يوم الحديبية ، فلم يجتمع لديه اكثر من الف وخمسمائة رجل ، وبعد عامين من هذه الحادثة وعندما خرج لفتح مكة خرج معه عشرة آلاف مقاتل ، وكان من جملة من اسلم كبار قواد قريش خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما ، فهذا خالد بن الوليد الذي كان

يطلب الرسول وأصحابه يوم الحديبية ليستأصل شأفتهم ، هو نفسه الذي شارك الرسول ﷺ في فتح مكة ، وكان قائداً لاحدى الفرق التي دخلتها ظافرة ، حاملة راية الاسلام .

ان هذا الفتح المبين سبب من الاسباب التي فتحت أبواب الجهاد على مصراعيها ، والجهاد سبب لمغفرة ذنوب من استجاب لندائه ، وبذل المال والنفس لاعلاء كلمة الله ، ومن أولى من رسول الله ﷺ بذلك ، فقد جازاه الله على ذلك بأن غفر له ما تقدم من ذنبه وما أخر وهذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الاعمال لغيره ﷺ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ ، وهو عليه السلام قد عرف الله حق المعرفة ، فكان مقيماً طاعة الله في كل أحواله ، وقد تعجب بعض الصحابة من حاله تلك ، فروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ اذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه فقالت له عائشة رضي الله عنها يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ « ياعائشة أفلا اكون عبداً شكوراً ».

إن هذا الفتح العظيم كان سبباً لمغفرة ذنوب رسول الله ﷺ ما تقدم منها وما تأخر ، وسبباً لاعلاء دين الله ، وفتح البلاد والقلوب له ، وقد رأينا كيف أن الناس بدأوا يدخلون في دين الله افواجاً بعد ذلك ، وتم نصر الله لرسوله الكريم ، وامتدت اطراف دولته إلى مناطق واسعة تحكم بما انزل الله على رسوله ، وما هدى الله رسوله اليه من الصراط المستقيم .

٢ ــ كان في نفوس الصحابة من صلح الحديبية شيء لأنهم يرون فيه غبناً لهم ولكنهم لا يستطيعون عصيان رسول الله ﷺ في أمر ، فهذا عمر بن الخطاب يقدم على رسول الله ﷺ قائلاً : يا رسول الله لم نعط الدنية في ديننا ؟ فيجيبه رسول الله ﷺ « أنا عبد الله ورسوله لن اخالف أمره ولن يضيعني »

وهؤلاء هم الصحابة يثورون لذلك البند الذي وضع في صلب المعاهدة والذي ينص على أن من أتى محمداً مؤمناً بغير اذن وليه رده اليه وهؤلاء هم يختمون عن قص شعورهم حتى يبدأهم الرسول ﷺ ولكن الله سبحانه ، أبدله هذا الذي يجيش في نفوس الصحابة طمأنينة وإيماناً فوق ايمانهم بأن الله لن يضيع رسوله والمؤمنين به ، انه تعالى يستطيع ان يعلى دين الاسلام ، ويمكن المسلمين في الارض بواسطة ملك واحد بيده الكفار أجمعين ، ولكنه سبحانه لن يفعل ذلك لأنه يريد أن يبتلي المؤمنين « احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » يريد أن يفرض عليهم الجهاد ليقتلوا في سبيل الله ، ويعلوا شريعة الله ، فيكفر عنهم سيآتهم ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار باقين فيها ابداً ، يتمتعون بنعيمها ، ذلك ما اعده الله للمجاهدين في سبيل الله ، وأي فوز أعظم من هذا الفوز ؟ إن هذا هو ما كان يتطلع اليه المؤمنون ، انهم يرجون الجنة ...والجنة وحدها ... ولذلك عندما انزل قوله تعالى « ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر » قالوا هنيئاً يا رسول الله هذا لك ، فما لنا ؟ فأنزل الله سبحانه « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات ...» فرضوا بهذا القسم وهذا النصيب.

أما المنافقون ، واما المشركون الذين يسيئون الظن بالله تعالى ، فيتهمونه في حكمه ، ويتمنون للرسول ﷺ واصحابه أن يقتلوا وتذهب ريحهم ، فان الله يخبر بأن السوء محيط بهم ، وإن العاقبة عليهم ، وان هذا الهلاك الذي يتمنون أن يقع بالمؤمنين هو واقع بهم ، وما ذلك ببعيد فان غضب الله قريب منهم ، ورحمته بعيدة عنهم ، ولعنته واقعة بهم ، هذا هو عذابهم في الدنيا ، أما عذابهم في الآخرة فهو اشد وأعظم إنهم ليس لهم الا جهنم خالدين فيها أبداً ، واي مصير أشأم من هذا المصير !! وما ذلك على الله بعزيز ، فان الله هو الذي يسلط من يشاء من عباده على من يشاء كما قال تعالى « ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير » .

كما أن الله سبحانه ملائكة يسلطها على العاصين ويعذبهم بها الطائعين ألم

رسل سبحانه في بدر ملائكة تنصر المحقين ، قال تعالى « فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وهكذا فان الله عزيز لا يرد بأسه ، حكيم في تدبيره » .

قال سيد قطب : وقد جعل الله صفة المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات هي ظن السوء بالله ، فالقلب المؤمن حسن الظن بربه يتوقع منه الخير دائماً ، يتوقع منه الخير في السراء والضراء ، ويؤمن بان الله يريد به الخير في الحالين ، وسر ذلك ان قلبه موصول بالله ، وفيض الخير من الله لا ينقطع ابداً ، فمتى اتصل القلب به لمس هذه الحقيقة الاصيلة ، واحسها احساس مباشرة وتذوق ، فأما المنافقون والمشركون فهم مقطوعو الصلة بالله ، ومن ثم لا يحسون تلك الحقيقة ولا يجدونها فيسوء ظنهم بالله وتتعلق قلوبهم بظواهر الامور ، ويبنون عليها أحكامهم ، ويتوقعون الشر والسوء لأنفسهم وللمؤمنين كلما كانت ظواهر الامور توحي بهذا على غير ثقة بقدر الله وقدرته وتدبيره الخفي اللطيف .

٣ ـ وتتوجه الآيات الكريمة لخطاب الرسول ﷺ قائلة يا محمد ان الله سبحانه أرسلك لتشهد على الناس يوم القيامة أنك بلغتهم أمر الله ، فآمن من آمن وكفر بل من كفر ، فبشر من آمن بثواب الله وجنته ، وانذر من كفر بعقاب الله وناره .

إن الله سبحانه قد أرسلك لتعرف الناس بالله وأنه هو الخالق الرزاق المحيي المميت ، الواحد الأحد ، ليؤمنوا بهذا الاله العظيم ، وينصروا شريعته ، ويقبلوا تكاليف الايمان ، فيعظمون الله وينزهونه عن النقائص ، صباح مساء ـ أي الدهر كله ـ لان التعلق بالله ثمرة من ثمار الايمان اليانعة ، فالمؤمن ان قاتل فانما يقاتل لله ، وان انتصر فهو ينتصر بالله ، ولذلك فان الصحابة عند ما مدوا ايديهم يبايعون رسول الله ﷺ على الموت « بيعة الرضوان » فهم يبايعون

الله ،انهم في الصورة يبايعون رسول الله ﷺ ويعطون العهد له وفي الحقيقة يبايعون الله « يد الله فوق ايديهم » لان الدين الذي يبايعون لنصره هو دين الله لا دين محمد ، والكلمة التي يبايعون لاعلاء شأنها هي كلمة الله لا كلمة محمد ، فمحمد وسيلة والله غاية ، ومن كانت هذه حاله فالله يرعاه ولا يتخلى عنه ، ومن استشعر هذه المعاني حين البيعة فأبعد من البعيد أن ينكث ببيعته ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، انه هو الخاسر لاغيره وأية خسارة اكبر من الرجوع عن صفقه عقدت مع الله . وأما من وفي ببيعته ، فأكرم به من إنسان ، انه لاجزاء له الا الأجر العظيم ، والجنة الواسعة . قال جابر بن عبدالله بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت وعلى الانفر فما نكث أحد منا البيعة الا جد بن قيس وكان منافقاً اختبأ تحت ابط بعيره فلم يسر مع القوم .

٤ — هذا حال من حضر الحديبية وبذل البيعة ، أما من تخلف عن الحديبية ولم يحضر البيعة من أعراب غفار ومزينة وجهينة واسلم واشجع بعد ان استنفرهم الرسول ﷺ ليخرجوا للحج معه فقد اعلم الله رسوله بم يعتذرون ، إنهم سيقولون : إن الذي أقعدنا عن الخروج معك الى الحج وشهود الحديبية ، أموالنا ، فانه ليس لنا من يقوم باشغالنا ، وأهلونا ، إذ ليس لنا من يقوم باعالتهم وتقديم النفقة لهم اذا نحن خرجنا معك ، وهذا ليس بصحيح فان كل الناس لهم أموال ولهم عيال ، ومع ذلك خرجوا مع رسول الله ، والحقيقة ان الذي اقعدهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ ذلك النفاق المغروس في نفوسهم ...

ولذلك فانهم كاذبون فيما يدعون في قولهم لرسول الله ﷺ استغفر لنا ، وكذلك كاذبون فيما يدعون من أن المانع لهم من الخروج مع رسول الله ﷺ أموالهم وأهلوهم ، وهم يعلمون حقيقة أمرهم ، ويعلمون انهم يكذبون فيما يدعون ، وهنا يلجأ القرآن الكريم إلى إظهار تلك الحقيقة لهم فيقول : لو أراد الله ان يميتكم فهل يستطيع احد ان يرد الموت عنكم ، وكذلك لو أراد ان ينصركم فهل

يستطيع كائن من كان أن يبعد النصر عنكم ، ولا شك أنهم مقرون بانه لايستطيع أحد ذلك الا الله ، فلم تتحلون الاعذار الباطلة في تخلفكم عن ركب رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، والله يعلم حقيقة أمركم وسبب تخلفكم ، ان السبب الحقيقي لتخلفكم عن ركب رسول الله ﷺ يوم الحديبية انكم ظننتم أن الهلاك سيلاقي الرسول والمؤمنين ، وانه ستظفر به قريش فتقتله واصحابه شر قتله ،فلا يعود الى المدينة ، وزين لكم الشيطان هذا الرأي حتى أخذ بمشاعركم، فلم يعد يخطر على بالكم رأي سواه ، وما أسوأ هذا من ظن ، يعلى الكفر ويسحق الايمان ،ولذلك فان هذه الأفكار عندما صدرت عن هؤلاء تبين لنا أنهم قوم فاسدون ، قد بارت قلوبهم حتى أنها لاتنبت نبتة من ايمان.

قال سيد قطب معلقاً في ظلال القرآن على هذه الآية الكريمة « وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة ـ الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله ، البور الخالية قلوبهم من الروح والحياة ـ هكذا يظنون بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة ، وان قوى الارض الظاهرة في جانب أهل الشر والضلال ، وان المؤمنين قلة في العدد ، أو قلة في العدة ، أو قلة في المكان والجاه والمال ، هكذا يظن الاعراب واشباههم في كل زمان ان المؤمنين لاينقلبون الى اهليهم أبداً اذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة ومن ثم يتجنبون المؤمنين حباً للسلامة، ويتوقعون في كل لحظة ان يستأصلوا وأن تنتهي دعوتهم فيأخذون هم بالأحوط ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك ، ولكن الله يخيب ظن السوء هذا ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو ، وبتدبيره هو ، وحسب ميزان القوى الحقيقية ، الميزان الذي يمسكه الله بيده القوية ، فيخفض قوماً ويرفع به آخرين ، من حيث لا يعلم المنافقون الظانون بالله ظن السوء في كل مكان وكل حين .

ويلوح القرآن لهؤلاء المنافقين الذين لم يخلصوا العمل في الظاهر والباطن

لله بالعذاب الأليم ونار جهنم التي تنتظرهم وان هذا النفاق لا يفيدهم شيئا ، ومع ذلك كله فان رحمة الله قريبة من المؤمنين ، فان تابوا وأصلحوا فان الله يغفر لهم ما اقترفوه من أعمال السوء ، وذلك من رحمته سبحانه بعباده .

ان هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ يوم الحديبية لهم اخلاق وصفات أبرزها أنهم أنانيون ، نفعيون ، وستكون لهم مواقف تبرز فيها هذه الصفات ... انهم ما إن رأوا رسول الله ﷺ يسير للقضاء على خيبر ، وكان النصر محققا والمسافة قصيرة ، والغنيمة وافرة حتى طلبوا من رسول الله (ص) أن يسمح لهم بالخروج معه ليصيبوا من غنائم خيبر التي وعد الله بها رسوله والمؤمنين ، يوم الحديبية عندما قال سبحانه « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة تأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ... » وطالما ان الله سبحانه قد خص بهذه الغنائم أصحاب الحديبية ، ولم يجعل نصيباً لمن تخلفوا عن رسول الله في هذا اليوم ، فان هؤلاء المنافقين طلبوا هذا الطلب من الرسول لعله يسمح لهم بالخروج معه ويعطيهم من غنائم خيبر ، فيقولون بعد ذلك : أين وعد الله لكم بان هذه الغنائم خالصة لكم دون غيركم ، وبذلك يتوصلون بالخداع والمكر الى تبديل وعد الله ، ولكن الله سبحانه أمر رسوله بان يردهم فلا يسمح لهم بالخروج معه ، لان وعد الله قد سبق لاهل الحديبية بان تكون غنائم خيبر لهم (كذلك قال الله) وهنا سيلجأ هؤلاء المنافقون إلى الخداع مرة أخرى واستعمال الاساليب الملتوية ، فيقولون انكم لم تسمحوا لنا بالخروج معكم الى خيبر حسداً حتى لا تشركوكم بالغنائم ، ولكن الحقيقة على غير ما يذكرون وليس الأمر كما زعموا ، ولكن لا فهم لهم ...

ويأمر الله سبحانه رسوله بأن يقول لهؤلاء المتخلفين عن يوم الحديبية : ما لكم حريصون على الخروج الى خيبر ، إن الأيام آتية وانكم ستبتلون بالجهاد ،

ويدعون لجهاد أقوام أشداء ، فلا تزالون معهم في قتال حتى يكون النهر ليكم ، أو يدخلون في الاسلام دون قتال ، وحينئذ يظهر الحق ، ويتبين المنافق منكم من المؤمن الصادق ، فمن أطاع الأمر فنفر لقتال هؤلاء فله الجنة ، ومن تخلف فتكا تخلف من قبل يوم الحديبية حقت عليه كلمة العذاب في الدنيا والآخرة ولا ينجو من هذا العذاب الا من تخلف لعذر شرعي كذوي العاهات كالعمى والمرض والعرج وما اشبه ذلك لأنهم لا يستطيعون الجهاد .

٥ — لنهيء الزاد ونحضر الراحلة ولنكون مع أولئك النفر من اصحاب رسول الله ﷺ يتقدمون الى رسول الله ﷺ وقد أخذ مكانه تحت شجرة في الحديبية ... يتقدمون إليه ليقولوا له بايعناك على الموت بقلوب مخلصة ، ونفوس صافية ، وأرواح متعلقة بالسماء ، مما دعا رسول الله ﷺ إلى أن يقول لهم « انتم اليوم خير أهل الأرض » — البخاري — ومما جعل رضى الله يظلهم ، فيترك رضاه على أولئك الألف وخمسمائة صحابي بآيات تتلى صباح مساء « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة »

لقد علم الله في بيعتهم الصدق والوفاء ، والسمع والطاعة ، فأظلهم بالطمأنينة ، ووعدهم بأن يجري على أيديهم فتحاً قريباً ، ونصراً مظفراً ، وكان أول نصر لهم صلح الحديبية الذي حصل بينهم وبين اعدائهم من قريش ، وما حصل بسبب ذلك الصلح من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر ، — وهو الفتح القريب — وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد ، والغنائم الكثيرة الوافرة التي حصلوا عليها بعد ذلك يوماً بعد يوم ، والله سبحانه عجل لهم الغنيمة العظيمة يوم الحديبية ، وصلح الحديبية منهم وأي منهم ، انهم استطاعوا أن يكسروا بواسطته الحصار ، ويفتحوا النفوس للايمان ، ويخرجوا مكنونات صدورهم الى حيز العمل بما بايعوا عليه في بيعة الرضوان ، والله سبحانه حفظهم من أذى قريش وغيرهم من الأعداء بكل ذلك ليعلم المؤمنون ان الله حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء وان قل عددهم ،

وإن قل مالهم ، وان قل سلاحهم ، وفوق هذا النصر هناك نصر آخر ، نصر على الشيطان ووساوسه ، والنفس وسوئها، انه الهداية الى الدين الحق ، والخطة المستقيمة ، وهكذا يجمع الله لهؤلاء المبايعين بيعة الرضوان بين خيرين خير الغنيمة وخير الهداية ...

وهناك غنيمة أخرى وفتح آخر لقد كان المسلمون يعتقدون انهم لاقدرة لهم عليه ، انه غزو بؤرة الشرك ، وكسر بيضة الأوثان ، انه فتح مكه ، ولكن الله سبحانه يسره لهم ، فجعل المشركين فيها يستسلمون دون قتال ، وهكذا فقد أحاط الله بها ، وسلمها غنيمة باردة للمسلمين ، وما ذلك على الله بعزيز ، فانه سبحانه قادر على كل شيء ـ ولو أن المشركين في مكة قد جمعوا جموعهم واستعدوا للقتال لما ثبتوا في المعركة ، وولوا هاربين لا يلوون على شيء ، يطلبون النجدة ولا من ينجدهم ، ويفتشون على من يلي أمرهم فلا يجدون .

سنة الله في الكون انه ما تقابل الكفر والايمان في معركة الا وأيد الله الايمان ونكس أعلام الكفر ، انها سنة الله التي لا تتبدل أبداً ، ولكن النصر مشروط بالايمان الذي يتجلى بنصر شريعة الله « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »

وإن من أبرز الأدلة على نصر الايمان على الكفر ما حدث يوم الحديبية من كف ايدي المشركين عن المؤمنين ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين ، عند المسجد الحرام ، فصان كلا الفريقين ، وأوجد بينهم صلحاً فيه خير للمؤمنين ، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة ، حتى أنه عندما هاجم نفر من المشركين يبلغ عددهم السبعين تقريباً معسكر الرسول ﷺ يريدون أن يصيبوا غفلة من المؤمنين ، أسرهم المؤمنون جميعاً وأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ فاطلق سراحهم ، فأنزل الله سبحانه « وهو الذي كف ايديهم عنكم وأيديكم عنهم ... »

ان هؤلاء المشركين من قريش ومن مالأهم يبغي نصرتهم على رسول الله

(ص) هم الكافرون حقاً ، انهم خارجون عن التعاليم لا في نظر الاسلام فقط بل في نظر كل دين من الأديان التي تسود الجزيرة العربية آنذاك ، انـــه في عرفهم لايجوز أن يحال بين المسجد الحرام وبين الناس حائل ، كما لايجوز أن يحبس هدى عن المسجد الحرام ، وهؤلاء قد انتهكوا كل عرف ، وتحدوا كل قانون عندما صدوا رسول الله (ص) واصحابه عن المسجد الحرام ،وما جاءه الا معظماً ،وحين حبسوا الهدى التي قدمها رسول الله (ص) وأصحابه عن الوصول الى اماكن نحرها ، إنها لكبيرة جداً أن يقدم الكفار على مثل هذا وان العقوبة التي يستحقونها على كفرهم وكبيرتهم التى ارتكبوها من الصد عن المسجد الحـــرام هي تسليط المسلمين عليهم ، وإبادتهم عن بكرة ابيهم ، ولكن هناك أمور دعت أن لايسلط الله المؤمنين عليهم في الحال، ويرجيء عقوبتهم إلى ما بعد ذلك تلك هي

١ — لقد أخر الله عقوبتهم ـ وهي الابادة ـ لان الله قد علم أنه سيدخل منهم في دين الله خلق كثير ، وقد رأينا أن المسلمين الذين خرجوا مع رسـول الله يوم الحديبية كانوا الفاً وخمسمائة ، بينما الذين خرجـوا مع رسول الله يوم فتح مكه عشرة آلاف ومعنى ذلك ان كثيراً من الكافرين قددخلوا في الاسلام ومن بينهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، ولوعجل الله عقوبتهم ـ وهي الابادة ـ لحرم الاسلام منهم .

٢ — يوجد بينهم كثير من المؤمنين والمؤمنات المستضعفين الذين اخفوا ايمانهم ، وهم غير معروفين ، وقتل هؤلاء مع المشركين ، لايخلو من الحرج ، ولو تميز الكفار عن المؤمنين الذين بين اظهرهم لسلط الله المؤمنين عليهم فقتلوهم قتلاً ذريعاً .

— انها عنجهية جاهلية حقاً ، وانفة جاهلية ، وكبر جاهلي اعمي لايعرف الحق ، ولا يرعاه ، هذا الوصف كان خلقاً لهؤلاء المشركين ، انهم منعوا محمداً من دخول المسجد الحرام لا لشيء ولكن كي لاتقول العرب دخل عليهم الحرم

وهم كارهون ، وكان ما كان من أمر الصلح ، وعند كتابة الصلح كتب علي بن ابي طالب رضي الله عنه « بسم الله الرحمن الرحيم » فلم يرض عمدو سهيل المشركين بها واستبدلها بكلمة « باسمك اللهم » وما الفارق بين هذه وتلك الا ان الحمية الجاهلية تريد أن تثبت قدمها ، والعقلية الجاهلية أرادت أن تعبر عن مكنونها ، وكاد المسلمون أن يثوروا لولا رعاية الله وحكمته بأن لا يقابل هؤلاء حمية الجاهلية بحمية ولو شريفة ، حيث ابدلهم خيراً منها السكينة والوقار والصبر الذي يليق بالمسلم المتصل بالله ، الخاضع لأوامره ، وعصمهم بكلمة التقوى « اشهد ان لا إله إلا الله ونشهد أن محمداً رسول الله » هذه الكلمة مبعث الطاعة لله ولرسول الله ومبعث التقوى والايمان ومن أحق من أهل بيعة الرضوان بهذا الشرف العظيم ، من أحق بها ممن قال رسول الله (ص) فيهم « انتم اليوم خير أهل الارض » - البخاري .

عليكم السلام يا أهل بيعة الرضوان : اني لاستشف الغيب ، وتتحدث روحي الخطا تتلمس روحكم الزكية الطاهرة ، يكفيكم فخراً انكم شهد الرسول بكم بانكم خير أهل الارض ، ويكفيكم فخراً أن الله شهد لكم بانكم أهل التقوى ، وأهل لأن تحملوا شعار لا إله إلا الله محمد رسول الله ، لقد بعتم النفس رخيصة في سبيل الله ، فكتب الله لكم الخلود في الدنيا والآخرة ، لقد أصبحت قراءتكم عبادة تتلى في القرآن ، ويتقرب بها إلى الله ، ويحضر القلب معها في الصلاة .. سلام الله عليكم يا أهل بيعة الرضوان بما بذلتم من نفس وما أحييتم من ليل ، وما قارعتم من عدو ، سلام الله عليكم أهل بيعة الرضوان سلاماً لا ينضب ، وتحية لا تحصى ، لأن الله اعترف لكم بأنكم أهل لحمل شعار الاسلام لا آله إلا الله محمد رسول الله ، حقاً ان الله عليم يعرف من يستحق الخير ، فانتم أهل لخير وأهل الثناء يا أصحاب بيعة الرضوان .

٧ — كان رسول الله (ص) قد رأى في المنام قبل خروجه إلى الحديبية أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو في المدينة فلما ساروا على الحديبية ، لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا ستفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع

من قضية الصلح ورجعوا علمهم هذا على أن يعودوا في العام القابل ، وقع في نفوس بعض المسلمين من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال : ألم تكن تخبرنا انا سنأتي البيت ونطوف بسه ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك انك تأتيه عامك هذا ؟ قال : لا ، قال النبي (ص) « فانك آتيه ومطوف به » ورغم هذا البيان فان بعض المنافقين أمثال عبدالله بن ابي وغيره يفشون بين الناس بأن رؤيا رسول الله (ص) لن ينفذها الله ، لافي هذا العام ولا في المستقبل ، فكانوا يقولون « والله ما حلقنا ولا قصرنا ، ولا رأينا المسجد الحرام » ولذلك انزل الله قوله جواباً لهم ودحضاً لمزاعمهم « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ».

وبالفعل كان العام القابل في شهر ذي القعدة سنة سبع للهجرة خرج إلى مكة معتمراً عمرة القضاء وساق معه الهدي وبينما هو في الطريق بعثت اليه قريش لجنة رسلها « مكرز بن حفص » ليعرف قصد قدوم محمد (ص) فأعلمه الرسول (ص) انه جاء لعمرة القضاء حسب نص معاهدة الحديبية والتي تنص على رجوعه وصحابه هذا العام مثله للهجرة ـ ولم أر لهذه العمرة في العام القابل فلا مانع ، فنقل « مكرز » الى قريش كلام رسول الله (ص) فخرج رؤوس الكفر من مكة لكيلا يرى رسول الله مكة ، أما باقي أهل مكة فانهم جلسوا ينظرون الى ما يعمله محمد وأصحابه ، ودخل رسول الله وقد أمسك « عبدالله بن رواحه » بزمام ناقته ماشياً أمامها وبين يديه بالتلبية .

وهذا صدقت رؤيا رسول الله (ص) فقال تعالى « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ـ ان شاء الله ـ آمنين ... الآية ...

انهم حقاً دخلوا مكة المكرمة آمنين بعد أن خرج رؤوس الكفر منها ، ـ معتمرين ـ قد حلقوا رؤوسهم أو قصروا شعورهم ، نعم أنهم تأخروا عاماً عن الرؤيا وكانوا يعتقدون أنهم سيدخلون مكة عام الحديبية ، ولكن الله سبحانه

علم ما خفي عليهم من الحكمة في هذا التأخير ، حيث مكنهم من فتح خيبر ، بعد صلح الحديبية ، وقبل عمرة القضاء ، وجعل عمرة القضاء فتحاً للقلوب واستطلاعاً عسكرياً لأحوال مكة التي كتب الله لهم فتحها في العام القابل عام ثمان للهجرة.

ان هذا الرسول الكريم قد أرسله الله سبحانه بدين الله الصحيح ، دين التوحيد ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، أرسل الله هذا الدين وهذا الرسول لا ليحد في بقعة من الأرض ، أو يحصر في بلده ، بل لينطلق هذا العملاق الجبار ليدك الظلم ، ويحطم الطغيان ، وينشر العدل ، والتآخي ، والعلم ، والخير في العالم ، حتى أنه ليفوق كل دين ، ويسمو على كل تشريع ، وفعلا فقد انتشر الاسلام بسرعة فائقة وتقبله الناس بكل اعجاب وتقدير ، فان وجد بعض الناس لا يعترفون برسول الله (ص) رسولاً ونبياً وبشريعة الاسلام صالحة للحياة منقذة للبشرية ، فلا يهمنا امرهم بعد أن شهد الله بأنه رسول الله ، وبعد أن شهد الله بأن شريعته هي الشريعة المثلى المحققة للخير والعدل والتآخي . إن مثل هؤلاء كمثل مشركي قريش حين لم يعترفوا برسول الله (ص) ولا بدينه ، فهل أوقفوا سير التاريخ ، وهل منعوا التاريخ من أن يقول كلمته ، وهل منعوا ذلك المد من الخير أن يجتاح بلادهم ليبدل ظلامها نوراً وانحطاطها رقياً ، وفقرها غنى ، وجهلها علماً ...

٨ — وتختتم السورة جولتها برسم صورة واضحة جداً للمؤمنين الصادقين ، لصحابة رسول الله ﷺ انهم « اشداء على الكفار » ولو كان هؤلاء الكفار آباؤهم أو ابائهم أو اخوتهم ، وكم طلب عبدالله بن عبدالله بن ابي سلول من رسول الله ﷺ أن يأذن له في قتل أبيه لأنه منافق ، انهم أقاموا رابطة الايمان مكان كل رابطة ، وقرابة الدين مكان كل قرابة ، ولذلك كانوا « رحماء بينهم » وقد وصفهم الله سبحانه بقوله « ويؤثرون على انفسهم وكان بهم خصاصة » ووصفهم رسول الله ﷺ « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »

ان هؤلاء المؤمنين دائمو التعلق بالله ، دائمو العبادة له ، وقد عبر القرآن عن

هذا بتعبير يشعر بهذا الاستمرار « تراهم ركعاً سجداً » فان هذا التعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراهم فيها الرائي حيثما رآهم ، ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهي الحالة الاصلية لهم في حقيقة نفوسهم ، حتى وكأنهم يقضون كل زمانهم في عبادة الله ، وحقاً ما وصفهم القرآن الكريم فانهم ينصرفون من العبادة وهي أحب إليهم من اي شيء آخر ، ينصرفون عنها وهم ينتظرون العودة إليها ، انهم قاموا الليل حتى تفطرت أقدامهم ، فلما عجزوا عن القيام اتخذوا عصياً يتسندون إليها لمواصلة العبادة . فقد روى الامام مالك في الموطأ عن السائب بن يزيد أنه قال : أمر عمر بن الخطاب ابي بن كعب وتميماً الداري أن يقوما للناس باحدى عشرة ركعة ، قال : وقد كان القارىء يقرأ بالمئين ، حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام وما كنا ننصرف الا في فروع الفجر »

إنهم لا يحزنون من عبادتهم هذه رياء ولا مفاخرة وانما يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً ، إن هذا هو الذي يتمثل بالهم ، لذلك فهم لا يرتاحون إلا في ركوعهم وسجودهم ، انهم وان تعبت اجسامهم حتى اتخذوا العصى يعتمدون عليها من طول القيام ، إلا أنهم يجدون الراحة في هذا التعب ، والسعادة في هذا الضنى ، لانهم يقتربون من الله ، حتى ظهرت هذه العبادة على وجوههم ، فبدا فيها ذبول العبادة ووضاءة العابدين ، واشراق الروح ، كما بدت على تصرفاتهم واخلاقهم ، فكانوا أبعد ما يكون عن الكبر والعجب والخيلاء و ... قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه « من اصلح سريرته اصلح الله تعالى علانيته »

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه « ما أسر احد سريرة إلا ابداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه » وان هذه الصفات ليست بدعاً في صحابة رسول الله ﷺ فقد علمها الله سبحانه من الأزل فأورد وصفهم في كتبه السماوية المتقدمة فوصفهم في التوراة بهذا الوصف ، كما وصفهم في الانجيل بزرع خصب نشيط يخرج فرخه من قوته وخصوبته ، فقواه حتى غلظت سوقه وامتلأت وكانت قائمة غير معجوجة ولا ملتوية ، اذا رآه اصحاب الخبرة بالزرع أعجبوا به ،

وما رآه وتراءى له مما يحجب به والوارع هنا هو رسول الله ﷺ وعبارة الجيل متى
١٣٠/١ الذي رأيته ملكوت السماوات حبة خردل أخذها انسان وزرعها في حقله
٣٣ وهي اصغر جميع البزور ولكن متى نمت فهي اكبر البقول وتصير شجرة حتى
ان طيور السماء تأتي وتتآوى في أغصانها »

هذا وقع منظر الصحابة الراكعين الساجدين في نفس رسول الله (ص)
انه الحجاب وتقدير ، أما وقعه بالنسبة للكفار فانه وقع ألم وغم ، فانهم ما ان
يرونهم هكذا حتى يغتاظون « قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور ».

دليل الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم الاستاذ ابراهيم السلقيني
٧	مقدمة الكتاب
٩	ابتداء منهاج الصف الأول لدور المعلمين والصف الخامس
٩	ابتداء منهاج الصف الأول ابتدائي
٩	سورة الفاتحة
١٣	سورة الاخلاص
١٥	سورة الناس
١٨	سورة الفيل
٢١	ابتداء منهاج الصف الثاني ابتدائي
٢١	سورة الفلق
٢٤	سورة الماعون
٢٧	سورة العصر
٢٩	سورة الكوثر
٣١	سورة قريش
٣٢	ابتداء منهاج الصف الثالث ابتدائي
٣٢	سورة القدر
٣٤	سورة العلق
٣٩	سورة الاضحى
٤٢	سورة الانشراح
٤٤	سورة الأعلى
٤٨	ابتداء منهاج الصف الرابع إبتدائي
٤٨	سورة النصر
٥٣	سورة التين
٥٦	سورة الفجر
٦٣	سورة البروج
٦٩	سورة الانفطار
٧٣	ابتداء منهاج الصف الثاني لدور المعلمين
٧٣	نهاية منهاج الصف الخامس
٧٣	ابتداء منهاج الصف الخامس إبتدائي

الصفحة	الموضوع
٧٣	سورة المزمل
٨٢	سورة الملك
٩٥	سورة الجمعة
١٠٩	سورة لقمان
١٢٩	ابتداء منهاج الصف الثالث الدور الثانين
١٢٩	ابتداء منهاج الصف السادس إبتدائي
١٢٩	سورة الصف
١٣٥	بشارة الكتب السماوية بمبعث الرسول (ص)
١٥٣	سورة الحشر
١٧٢	سورة الحجرات
١٩٠	سورة الفتح

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣	٤	كفُوا	كفُوا
١٨	١٣	فتنوط	فتنوط
١٩	٧	محمودا	محمودا
٢١	٧	والليل	الليل
٢٤	٤	له صلّين	للمصلّين
٢٩	١٨	ذكرا	ذكر
٣٤	١٤	فادية	ناديه
٣٦	١	يتحنث	يتحنث
٤٠	١	مارأى	ماأرى
٥٠	٥	ثيروا	ليُرَوا
٦١	١٠	يجرونها وما	يجرونها وما
٦١	١٢	هذه الموقف	هذا الموقف
٦١	٢٣	اما ما كان	أما من كان
٦٣	٤	قُتل	قُتِل
٦٣	٥	قعودَ	قعودٌ
٦٣	١٢	المبيدِ	المبيدُ
٦٦	٩	والحاملي	وحاملي
٦٧	٤	كان الذنب	كانت التوبة
٦٩	٦	ركشبك	ركّبك
٧٠	٢٠	لاجبال	لاجبالاً
٧٣	٦	رتّل	رتِّل
٧٦	١٩	آله	آله
٧٨	٢٠	قدموا	قوموا
٨٤	٢	الذمي	الذي
٩٠	١٨	آله	آله
٩١	١٧	من طريق	في طريق
٩٢	٧	لحيز	الحيز
١٠٤	١٥	مشهى	منهي
١٠٥	١٨	يتركونك	يتركونه
١٠٧	٣	الأول	الحال
١٠٧	١٧	المراد من البيع	المراد البيع
١٠٩	٤	ألم	الم
١٠٩	٦	ربهم	وربهم
١١٢	٦	تسلون	تسلون
١١٣	٣	ألم	الم
١٢١	١٠	صوته يشمئز	صوته حتى يشمئز
١٢٤	٢٠	تحلفا	تلفا
١٢٧	١٨	بقوله تعالى	مستدلاً بقوله تعالى
١٣٣	١٦	دين الله حتى	دين الله حتى
١٣٤	١٧	الجهاد الذي فرضه	الجهاد فرضه
١٣٧	١٠	حيداً	جيداً
١٣٩	٧	ـ المائدة ٢١ ـ	ـ المائدة ٢١ ـ ولكنهم رفضوا دخولها
١٤٨	٢٣	فيعوز	فيفوز
١٥٤	١٢	المظلون	المفلحون
١٥٦	١٧	تواطنوا	توطنوا
١٦٦	١٤	النسبة	النسب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٧٢	٨	للقوى	للتقوى
١٧٥	٥	كمحمد،بن	كمحمدبن
١٧٥	١٢	١ـلاتقدموا	لاتقدموا
١٧٥	١٤	٢ـامتحن	امتحن
١٧٥	١٥	٣ـالحجرات	الحجرات
١٧٩	٢١	اكثرهذنب	اكثرمن ذنب
١٧٩	٢٣	بعضكم لبعض	بعضكم بعضاً

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٨٠	١١	لايأخذون	لايأخذوا
١٨١	٢٠	الكلمة	الكلمة
١٨٩	١٢	اصطرز	اضطر
١٩٠	٣	فتحنْا	فَتحْنَا
١٩١	١٠	عطيما	عظيماً
٢٠١	١٥	وكفربل من كفر	وكفرمن كفر
٢٠٨	١٢	الخطا	الخطى

آثار المؤلف

١ ـ تسهيل المواريث : مطبوع من منشورات مكتبة ربيع ـ حلب

٢ـ من روح القرآن : مطبوع من منشورات مكتبة ربيع ـ حلب

٣ـ أحكام المرأة في الفقه والقانون : ويحوي كل ماتحتاج اليه المرأة المسلمة ـ مخطوط ـ

٤ـ الميراث في الاسلام : مخطوط

٥ـ النفقه في الفقه والقانون : مخطوط

٦ـ المهر في الفقه والقانون : مخطوط

٧ ـ المرأة والحجاب مخطوط

٨ ـ سلسلة القصص الديني للأطفال صدر منها «والرسول والساحر اليهودي»

٩ـ مذاهب السلف في الفقه : يجري العمل به حالياً وزجو الله إتمامه